جامعة أم درمان الإسلامية

كلية الدراسات العليا

كلية الآداب

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية

العلاقات الإسلامية البيزنطية

في العصر العباسي الأول

" ١٣٢-٢٣٢ هـ / ٧٥٠-٨٤٧م"

لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية

إعداد الطالب:-

بشير عثمان شيحة

إشراف الأستاذ الدكتور:-

أ.د. عبد القافي محمد كبير

للعام ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

((إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ))

سورة الأنفال: الآية [١٩]

((الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)).

سورة الروم: الآية [١-٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

قال تعالى: ((**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**)). [1]

إلى والديَّ نبع المحبة والحنان والوفاء

إلى الذين حملوا لواء العلم والمعرفة وكانت مآثرهم ومضات سعادة الآخرين

إلى معلمي الذين تعلمت منهم في مختلف المراحل التعليمية

إلى أخوتي وأسرتي وأصدقائي وزملائي أعضاء هيئة التدريس

أقدم هذا العمل العلمي المتواضع

---

١ - سورة الإسراء: الآية [٢٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

شـــكـــر وتـــقـــديـــر

الحمد الله القائل: ((**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ**)).[١] والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين القائل: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس).

فالشكر أولاً لله عز وجل على هديه وتوفيقه الذي وفقني إلى إنجاز هذا البحث، ويطيب لي أن أقدم شكري ووافر امتناني إلى: **أستاذي البروفسور عبد الباقي محمد كبير المشرف** على هذا البحث لما لمسته من حسن رعايته المثلى وتوجيهاته القيمة التي أثرت هذا البحث حتى استوى الجهد على صورة مرضية فله مني فائق التقدير والشكر والعرفان ومن الله أطلب الصحة وطول العمر له ولكافة أسرته وجزاه الله عني وعن جميع من تتلمذ على يديه خير الجزاء وأتقدم بالشكر ووافر امتناني وتقدير بكل من مد يد العون وأخلص لي النصيحة من أجل إنجاز هذا البحث وأخص بالشكر أساتذتي الكرام بقسم التاريخ الذين كان لهم الفضل في تكويني العلمي وإعدادي لتحمل أعباء البحث والدراسة لكل هؤلاء جميعاً وافر الشكر والتقدير وأتقدم بالشكر والعرفان لأستاذي الفاضل **د. عبد الفتاح محمد الكباشي** رئيس قسم التاريخ لما بذله من تقديم المساعدة والاستفادة من نصائحه فله مني جزيل الشكر والتقدير والعرفان.

وأتقدم بالشكر إلى مدير جامعة أم درمان الإسلامية وإلى عميد الدراسات العليا وعميد كلية الآداب وإلى جميع العاملين والموظفين وعلى رأسهم مسجل الدراسات العليا بكلية الآداب طرابلس، وأتمنى لهم مزيداً من التقدم والتألق والإبداع.

ومسك الختام

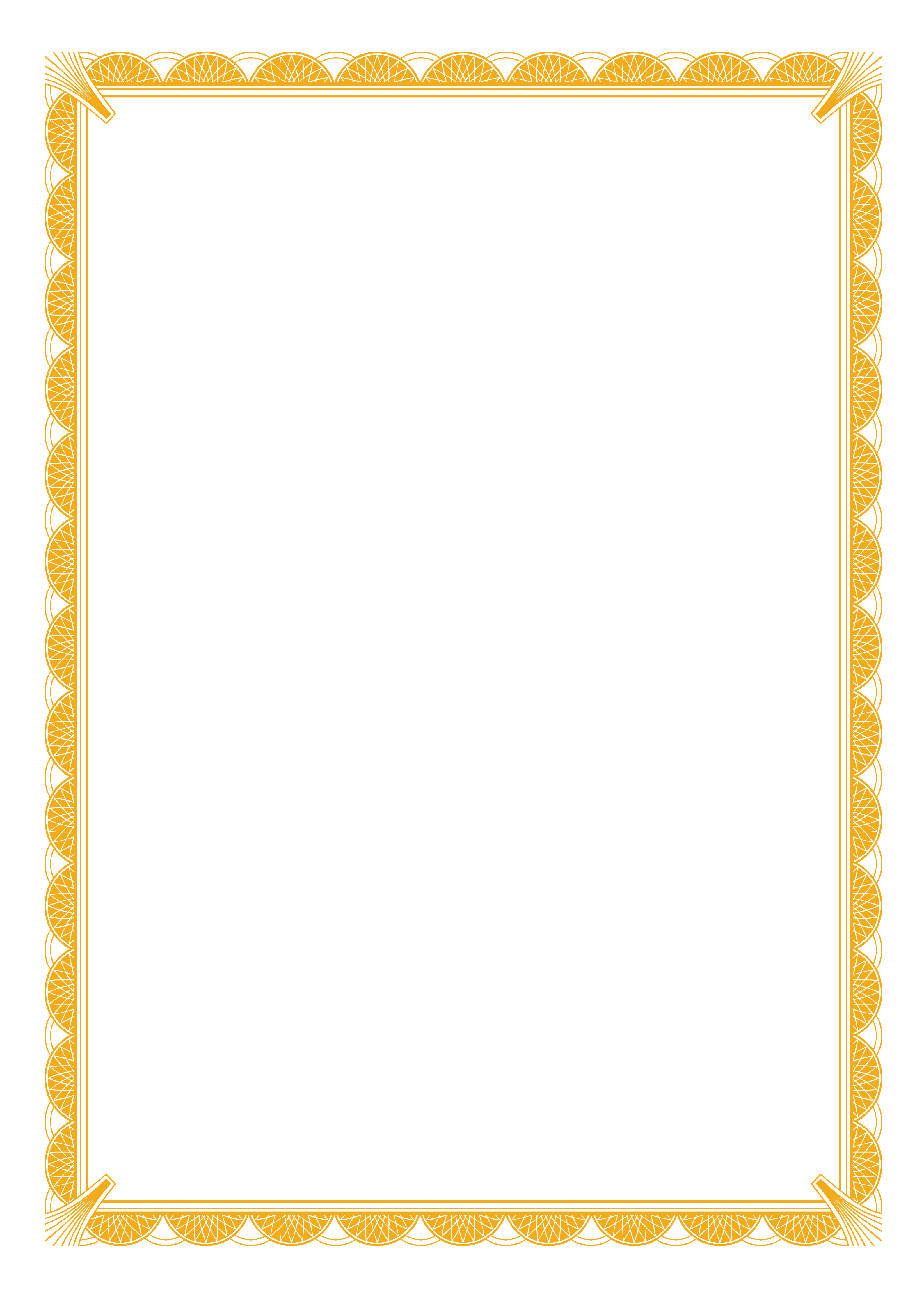
أشكر أخواتي وأسرتي كافة الذين شملوني بالتشجيع والدعاء وتقديم كل وسائل الراحة، فكل هؤلاء جميعاً وافر الشكر والتقدير.

كما لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر للمهندس محمد الصيد جاب الله الذي تكرم بطباعة هذا البحث متمنياً له التوفيق والنجاح.

والله ولي التوفيق...

---

١ - سورة البقرة: الآية [١٥٢].



ملخص البحث

إن العلاقات الإسلامية البيزنطية في العصر العباسي الأول بجوانبه السياسية والحربية والثقافية والتجارية من الموضوعات المهمة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب وتعد الفترة التي تمتد من سنة ١٣٢هـ-٢٣٢هـ/ ٦٥٠-٨٤٦م موضوع الدراسة واحدة من أهم فترات التاريخ العباسي والبيزنطي، حيث كانت بيزنطة ترتكز على دعامات قوية ثابتة، فعلى الرغم مما كانت تتعرض له من حين لآخر من أزمات داخلية وخارجية فبيزنطة إلى جانب واجبها الديني حامية المسيحية في الشرق قامت بدور المدافع عن أوربا وعلى الرغم من انتقال الخلافة الإسلامية من دمشق إلى بغداد قد أبعد الخطر الإسلامي على الدولة البيزنطية إلى حد ما فإنه لم يكن دائر في وضع حد للعداوة بين الخلفاء المسلمين وأباطرة بيزنطة وهكذا غلب على العلاقات بين القسطنطينية وبغداد التوتر والاضطراب فهي لا تكاد تستقر على حال فقد اتسمت بالصراع الحربي حيناً وبالهدوء المشوب بالحذر والترقب حيناً آخر وقد أطلق على فترات الهدوء فترات الدبلوماسية وقد اتخذت هذه الاتصالات أشكالاً مختلفة من مراسلات وسفارات شخصة أو وفود لتبادل الأسرى والفداء ولم تقتصر هذه الأمور على الشؤون الحربية فحسب بل اشتملت على مجالات أخرى سياسية وثقافية وتجارية مما يوجب عدم إغفال دور الأطراف الأخرى سواء التي ساهمت بشكل مباشر أم غير مباشر في هذه الاتصالات والتحالفات، كما تخللت فترة الصراع اتصالات أخرى سياسية وثقافية وتجارية فيما يوجب عدم إغفال دور الأطراف الأخرى سواء التي ساهمت بشكل مباشر أم غير مباشر في هذه الاتصالات والتحالفات.

كما تخللت فترة الصراع اتصالات ثقافية سهلت إلى حد كبير حصول المسلمين على الكثير من المخطوطات اليونانية ونهضت حركة الترجمة العلمية وازدهرت مراكز ثقافية مثل جنديسابور وأنطاكيا وحران وغيرها.

إلى جانب هذا الاتصال الثقافي شهد العالم في هذه الفترة علاقات اقتصادية خاصة في المجال التجاري التي لعب دوراً مهماً في تطور العلاقات بين الدولتين العباسية والبيزنطية فقد كانت بيزنطة تحتكر هذه التجارة وتتحكم في إصدار صكوك العملة التي تسير الأمور التجارية، إلا أن المسلمين تمكنوا منذ العصر الأموي في سنة ٧٣هـ-٦٩٢م من إصدار عملة إسلامية مما أدى إلى كسر الاحتكار البيزنطي من ناحية وإقامة علاقات تجارية ذات نمط جديد من ناحية أخرى الأمر الذي كان له أثره في تطور العلاقات بين الطرفين.

Abstract

The Islamic Byzantium relationship in the first Abbasite era with its political, military, cultural and commercial aspects are one the most important domains in the history of relationship between east and west. The era between AHB2-AH232/AD 750-846, the subject of this study is an important epoch of the Abbasite- Byzantium history. Despite the internal and external crises which Byzantium faced it was committed to its spiritual duty-protection of Christianity in the east and in Europe. Transposition of the Islamic successership from Damuscus to Baghdad lessened the Islamic danger to some extent, but could not eliminate hostility between Muslim Khaliphs and Byzantium and Baghdad was not stable. It was characterized by inconsistency between war and fragile peace. Periods of peace state: were called as periods of ultimatum and reconciliation because of their shortness. Despite all that, they were not void of diplomatic relations which took the shape of correspondence, embassies, exchange of prisoners of war, and ransoms such actions were not restricted to military affairs, they involved other political, cultural and commercial affairs. Conflict periods also witnessed political, cultural, and commercial contacts what proves the role of other parties that contributed directly or indirectly in such contacts.

Conflict periods periods also witnessed cultural contacts which tremendously facilitated access to Greek graphological master pieces which boosted scientific translation among Muslim and nourished their cultural centers, such as, Gyndnysabore, Antakiay Haran, etc.

Along with such cultural contacts, the world witnessed during the epoch economic relations, particularly in the field of commerce which played an ion portent role in improving relationship between the Abbasite and Byzantium states. Byzantium had played the role of the monopolist in commerce and in currency issuance, soon Muslims broke this role and they were able to issue an Islamic currency during the Amaway era in AH73-AD 692, what helped in establishing new commercial relationships the improved relations between the two parties.

جـــدول الـــرمـــوز

الرمز	المـعنـى
ص	صفحة
هـ	هجري
م	ميلادي
مج	مجلد
ت	توفي
ق	قسم
ب ت	بدون تاريخ
ط	الطبعة
جـ	الجزء
/	إشارة بين التاريخ الهجري وما يقابله في التاريخ الميلادي
*	لتوضيح فكرة أو إعطاء نبذة

الفهرس

الفصل الثاني

الاتصالات الدبلوماسية بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية

الفصل الثالث

العلاقات الثقافية بين الدولتين العباسية والبيزنطية

الفصل الرابع



المقدمة

المقدمة



يعد موضوع العلاقات بجوانبه السياسية والحربية والثقافية والتجارية بين الدولتين العباسية والبيزنطية في العصر العباسي الأول من الموضوعات المهمة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب وتعد الفترة التي تمتد من سنة (١٣٢-٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٦م) موضوع الدراسة واحدة من أهم فترات التاريخ العباسي والبيزنطي حيث كانت بيزنطة ترتكز على دعامات قوية ثابتة.

فعلى الرغم مما كانت تتعرض له من حيث لآخر من أزمات داخلية وخارجية تجعلها تبدو كأنها على وشك الانهيار، فإنها في أغلب الأحيان كانت تتغلب عليها وتتخطها وكان يعقب تلك الأزمات فترات أخرى من القوة والازدهار مثلما حدث في فترى حكم الإمبراطور ليو الايوري وخليفته قسطنطين الخامس، فبيزنطة إلى جانب واجبها الديني حامية المسيحية في الشرق قامت بدور المدافع عن أوروبا ضد هجمات أعدائها وبصفة خاصة المسلمون.

وعلى الرغم من انتقال مركز الخلافة الإسلامية من دمشق إلى بغداد قد أبعد الخطر الإسلامي عن الدولة البيزنطية إلى حد ما، فإنه لم يكن ذا أثر في وضع حد للعداوة بين الخلفاء المسلمين وأباطرة بيزنطة إذا استمر تهديد المسلمين للدولة البيزنطية مع أن قدرات العباسيين الحربية وبخاصة في المجال البحري قد ضعفت عما كانت عليه زمن الخلافة الأموية.

ولكن هذا لا يعني أن قوتهم البرية كانت على الوتيرة نفسيها حيث شكلت خطراً على الحدود الشرقية للدولة البيزنطية في الوقت الذي عجزت فيه بيزنطة عن المحافظة على مكانتها الحربية في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري (وأواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلادي) بسبب المشكلة الدينية التي دارت حول عبادة الصور التي أدت إلى انقسام المجتمع البيزنطي، وإضعاف الدولة الأمر الذي أضطر بعض أباطرتها إلى تقديم إتاوة لخلفاء المسلمين.

وهكذا أغلب على العلاقات بين القسطنطينية وبغداد التوتر والاضطراب فهي لا تكاد تستقر على حال، فقد اتسمت بالصراع الحربي حيناً وبالهدوء المشوب بالحذر والترقب حيناً أخر، وقد أطلق على فترات الهدوء هذه فترات الهدنة الصلح، نظراً لأنها كانت فترات عابرة وقصيرة، وعلى الرغم من أن الدولتين اهتمتا اهتماماً كبيراً بتنظيم جيوشها وأساطيلها لحماية حدودهما إلا أنهما لم تغفلا الاتصالات الدبلوماسية، وقد اتخذت هذه الاتصالات أشكالاً مختلفة من مراسلات وسفارات شخصية أو وفود لتبادل الأسرى والغذاء، ولم تقتصر هذه الأمور على الشؤون الحربية فحسب، بل اشتملت على مجالات أخرى سياسية وثقافية وتجارية مما يوجب عدم إغفال دور الأطراف الأخرى سواء التي ساهمت بشكل مباشر أم غير مباشر في هذه الاتصالات والتحالفات وعلى سبيل المثال ما قام به شارلمان في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) من جهود لإقامة علاقات طيبة مع الدولة العباسية، ولم تكن أمام بيزنطة مفر من الاعتراف بأنها أمام حضارة إسلامية لا تقل عن أصالة من الحضارة البيزنطية، بالرغم من استمرار طابع العداء والحقد تجاه العالم الإسلامي ولاسيما عندما كانت المعارك تدور رحاها من حين لآخر فإن الصلات الحضارية بين الدولة البيزنطية والدولة العباسية استمرت العلاقات بما فيها الدبلوماسية والثقافية والتجارية وهنا يتضح كيف حافظ كل من الفريقين على بقاء ميزان السياسي بينهما متعادلاً، وأن ما يطرأ على علاقتهما السياسية من أخذ ورد إنما هو من علاقات الحياة،

تخاصماً أحياناً وجنحا إلى السلم أحياناً، تحمل العلاقات بينهما جميع معاني الحياة بما فيها من أخذ ورد وضر ونفع، فلم تقم الدولتان بينهما سداً منيعاً يجعل كلاً منهما تحيا في واديها الخاص بها، وإنما كانت المسالك بينهما مطروقة تزخر بالركبان التي حملت ما يمكن حمله من نتاج الدولتين العلمي والثقافي والتجاري وتزود كل فريق من معين الآخر بما يقتضيه من القيام بزيارات وتبادل واحترام المعتقدات، وجهدت على حصر الدولتين على التمسك بأهذاب حسن الجوار رغم ما نشب بينهما من خصام وصراع وحروب وكان الميدان الثقافي أول حلبة دربت فيها أفكار الدولتين العباسية والبيزنطية على التعاون معاً في بناء صرح مديناتهما والتفاهم على ما فيه النفع العام، وهكذا يمكن القول أن العلاقات الإسلامية البيزنطية لم تكن حروباً في كل الأوقات بل شهدت فترات من الهدوء تتخلله المظاهر الحضارية.



الإطار النظري

الإطار النظري

الإطار النظري

١- **أهمية الموضوع:**

قد جاء اختيار هذا الموضوع نظراً لما يمثله من أهمية خاصة في وقتنا الراهن، في محاولة متواضعة لوضع أيدينا على الأسباب التي مكنت من تحقيق الانتصارات تلو الأخرى على واحدة من القوى العظمى في ذلك الوقت خاصة وأن الإمبراطورية البيزنطية هي وريثة الإمبراطورية الرومانية والتي كانت تضم عدداً كبيراً من الدول الواقعة في أوربا شرقاً وغرباً، وقد ظلت تبعات الصدام الإسلامي البيزنطي في العصر العباسي الأول وما نتج عنه من فتوحات إسلامية ومواجهات تلقي بظلالها عبر القرون فظلت أحقاد الماضي تسيطر على عدد من الدول الأوروبية التي كانت ومازالت تتحين الفرصة تلو الأخرى للانقضاض على الأراضي العربية الإسلامية للسيطرة عليها وابتزاز ثرواتها كما حدث في الحروب الصليبية في العصور الوسطى، ثم تواصلت تلك النزعات الاستعمارية حتى بلغت أشدها في نهاية القرن التاسع عشر ومازلت تلك الهجمات تتواصل حتى الآن هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن تلك الدراسة تفيد من الاستفادة من تجارب الماضي وخاصة في الوقت الراهن حيث تطل علينا محاولات لغرض الهيمنة من قبل بعض الدول الكبرى مما يجعلنا في أمس الحاجة لإلقاء الضوء على الإنجازات الحضارية العربية الإسلامية لبعث الأمل في إمكانية التصدي لتلك المحاولات.

حقيقة أن التاريخ يعيد نفسه مهما تشابهت أحداث الماضي بأحداث الحاضر، فغن ذلك لا يعد تكراراً معاصراً وحدثاً لوقائع التاريخ القديم، غير أن في التجربة الإنسانية وما يكتنفها من صراعات قوانين عامة وموحدة تحكم ما في هذه الحياة من صراعات، لذلك كان الوعي بهذه القوانين أمراً ضرورياً لفهم واقع

الصـراعات المعاصـرة وتقـدير احتياجاتهـا وضـرورتها والبصـيرة بمسـتقبلها وتطورها، ومن ثم يمكن تحصيل وامتلاك الأدوات اللازمة لجعل نهايات هذه الصراعات من مصلحة الشعوب والقوى الساعية للتقدم في هذه الحياة فالوعي الضروري واللازم والمطلوب إذا هو الوعي بقواعد وقوانين التاريخ، وإذا كان الأمر خاصاً بذلك الصراع العميق والعنيف القائم في عصرنا الراهن لمصلحة المواطن العربي الإسلامي حتى يستنهض همته ويستعيد ثقته في مواجهة الغزو الاستعماري الحديث كما حدث في العصور الوسطى وتمكن من هزيمة الموجات الاستعمارية والتي بلغت ذروتها في تلك الهجمة الأوربية التي جاءت تحت ستار الصليب في محاولة يائسة لاسترداد مجد قد ولى ومضى، وتتواصل تلك الهجمات الاستعمارية بنفس أهدافها ومأربها التي ترمي في النهاية إلى أضعاف المسلمين وتقويض مجتمعاتهم ونهب ثرواتهم وبث بذور الفرقة بينهم وتفتيت وتقسيم أوطانهم وما نراه ونشاهده في فلسطين والعراق ومناطق أخرى لهو خير دليل على ذلك.

إن هدفنا من وراء دراسة هذا الموضوع هو سد الثغرات التي أغفلتها الجهود السابقة عند تعرضها لتاريخ العلاقات الإسلامية البيزنطية، واستيفاء الجوانب التي لم يتطرق لها المؤرخون السابقون، ومحاولة تقديم دراسة علمية مستقلة بذاتها كما هدفنا إلى إبراز العلاقات السياسية والثقافية والتجارية، وتوضيح أن العلاقات لم تكن دوماً علاقات حروب، بل تخللها فترات شهدت اتصالاً حضارياً وإنسانياً في مجالات مختلفة، وربما بطرحنا لهذه الجوانب ننتبه إلى أن الحضارات وثيقة الوشائج تعكس كل منها الجوانب الإيجابية والسلبية، وقد تحققت هذه العلاقات الإنسانية من أهوال الحرب وتعمل على إدامة العداء السياسي بين الشعوب، ذلك لأن اختلاف الأجناس والأديان متعددة الأصول ومختلفة المصادر وهي نتاج تعاون العديد من الشعوب.

٢- <u>**سبب اختيار الموضوع:**</u>

إننا سنحاول خلال ما سنعرضه في هذه الرسالة من تتبع أهم أحداث هذه المرحلة محاولين التوصل إلى معرفة مدى تأثير الصراع الحربي على العلاقات بين الدولتين، والأسباب التي تمكن وراء هذا الصراع والعوامل التي ساهمت في تحديد سماته.

أما الأسباب التي دفعتني إلى الخوض والبحث في هذا الموضوع فيمكن إجمالها في النقاط التالية:

- **أولاً:** رغبتي الشديدة في دراسة أحداث هذه الفترة التاريخية التي تتناول العلاقات بين الدول بشكل عام وبين المسلمين والبيزنطيين بشكل خاص.
- **ثانياً**: إن العلاقات بين الشرق والغرب وما تتضمنه من مواضيع شتى سياسية وثقافية وتجارية، هي في مجملها مواضيع مهمة جديرة بالبحث والدراسة، خاصة أن أغلب ما كتب خولها كان من وجهة نظر أوروبية، وأصبحت الحاجة ماسة وملحة لظهور وجهة عربية إسلامية وكذلك الوقوف على الآراء المختلفة التي طرحت حول هذه الفترة لعرضها ومناقشتها وتمحيصها بشكل موضوعي مستهدفين الوصول إلى غايتنا وهي محاولة غربلة أحداث هذه المرحلة وطرح وجهة نظرنا حولها.
- **ثالثاً:** ندرة المصادر والكتب المتخصصة التي تتناول هذا الموضوع وحدة واحدة وشاملة فقد جاءت عناصر مبعثرة غير مطروحة بشكل عميق ومن هنا تأتي أهمية الموضوع وحدته.
- **رابعاً:** أن مفهومنا للعلاقات بين المسلمين والبيزنطيين، ينحصر في كونها علاقات حربية وبعد أن إطلاعنا على العديد من المصادر والمراجع الخاصة بهذه الفترة اتضح أنها شهدت علاقات إنسانية، واتصالات ثقافية وتجارية ودبلوماسية وغيرها، سواء خلال فترات الصراع الحربي ذاته، أم في فترات السلم، وهذا ما دفعنا إلى محاولة الوقوف على هذه الجوانب الأخرى من

العلاقات للتعرف عليها، وإبرازها وإبداء الرأي حولها بحيث لا نكتفي بما أورده غيرنا وبخاصة بعض المستشرقين في هذا المجال.

٣- **نطاق البحث:**

إن موضوع الدراسة يغطي فترة زمنية طويلة تطلبت الرجوع إلى العديد من المصادر المختلفة لمناقشة مختلف المعلومات، والآراء فيها، ومقارنتها وتحديد الأقرب منها إلى الموضوعية كذلك الاستعانة بهذه المعلومات والآراء للوصول إلى إجابة عن التساؤلات والقضايا المطروحة بشكل عام حول هذا الموضوع، وقد شهدت العلاقات الإسلامية البيزنطية في العصر العباسي الأول فترة زمنية من ١٣٢-٢٣٢هـ/ ٧٥٠-٨٤٧م.

وشمل هذه الفترة من الخليفة العباسي السفاح إلى الخليفة العباسي المعتصم بالله وشهد في هذا العصر تطور في العلاقات الحضارية والثقافية والدبلوماسية والتجارية بين العباسيين والبيزنطيين.

وبذلك صارت بغداد القلعة الجديدة للحضارة الإسلامية والتي استطاعت بدورها برغم أنها كانت مدينة حديثة العهد على مسرح الحوادث التاريخية أن تقف على قدم المساواة مع أعظم مدينة في الغرب في ذلك الحين، وأعني بها القسطنطينية عاصمة الروم والتي درج المؤرخون على تسميتها باسم بيزنطة وهو اسم القرية اليونانية القديمة التي قامت مكانها القسطنطينية.

وهذه الدراسة المتواضعة ليس سوى محاولة لبيان التداخل والتبادل الحضاري بين العباسيين والبيزنطيين في فترة من أهم فترات التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى.

٤- **مشكلة البحث:**

لقد اكتفت دراستي لهذا الموضوع الكثير من المصاعب التي واجهتي أثناء إنجاز هذا البحث والتي من أهمها نقص بعض المراجع الحديثة خاصة الأجنبية منها

وعدم استطاعتي التعامل معها مع تلك المراجع الأجنبية لضعف مستوى اللغة الإنجليزية ولقد تغلبت على تلك الصعوبة بالوقوف على المصادر المتاحة واقتناء أكبر قدر من المراجع العربية الحديثة واستعضت عن المراجع الأجنبية بالحصول على الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية وكذلك الأجنبية.

واجهتني بعض المصاعب في توافر المادة العلمية بغزارة في بعض الأحداث وندرتها في أحداث أخرى، ومن الصعوبات التي واجهت الباحث التكاليف المالية الباهظة المترتبة على التنقل من مكان إلى آخر وشراء الكتب والتصوير والطباعة هذا إلى غير ذلك من الصعوبات التي تتعرض الباحثين دائماً.

وكانت حصيلة هذه الجهود الكبيرة قد أتاحت للباحث الإطلاع والاستفادة من مجموعة هامة من المصادر والمراجع والدوريات ذات العلاقة بموضوع الدراسة.

ولم يثن عزمنا ما لاقيناه أثناء جمع المادة العلمية بخاصة أن جل المصادر البيزنطية كتبت باللغة اليونانية، والمصادر العربية على كثرتها وتعددها فإن معظمها يركز على الجانب الحربي والسياسي – اللهم – إلا ما نجده متفرقاً في ثنايا الكتب على الجانب الثقافي والتجاري فضلاً عن أن معظمها قد التزم الصمت حيال بعض الأحداث التاريخية، ولا نجد لذلك تبريراً أو تعليلاً بالإضافة إلى قلة عدد الذين تناولوا الموضوع حديثاً من المختصين العرب والمسلمين، كما زاد من صعوبة هذا الموضوع ضرورة رجوعنا إلى مصادر ومراجع أجنبية وهذا ما يتطلب جهوداً مضنية ترجمة ما يوجد فيها من معلومات تخص هذه الفترة.

لقد أقدمت على اختيار هذا الموضوع وأنا أعلم أنه شاق، وأن له جوانب خاصة ويجب أن يعالج بموضوعية، أقدمت عليه متسلح بالإرادة والانحياز للحقيقة التاريخية ساعياً لاستخلاص العلاقات الحضارية بين الطرفين خلال قرن من

الزمـان، ومـا رفـق ذلـك مـن معاهـدات الهدنـة، وعهـود الأمـان، وكيفيـة معاملـة الأسرى، ومـا ينـتج عن ذلك من مواثيـق ومراسـلات وعمليـات الفداء، واتصـال ثقافي وتجاري واثر الحروب على كل ذلك.

وقد اعتمـدت فـي كتابـة هذا الموضـوع علـى مـا يوجـد فـي المكتبـات داخـل ليبيـا وخارجها فبالنسبة للمكتبات الليبية اعتمدت جامعة الجبل الغربي بالزاوية وجامعة الفاتح وجامعة ناصر الأممية وكلية الدعوة الإسلامية ومركز الدراسات التاريخيـة التـي كانـت اسـتفادتي منهـا كبيـرة وعظيمـة فـي جمـع المـادة العلميـة بخاصـة فـي الجانب الحربي والسياسي والتجـاري، ثـم اسـتكملت النقص الأخرى أهمها مكتبـة كلية الآداب صبراته ومكتبة الآداب بزواره وكلية الآداب والعلوم بدر أما بالنسبة للمكتبات خارج ليبيا مكتبة جامعة أم درمان بالسودان واشتريت بعض الكتب من مكتبات من مصر وسوريا جلبهم لـي بعض الأصدقاء واستفدت منها كثير فيما يخص بحثي وبخدمة خاصة في الجانب الثقافي والتجاري الأمر الذي ذلل الكثير من الصعاب.

٥- **مكان الدراسة التي سابقتها:**

لقد قدم الكثيـر مـن الكتـاب والمؤرخـون العديـد مـن الكتـب والأبحـاث والـدوريات والدراسات السابقة ومن هذه الدراسات:

- وديـع فتحـي، العلاقـات السياسـية بـين بيزنطـة والشـرق الأدنـى، الإسـكندرية، ١٩٩٠م.
- طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، القاهرة، د-ت.
- فاز يليف، أ، العرب والروم، ترجمة: محمد الهادي شعيرة، القاهرة، د-ت.
- هايـد (ف) تـاريخ التجـارة فـي الشـرق الأدنـى ترجمـة توفيـق الكبيـر، القـاهرة، ١٩٦١م.

وهناك العديد من الدراسات التحليلية السابقة ثم الاستفادة منها في إعداد البحث:

- العلاقات بين الدولة البيزنطية والقوى الإسلامية، أحمد عبد الكريم سليمان، جامعة القاهرة، ١٩٨٠م، رسالة دكتوراه.
- منى محمد السيد، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والمسلمين، كلية الآداب عين الشمس، ١٩٩٧، رسالة دكتوراه.

حقيقة قدمت هذه الدراسات السابقة فوائد عظيمة للبحث وأفادت هذه الدراسات للباحث في هذا المجال، كما توضح هذه الدراسات السابقة ولكن يكفي أن أشير إلى أن هذه أول دراسة ركزت ثقلها على الجوانب الحربية والدبلوماسية والثقافية والتجارية من حيث الاتصالات الحضارية بين العباسيين والبيزنطيين.

وهكذا يتضح أن موضوع البحث هو قديم من الناحية الزمنية، ولكن يعيد في زماننا الراهن أكثر من أي وقت مضى، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن هناك العديد من الدراسات التي اعتمدت عليها في هذا البحث جاء أغلبها مقسماً حسب العصور الإسلامية المتتابعة وخاصة في العصر العباسي الأول وهكذا أخذت هذه الدراسة منحنى آخر لوضعها في إطار زمني محدد ومترابط وهو القرن الثاني الهجري إضافة إلى ذلك فإن الدراسات والأبحاث التي تتناول جوانب من تاريخ العلاقات الإسلامية البيزنطية قليل وهو الأمر الذي يفتح أمام العديد من الدراسات خاصة وأن تاريخ هذه الإمبراطورية تلازم وواكب مع ظهور الإسلام.

٦- <u>**تقويم المصادر والمراجع:**</u>

قد اعتمدت في هذه الدراسة على العديد من المصادر العربية التاريخية وهي في الواقع غنية بالتفاصيل عن تلك الحقبة الهامة من التاريخ الإسلامي أهمها:-

أ- **المصادر ذات الصبغة التاريخية:** لقد استعنا في هذا الإطار بمجموعة من المصادر والمراجع المهمة منها على سبيل المثال لا الحصر:

- كتاب "فتوح البلدان" للبلاذري: أحمد بن يحي بن جابر، ت:٢٧٩هـ/٨٩٢م، وهو أول من كتب في الفتوحات الإسلامية وقد تمسك في كتابة هذا بالإسناد والدقة في الالتزام بأخبار الفتوح ويدور هذا الكتاب حول معرفة حال القطر المفتوح، هل فتح عنوة أو صلحاً؟ لأنه على ضوء ذلك يستطيع الخليفة أو الأمير التصرف في أحواله وشؤونه المالية، ويمتاز البلاذري بالثقافة الواسعة التي جعلته يتناول موضوعات مختلفة لا تقتصر على الجانب الحربي فحسب بل شملت المسائل الزراعية والخراجية، والاقطاعات، والمعاهدات، وقد أفاض في الحديث عن الثغور في العصر العباسي وفتوح الجزيرة وثغورها التي كانت لا تقل أهمية وخطورة عن الثغور الشامية وقد اشتمل هذا الكتاب على الكثير من التفاصيل المهمة.
- المصدر الثاني الذي اعتمدنا عليه هو "تاريخ اليعقوبي" لمؤلفه أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، ت: ٢٨٤هـ/٨٩٧م، الذي كان مؤرخاً ورجاله في الوقت نفسه واتبع في كتابه هذا التسلسل التاريخي والأحداث ورتبه حسب الخلفاء مع مراعاة تسلسل الأحداث حسب السنين وخصص المؤلف الجزء الثاني من كتابه لتاريخ الإسلام فتعرض لذكر الخلفاء واحداً تلو الأخر بشكل مكثف ودقيق، وذكر ولاة الخلفاء وكبار رجالهم والحملات الحربية التي قاموا بها.
- يعد المؤرخ محمد بن جرير الطبري، ت: ٣١٠هـ/٩٢٢م، من المؤلفين الذين لا غنى للباحث في مثل هذه الموضوعات من الرجوع إليهم ويعد كتابة "تاريخ الأمم والملوك" أهم مصدر في التاريخ الإسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، وعلى الرغم من تغلب طابع السرد على ما حواه من معلومات، فإنه يعد أول كتاب كامل في التاريخ، ويتعرض القسم الثاني، وهو الجزء الذي يهم موضوعاً لدراسة التاريخ

الإسلامي في الفترة الأموية والعباسية حتى سنة ٣٠٢هـ وقد عثرنا في هذا الكتاب على مادة غزيرة أعانتنا كثيراً على سد جوانب متعددة من هذه الرسالة.

- أما فيما يخص كتاب "نهاية في طلب الحسبة" للشيزري: عبد الرحمن بن نصر، ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، فقد ورد فيه ملحق خاص بالحسبة في بيزنطة "والي المدينة" حقبة الإمبراطور ليو السادس "٢٧٣-٣٠٠هـ/٨٨٦-٩١٢م" وحققه السيد الباز العريني اشتمل على معلومات قيمة عن الحياة الاقتصادية في الدولة البيزنطية حيث تعرض لشرح النفايات، وموقف حكومة من التجار الأجانب، ومن بينهم المسلمون، ومعاملتهم وتحديد إقامتهم والسلع التي يشترونها كما يجدد بياناً بالسلع الصادرة من بيزنطة وتلك التي ترد إليها.
- المصادر التاريخية المتأخرة: أعتمد المؤرخون المتأخرون - بصورة عامة - على روايات من سبقتهم من المؤرخين الأوائل فيما يخص موضوعنا، إلا أن الدارس يعثر في طيات هذه المصادر على روايات فريدة غير واردة في كتب الأوائل فابن الأثير يذكر في كتابه "الكامل في التاريخ" روايات وتفاسير جديدة لا نعثر عليها في المصادر التي سبقته، كذلك ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان" وابن طباطبا، والقلقشندي، والنويري، وغيرهم.

ب- المصادر الجغرافية:

أنصب اهتمام الجغرافيين أمثال: اليعقوبي، والأصطخري، والمقدسي، وابن خرداذبه، وابن رسته، وابن حوقل، على وصف الطرق وتقدير ثروات البلاد لمعرفة قدرتها على دفع الجزية، والخراج، وهو ما يسمى بالجغرافية الإدارية ونذكر من بين الذين تمت الاستعانة بهم في هذه الدراسة:

ابن خرداذبه: أبا القاسم عبد الله بن عبد الله، ت: ٣٠٠هـ/٩١٢م، من أصل فارسي استفاد من وظيفته عاملاً في البريد في الحصول على قدر كبير من المعلومات على الأقاليم البعيدة، ويحتوي كتابه "المسلك والممالك" على وصف قيمة للطرق التجارية: البرية والمائية، وتحديد بما فيه طريقين مهمتين يسلكهما التجار اليهود من أوربا إلى الهند والصين، أحدهما يمر بالسويس، والبحر الأحمر، والأخر بأنطاكيا إلى الفرات، ولا يقل أهمية عن ذلك وصفه لطريق التجار الروس إلى الجنوب كما يقدم لما كتابه وصفاً للطرق المؤدية إلى بيزنطة، وقد استمد ابن خرداذبه قائمته للثغور الروم عن مسلم بت أبي مسلم الخرمي.

أما كتاب "الخراج وضعته الكتابه"، لقدامة بن جعفر، ت: ٣٢٠هـ/٩٣٢م، فإنه يتناول معلومات إدارية، ومالية، جغرافية، واقتصادية، وتاريخية، عن الدولة الإسلامية، ونظام الثغور فيها، وما جاورها وقد طبع جزء من هذا الكتاب في ذيل كتاب "المسالك والممالك لابن خرذادبه، وقد أخذ قدامة عن مسلم الخرمي أيضاً كل ما يتعلق ببيزنطة وأوقات الإغارة فيها.

أما المقدسي: محمود بن أحمد بن محمد، ت: ٣٩٠هـ/١٠٠٠م، فإنه يعد من أكبر الجغرافيين، وكتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" من الكتب الجغرافية الأدبية، وقد اقتصر فيه على البلاد التي زارها، فهو خلاصة لرحلاته الطويلة، وخدماته للملوك، وتحصيله العلم على الفقهاء والعلماء، وبمثل كتابه هذه الصورة الحضارية للعالم الإسلامي مقدماً فيه معلومات تاريخية مهمة حول أجناس السكان وميولهم السياسية والدينية وعاداتهم وتجارتهم.

ج- **المصادر غير العربية:**

يعد ثيوفانس أشهر من كتب من مؤرخي بيزنطة حول هذه الفترة عاش سنتي "١٤١-٢٠٣هـ/٧٥٨-٨١٨م" وكان من رجال الدين، وتعد حوليته التي دونها بين سنتي ١٩٥-٢٠٣هـ/٨١٠-٨١٨م من أشهر الحوليات البيزنطية رغم ما يؤخذ عليه من الافتقار إلى الدقة العلمية، إلا أن كتابه ذو قيمة كبيرة بخاصة بالنسبة لأخبار القرنين السابع والثامن الميلاديين، لأن مؤلفهما اعتمد على مصادر قديمة، فقدت ولم يصلنا منها إلا ما نقله هو عنها، سار ثيوفانس على النظام الحولي المرتب حسب السنين وكان عند تناوله لحياة إمبراطوراً من أباطرة بيزنطة يتناول بالبحث تاريخ من كان يعاصره من خلفاء الدولة الإسلامية، ومن الأحداث التاريخية المهمة ذكر أخبار سفارة نقفور إلى الرشيد طلباً للسلام عام ١٩١هـ/٨٠٦م، وأورد لنا نصوص الاتفاقية.

أما من مؤرخي الفرنجة فقد رجعنا إلى المؤرخ إينهارد: ٢٢٦هـ/٨٤٠م الذي يعد كتابه "سيرة شارلمان" أهم نموذج التراجم، ليس في عصر شارلمان فحسب، وإنما في أوربا العصور الوسطى وأشار فيه إلى العلاقات الودية التي قامت بين شارلمان، وهارون الرشيد، والهدايا التي تبادلاها غير أن ما ذهب إليه حول طبيعة هذه العلاقات ومراميها بعيدة كل البعد عن الحقيقة التاريخية لكنه كشف منذ تلك الفترة المبكرة وربما دون أن يقصد عن مطامع القوى السياسية العربية بالمشرق عامة وفلسطين بخاصة.

واستعنا في دراسة منهجية هذه المصادر بكتب مناهج البحث عند المسلمين التي أعانتنا كثيرً على الوقوف على جوانب كثيرة من الموضوعات منها على سبيل المثال: كتاب منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب للدكتور محمد عبد الكريم الوافي، وكتاب التاريخ العربي والمؤرخون لشاكر مصطفى، والتاريخ والمرخون العرب السيد عبد العزيز سالم، الجغرافيا والرحلات لنفولا زبادة ومناهج

العلماء المسلمين في البحث العلمي لفرانتز روزنتال، وتاريخ الأدب العربي الجغرافي لكراتشكوفسكي، ومنهج النقد التاريخ الإسلامي والمنهج الأوربي، لنعمان وافي ومقالة: المستشرقون وبعض قضايا التاريخ العربي الإسلامي، والإطلاع على ما كتبوه من مباحث علمية دقيقة في هذا الموضوع للتعرف على رائهم حول ديننا وحضارتنا، وعلى الرغم من أن بعض المستشرقين عن التاريخ الإسلامي مثل بروكلمان، فازيليف، وهاملتون صب، وكراتشكوفسكي، وغيرهم ممن اتسمت أبحاثهم العلمية بشتى من الموضوعية والاعتماد على المصادر العربية التي بذلوا في نشرها وتحقيقها جهوداً موفقة، فاستعنا بكتاب العرب والروم، للمؤرخ الروسي أ.أ.فازيليف، الذي تناول العلاقات العباسية البيزنطية فيما بين سنتي (٨٢٠-٨٦٧م) أي عصر الأسرة العمورية وبخاصة فترة حكم الإمبراطورية يتوفيل ومعاصريه من الدولة العباسية (المأمون، والمعتصم) وقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات قيمة جديدة وممتعة عن الحوادث السياسية والثروات الداخلية بخاصة ثورة توماس الصقلبي وثورة سايك الخرمي، وهذه المعلومات تيسر لنا بطبيعة الحال البحث في بناء هاتين الدولتين الداخلي، وفي ثقافتهما المتبادلة الأمر الذي مكننا من رسم صورة واضحة عن علاقة الدولتين بصورة عامة.

٧- **منهج البحث:**

تعتمد الدراسة على المنهج البحثي القائم على جمع المادة التاريخية من مصادرها الأولية المعاصرة ومراجعها الثانوية، حيث تشمل المصادر الأصلية العربية والأجنبية إلى جانب المصادر الحديثة التي تتناول تاريخية وحضارية عن موضوع البحث وحسب متطلبات العلمية للمنهج التاريخي مع الحرص على تماسك الموضوع ووحدته وفقاً لتسلسله الزمني ولقد تابعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي فقد قسمت البحث إلى فصول على النحو التالي:-

الفصل الأول: عنوانه (العلاقات الحربية بين العباسيين والبيزنطيين) وتناولت في هذا الفصل طبيعة الصراع العباسي البيزنطي وأسبابه، ووضحت فكرة الصراع الإسلامي المسيحي بين الطرفين من خلال الجهاد عند المسلمين والحرب عند البيزنطيين، ثم تطرقت إلى دراسة النظام الدفاعي (من حصون وثغور) وذكرته بعض المعارك الحربية والثورات الداخلية التي كان لها أثر على الجانبين، كما حاولت معالجة قضية الأسرى نتاجاً لتلك الحروب وطريقة إجراء الفداء ومعاملة الأسرى لدى الطرفين.

أما **الفصل الثاني**: فهو خاص (بالاتصالات الدبلوماسية) وقمت في هذا الفصل لدراسة تحليلية للمراسلات التي تمت بين بعض الخلفاء العباسيين وبعض الأباطرة البيزنطيين، وتطرقت بعد ذلك إلى دراسة السفارات كمظهر من مظاهر الاتصال الدبلوماسي، إذ استدعى هذا الاتصال في بعض الأحيان إرسال سفراء ومبعوثين للاتفاق حول أمور تتعلق بالحرب وغيرها، ومحاولة معرفة ما إذا كانت هذه الاتصالات سواء المكتوبة منها، أم الشخصية، قد أدت إلى النتائج المرجوة، وحاولت دراسة المتغيرات الجديدة في هذا المجال التي ظهرت بظهور دولة الفرنجة في الغرب الأوروبي قوة جديدة منافسة للبيزنطيين، وظهور الأمويين في الأندلس منافسين للعباسيين، وما تم بين تلك الدول من تحالفات وما إذا كانت أهداف تلك التحالفات.

وحيث أن الموضوع لا يقتصر على العلاقات السياسية والصراع الحربي فحسب فإننا أفردنا فصلين آخرين لدراسة الجوانب الأخرى في هذه العلاقات.

فتناولت في **الفصل الثالث**: موضوع (العلاقات الثقافية) الذي تعرضت فيه إلى المراكز الثقافية والسفارات العلمية بين الدولتين التي فرضتها طبيعة الحوار والاحتكاك الحربي أحياناً، والسلمي أحياناً أخرى، وطرحت موضوع تنظيم

بعض الرحلات العلمية التي قامت بها الدولتان والتي ساهمت في الامتزاج الحضاري والتبادل الثقافي وانتقلت بعدها إلى دراسة تأثير الصراع الحربي على الحياة الثقافية وهل حال الصراع دون الاتصال الفكري والثقافي بين الطرفين.

أما **الفصل الرابع**: فتناولت فيه (الصلات التجارية بين الدوليتين) حيث تطرقت إلى دراسة مراكز التبادل التجاري في الدولتين كليتهما والسلع المتبادلة بينهما، كما تعرضت لدراسة وسطاء التجارة بين الطرفين والطرق التجارية (البرية والبحرية) وأهميتها في نقل النصائح بين المنطقتين وأخيراً تناولت العقبات التي أثرت على الصلات التجارية سواء كانت هذه العقبات ثورات داخلية أم حروباً خارجية.

وأنهينا الدراسة بخاتمة استعرضنا فيها أهم النقاط التي طرحناها والنتائج التي توصلنا إليها، بالإضافة إلى إلحاق مجموعة من الخرائط التوضيحية التي تبين النواحي الجغرافية للدولتين حدودهما وثغورهما، ونلقي الضوء على مراكز الصراع ومواقع الاشتباكات الحربية التي دارت بينهما إبان الفترة الزمنية موضوع الدراسة، كذلك خرائط تبين المراكز الثقافية والطرق التجارية، كما اشتملت الدراسة على عدد من الملاحق التي ترتبط بالموضوع ارتباطاً وثيقاً.

<u>والله ولي التوفيق</u>

الفصل الأول

الفصل الأول

١,١- تمهيد

مظاهر التطور في العلاقات الإسلامية البيزنطية في العصر العباسي الأول ((سقوط الخلافة العباسية)) وركود المشاريع التوسعية

يعتبر ارتداد المسلمين عن القسطنطينية سنة (٧١٨م) خط تقسم واضح في قصة العلاقات الإسلامية البيزنطية، ونقطة تحول في نظم الدولتين الداخلية، تجلت آثارها في المجرى العام لهذه العلاقات، ذلك أن جهود الدولتين انصرفت إلى معالجة المشاكل الداخلية التي انبثق خطرها بعد انتهاء واقعة القسطنطينية، وجاءت في بعض مظاهرها نتاجاً وأحداث،[١] فانغمست الدولة الإسلامية في غمار حركة سرية ترمي إلى القضاء على الخلافة الأموية صاحبة السلطان والكلمة العليا في الدولة، وأثبت التاريخ أن هذه الحركة التي نبتت بذورها بعد معركة القسطنطينية كانت مؤذناً بانتهاء عصر الشام الزاهر ومجد دمشق القائم على تحدي القسطنطينية وإزهاق أرضيها، وبشيراً بقيام الدولة العباسية التي عملت على اتخاذ عاصمة لها، بغداد تباعد بينهما وبين عاصمة البيزنطيين، واختلفت في أحلامها ومطامعها عن أهداف دمشق وعزمها على السيطرة على العاصمة البيزنطية.[٢]

فبعد وفاة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٧٤٣م/١٢٥هـ) تربع على عرش الخلافة أشخاص ضعاف الهمة والعزيمة تخلوا عن تقاليدهم العربية القائمة على الجهاد والوقوف بالمرصاد لحركات الطامعين في مركزها واقتناص الفرص لتوسيع رقعة أراضيها على حساب البيزنطيين، استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولكن على النقيض من ذلك سقط أولئك الخلفاء صرعى للغوائي والشراب، وغدوا عبيداً للبلاد والشهوات ونماذج لانحطاط الخلق واللغة، ولذلك لم يكن متغرباً أن تنطلق من معاقلها العوامل الهدامة الكامنة في جسم الدولة الأموية، وتندفع للتفشي من سادة الدولة التي آن أفول نجمها،[٣] فكانت أولى هذه العوامل استيقاظ روح العصبية

١ - إبراهيم العدوي، الإمبراطورية البيزنطية والدولة العباسية، القاهرة، ١٩٥١، ص ٦٧، ٦٨.
٢ - إبراهيم العدوي، النظم الإسلامية مقوماتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٢، ص ٣٠٠.
٣ - نبيه عاقل، دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ج١، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٦٧، ص ٨-٩.

والنخوة القبلية بين قبائل عرب الشمال والجنوب تلك الروح التي استمرت في جهات عديدة من أرض الدولة الإسلامية، وغدت بقاع كثيرة من الدولة مسرحاً للاصطدام بين بعض القبائل على شفاف السند وشواطئ صقلية، وفي أرض خراسان وفي منطقة دمشق نفسها، وانحطت هيبة الخلفاء الأمويين لمناصرتهم هذا المعسكر القبلي أو ذاك، وأصبحوا ممثلين للفروع القبلية المختلفة على حسب أنسابهم لخلفاء الدولة الإسلامية الكبرى.[١]

ومما ضاعت في خطورة هذه الانقسامات أن المسلمين من غير العرب ولاسيما مسلمي فارس كانوا متذمرين من الأمويين الذين نظروا إلى أولئك المسلمين نظرة أقل من نظرتهم للمسلم العربي، فاعتبرهم الأمويون موالي لا يصح مساواتهم بالمسلمين العرب في النواحي الاقتصادية والاجتماعية. [٢]

وبذلك كان الجو مهيأ لهؤلاء الموالي لغرب الأمويين الضربة القاضية لو تهيأت لهمن قيادة منظمة، وفي الحقيقة كانت هذه القيادة تسرع الخطر لتقدم الصفوف، إذ وجدت بذور الشيعة أنصار سيدنا علي الحانقين على الأمويين لقتلهم أعظم رجالاتهم في فارس ولاسيما خراسان موطن الموالي، تربية صالحة للنمو والازدهار. [٣]

على أن شمس الأمويين أذنت بالأفول عندما استطاع العباسيون أن يدمجوا دعواهم مع العلويين تحت ستار المطالبة آل البيت الهاشمي باعتبارهم أعضاء هذا الفرع الهاشمي من قبيلة قريش، فكان الشيعة يعتقدون أن حقوق البيت الهاشمي تنحصر أول الأمر في سلالة علي ابن أبي طالب.[٤]

على أن العباسيين عرفوا كيف ينفردون بالموقف، إذ سرعان ما استغلوا حالة الانقسامات في الدولة الأموية وانتشار التذمر بين الموالي، فادعوا لأنفسهم حق الدفاع عنهم وعن إعادة الدين الحق انحراف به الأمويون عن جادة الصواب، فأصبح

١ - نبيه عاقل، دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠-١١.
٢ - العدوي، النظم البيزنطية، ص ٣١١.
٣ - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، بيروت، ١٩٨٦، ص٢٢٦.
٤ - نبيه عاقل، دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١١٢.

العباسيون زعماء حركة المعارضة للبيت الأموي والمنظمين لها حتى نجحوا أخيراً في إشعال نيرانها في خراسان.[١]

ففي رمضان سنة (١٢٨هـ-٧٤٧م) نشر أبو مسلم عامل العباسيين في خراسان العلم الأسود رمز لواء، والذي أصبح إذ ذاك شعار العباسيين، ودخل "مرو" عاصمة خراسان، ثم تابعت القوات العباسية سيرها إلى العراق تحت قيادة عبد الله بن علي عم السفاح، أول الخلفاء وقضت هناك في معركة الراب (أحد فروع دجلة) سنة (١٣٢هـ-٧٥٠م) على جند الأمويين، وتمكنت جيوش العباسيين من إتمام ذلك النصر بالقبض على مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين في بلدة (بوصير) بالقطر المصري وقتله.[٢]

وإن سقوط الأمويين يعد حدثاً هاماً في التاريخ الإسلامي، فلم يكن معناه زوال أسرة وقيام أسرة غيرها في الحكم فحسي، وإنما زال بسقوط الأمويين أيضاً عظمة إقليم الشام الذي كان يحتل مركزاً استراتيجياً هاماً في الدولة الإسلامية، أثر كثيراً في توجيه النشاط الحربي الإسلامي،وبقيام العباسيين في الخلافة انتقل مركز الإسلام إلى الشرق، حيث أسسوا عاصمتهم الجديدة، بغداد على ضفاف دجلة، وأخذوا يؤقلمون سياستهم ولاسيما إزاء البيزنطيين على أساس هذا الوضع الجديد، فكان بعد الشقة بين بغداد والقسطنيطينية مدعاة لرسم سياسة حربية جديدة اختلفت عن سياسة دمشق ولم تدخل دور التنفيذ الجدي إلا زمن الخليفة هارون الرشيد.[٣]

وظلت الدولة البيزنطية إلى عهد هذا الخليفة العباسي كذلك عاجزة عن القيام برد فعل حربي على نطاق واسع، واستغلال فترة الانتقال بين الأمويين والعباسيين واختلال أوال الدولة الإسلامية إبانها لتستعيد ما ضاع من أراضها، فقد شغلت الدولة البيزنطية بحركة جدل ديني ساعد على ظهورها نجاح البيزنطيين في الدفاع عن عاصمتهم القسطنطينية ضد هجوم المسلمين، ذلك أن الإمبراطور ليو الثالث الإيوري

١ - فازيليف، العرب والروم، ترجمة: محمد الهادي شعيرة، القاهرة، د.ت، ص ٢١٨.
٢ - فازيليف، المرجع نفسه، ص ٢١٨-٢١٩.
٣ - العدوي، النظم البيزنطية، ص ٣١٢.

منقذ القسطنطينية من حملة شعواء على عبادة الأيقونات، أي الصور ا لمقدسة والتماثيل التي تصور العذراء والقديسين،[١] وتعرف سياسة هذا الإمبراطور في التاريخ البيزنطي باسم الحركة اللايقوانية، أي الحركة ضد الصورة والتماثيل المقدسة وعبادتها وإصلاح الحالة الدينية وتطهيرها من المادبات. [٢]

على أن أصول هذه الحركة الدينية التي انفجر بركانها بعد ارتداد المسلمين عن قسطنطينية ترجع إلى أشباه تلك الحوادث التي أحاطت بالدولة البيزنطية وعاصمتها إذ نجت الدولة من أزمات وكوارث حربية تجاه أشبه بالمعجزات، مما جعل الناس وهم على جانب عظيم من التدين في تلك العصور الوسطى الأولى على الاعتقاد بأن قوى سماوية هي التي أنقذت الدولة من هذه الأخطار المتكررة، وفي الحقيقة كانت الأيقونات عاملاً هاماً في الديانة المسيحية.

١ - فازيليف، العرب والروم، ص ٢٢٤.
٢ - العدوي، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص ٦٦-٦٧.

٢,١- العلاقات الحربية الإسلامية البيزنطية في العصر العباسي الأول

١,٢,١ـ طبيعة الصراع العباسي البيزنطي في العصر العباسي الأول

أ- الصراع إسلامي في المشرق:

لم يظهر الصراع العربي البيزنطي مع بداية الدولة العباسية، بل هو صراع قديم يعود إلى فترة ما قبل ظهور الإسلام، ثم تطور بشكل واضح بظهور الإسلام الذي فرض على المسلمين الجهاد في سبيل الله، لنشر الدين بين الناس عملاً بقوله تعالى: ((**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**)).[١]

فالجهاد في الإسلام لا يستهدف الغزو أو الفتح من أجل الانتقام والتعالي، ولكنه دعوة لنظرة جديدة في الحياة تؤدي إلى بناء مجتمع تتلاشى فيه مفاهيم النظم القبلية البالية، من عصبية، وتكتلات لتحل محلها نظم سامية تكفل لإتباعها العدالة والمساواة والطمأنينة، لأنها تقوم على تعاليم من القرآن الكريم[٢] ولتدعيم هذا المفهوم السامي للجهاد نزلت العديد من الآيات التي تحث المسلمين على تحقيق هذا المبدأ كقوله تعالى: {**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**}.[٣] وقوله تعالى: {**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**}.[٤] وبهذا يكون الجهاد أعلاه لكلمة الله عز وجل، وإعزازاً للدين، ونصرة للمسلمين وفي حدود هذه المبادئ العامة، كان الجهاد في الإسلام، جهاداً من أجل العقيدة الإسلامية وحمايتها من الفتنة، والتأكيد على شريعتها بحيث يرهبها من أرادها بسوء.

١- سورة سبأ، الآية ٢٨.
٢- إبراهيم أحمد العدوي، النظم الإسلامية مقوماتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٧٢، ص٣٠٠-٣٠١.
٣- سورة البقرة، الآية ٢١٦.
٤- سورة البقرة، الآية ١٩٠.

وظل الدافع وراء الجهاد والتفاني فيه، عمق الإيمان وتأمين سلامة الدولة الإسلامية من جيرانها الذين يتاخمونها ويناصبوها العداء، وكانوا دائماً يتطلعون إلى النيل منها من ثم كان على المسلمين أن يتابعوا رسالة الجهاد تطبيقاً للأمر الإلهي ولتعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام. (١)

وعلى الرغم من أن الصراع بين الدوليتين العباسية والبيزنطية صراع دائم، فإنه لم يقف حائلاً دون التفاهم، وهذا ما يدفعنا إلى البحث في طبيعة هذا الصراع، والأسباب التي حالت دون اعتراف كلا الطرفين صراحة بوجوب إقامة سلم صريح، فقد انتصر المسلمون انتصارات عظيمة وأقاموا دولتهم في معظم البقاع التي كانت تخضع للدولة البيزنطية كالشام، ومصر، وشمال أفريقيا، وهذا لا يعني القضاء على بيزنطة، إذ استمر وجودها في مناطق أخرى مهمة كالأناضول والبلقان، وهذا يدفعنا إلى طرح تساؤل عن أسباب توقف المسلمين عند هذا الحد، وعدم استمرارهم في مد نفوذهم على بقية المناطق البيزنطية، ومن خلال إطلاعنا على أحداث هذه الفترة نستطيع القول أن ذلك راجع إلى أن الدولة الإسلامية تحت الخلافة العباسية لم يعد لديها رغبة أو مخطط للقضاء على الدولة البيزنطية، وهذا في حد ذاته يعد أمراً غريباً، إذ يقتضي المنطق من الناحية النظرية على الأقل أن هناك صراعاً دائماً بين الدولتين يحتم قضاء أحد الطرفين على الوجود السياسي والقوة الحربية للطرف الآخر، إن هذا الوضع الغريب جعل لذلك الصراع طبيعة خاصة، فهو من الوجهة النظرية صراع دائم مستمر ولكنه لا يسمح برجحان كفة أي من الطرفين على الطرف الآخر، كما أنه لم يحل دون التعاون بينهما. (٢)

ويرى المستشرق الإنجليزي هاملتون جب أن الدافع الذي كان وراء محاربة الخلفاء للكفار كان أداء لواجب رسمي وضروري يقومون به بوصفهم أمراء

١- العدوي، النظم الإسلامية، ص ٣٠٩.
٢- ستيفن رانسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١.

للمؤمنين الذي تفرض عليهم طبيعة الخلافة ألا يكفوا عن جهاد الكفار وعليهم أن يسوغوا لدى رعاياهم أحقيتهم في أن يكونوا خلفاء رسول الله بما يقومون به من بلاء في سبيل نشر الإسلام لأن الجهاد يمكنهم في الوقت نفسه من أن يحفظوا لجيوشهم ما تتمتع به من سجايا حربية، إذ كانت تلك الجيوش هي عدتم التي يدخرونها لإخماد الفتن الداخلية بين القبائل وفي الولايات. (١) لقد بني هذا المستشرق حكمه على سياسة الخليفة في إطار توجهات الدولة السياسية فقط، في الوقت الذي يجب علينا ألا نغفل أو نتجاهل الجوانب الدينية وواجبات الحاكم المسلم في هذا المجال فهو بوصفه خليفة للمسلمين تقع على كاهله مسؤوليات دينية متعددة من بينها وبدون شك جهاد أعداء الإسلام، ثم نشر هذا الدين إرضاءً لله في المقام الأول، والمجتمع الإسلامي ثانياً، وهذا بالطبع لا ينفي وجود دوافع سياسية أو دنيوية، ويرى أسد رستم أن الهدف من غارات المسلمين في العصر العباسي الأول، كان لمجرد النهب والسلب الشائعين في ذلك العصر. (٢)

إن الدوافع الاقتصادية لم تكن هدفاً أو سبباً رئيساً في جهاد المسلمين طوال العصور الإسلامية، وتخلوا المصادر الإسلامية تماماً من أية إشارة إلى أن المسلمين كانوا يجاهدون من أجل الوصول على الغنائم، بالإضافة إلى أن الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول لم تكن في حاجة إلى موارد اقتصادية لكي تلجأ إلى القيام بغارات تضحي فيها بالآلف من الجند في حملات تحدث في بلاد كثيرة الجبال، وعرة المسالك شديدة البرودة، غير مضمونة النجاح من أجل النهب والسلب. (٣)

لقد كانت سياسة التوسع هي سياسة الدولة الإسلامية في فترة الفتوحات الأولى حتى نهاية عصر الدولة الأموية، أما قد وصلت حدود الدولة العباسية إلى أقصى اتساع لها، فقد تغيرت الإستراتيجية العامة، ومن هنا يتضح لنا أن الغارات العباسية

١- هاملتون جب،دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة: إحسان عباس وآخرون، ط٣، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص٦٤.
٢- أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج١، بيروت، دار الكشوف، ١٩٥٥، ص٢٠٠.
٣- أحمد بن يعقوب بن جعفر اليعقوبي، تاريخه، ج٣، بيروت، دار العراق للنشر، ١٩٥٥، ص١٠٥-١٠٦.

لم تكن دوافعها اقتصادية بل دينية وتأديبية، فقد أوصى أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) قبل وفاة ابنه المهدي بشحن الثغور، ضبط الأطراف، والحرص على الجهاد، والدفاع عن الدين. وتؤكد أغلب المصادر الإسلامية أن الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٥-٨٠٩م) كان يتولى قيادة الحملات بنفسه،[١] وكان يحج سنة ويغزو أخرى،[٢] فاتخذ أثناء غزوة قلنسوة مكتوباً عليها غاز حاج.[٣]

ورفض الخليفة المأمون (١٩٧-٢١٨هـ/٨١٣-٨٠٩م) رسالة الإمبراطور ثيوفيل التي يخبره فيها أمر ثلاثة كي يكف عن قتالهم جاء فيها: ((إن الملك يخيرك بين أن يرد عليك نفقتك التي أنفقتها في طريقك من بلدك إلى هذا الموضع، وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار، وبين أن يعمر لك كل بلد للمسلمين مما خربت النصرانية يرده كما كان وترجع عن غزاتك، فأجاب المأمون الرسول قائلاً "أما قولك ترد علي نفقتي، فإني سمعت الله تعالى يقول في كتابه حاكياً عن بلقيس: **{وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ}**[٤] عد إلى صاحبك فليس بيني وبينه إلا السيف)).[٥]

يوضح لنا هذا النص مدى إصرار الخليفة المأمون على مواصلة الحرب ضد البيزنطيين على الرغم من تخييره بين عدة أمور، ولو كان هدفه مادياً لاكتفى باختيار أحدهما كما نستنتج منه أيضاً أن الغارات العباسية، وإن لم تقض قضاء كاملاً على بيزنطة فقد شكلت فيما يبدو مصدر قلق لها واستنزافاً لثرواتها.

١- أحمد بن يحي جابر البلاذري، فتوح البلدان، حققه صلاح الدين المنجد، ج١، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦، ص٩٣.
٢- أبو الخطاب عمر بن الشيخ دحية، النبراس في تاريخ خلفا العباس، حققه سعيد الغزاوي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٤٥، ص٣٦.
٣- أبو جعفر محمد جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج١٠، ط١، بيروت، دار القاموس الجديد، د- ت، ص٩٨.
٤- سورة النمل، الآية ٣٥-٣٦.
٥- أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، حققه محمد بن محي الدين عبد الحميد، ج٤، القاهرة، دار السعادة، ١٩٦٤، ص٤٢-٤٣، انظر الملحق رقم (٢) ص١١٧، ١٢٢.

لم تكن الدولة العباسية وحدها قد تأثرت بالدافع الديني بل إن الدولة البيزنطية أيضاً سيطر عليها الدافع نفسه، حتى أصبح الوجه لسياسيتها وعلاقاتها، وبعبارة أخرى فقد كان الصراع الحربي بين هاتين الدولتين مرآة تعكس الصراع الديني، على أن كلا الطرفين عدا نفسه مسئولا عن الدفاع عن عقيدته الدينية حتى أصبحت هذه الحرب بمثابة حرب مقدسة، وقد تجلت الاتجاهات الدينية في الدولة البيزنطية من خلال سلطة الإمبراطور الذي يعد الرئيس الديني الأعلى والمسئول عن شؤون رعاياه الدينية والدنيوية، وكان يرى أن اختياره قد تم بإرادة الله، لذلك فهو السيد والحاكم فقط، بل الرمز الحي للدولة المسيحية، وقد نتج عن هذا المعنى الديني الذي أضفاه الأباطرة على أنفسهم أن أصبحوا موضع تقديس ديني وسياسي معاً.[١]

وهذا ما توضحه لنا تصريحات بعض هؤلاء الأباطرة في العديد من المناسبات، حيث ذكر الإمبراطور ليو الأول (٤٥٧-٤٧٤م) على سبيل المثال أثناء مخاطبته لقواته قائلا: "عن الله جلت قدرته واختياركم هما من عيناني إمبراطوراً"، أي بفضل الله والعناية الإلهية، ومهما كانت الطريقة التي وصل بها الإمبراطور إلى العرش فهناك دائماً تأكيد على فكرة أنه استمد سلطته من الله مباشرة كما يذكر الإمبراطور ميخائيل الثاني (٢٠٥-٢١٤هـ/٨٢٠-٨٢٩م) في رسالته إلى لويس الورع: "إن الله هو الذي منجد الحكم" فلا عجب إذا أن بدت السلطة الإمبراطورية، على أنها سلطة إلهية في شكلها الإلهي، وهذا الاعتقاد قديم قدم المسيحية نفسها".[٢]

ويرى بعض المؤرخين أن حروب الإمبراطور هرقل (**ق.هـ**١٩هـ/٦١٠-٦٤١م) ضد العرب المسلمين كانت حروباً مقدسة وإنها امتداد لحروبه ضد الفرس التي كان من أبرز حوافزها استعادة الصليب المقدس، حيث أن الدولة البيزنطية قامت بدافع من الحماس الديني.[٣]

١- نبيه عاقل، دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ج١، جامعة دمشق ١٩٦٧، ص١٠.

2 -Norman baynes and H. st l. B. Moss. (Eds Byzqnounm: An Introdctrionto East Roman Civiliaztion Ox Ford, 1967, PP 271,273.

٣- وليد الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حسني، ج١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١، ص٦٣.

ويرى المسيحيون إلى ليو الاليوري (٩٩-١٢٣هـ/٧١٧-٧٤٠م) على أنه لم ينقذ القسطنطينية سنة (١٠٠هـ-٧١٨م) من السقوط في أيدي المسلمين فحسي، بل إنه أنقذ الحضارة الأوروبية والمسيحية ن الإسلام، وقام البابوات بتقديم التسهيلات والمغريات كافة لتشجيع المسيحيين للانخراط في الحروب البحرية البيزنطية ضد المسلمين في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، ولتحقيق ذلك أعلن البابا ليو الرابع (٢٣٢-٢٤١هـ/٨٩٦-٨٥٥م) أن كل من يموت في هذه الحروب يعد مدافعاً عن الكنيسة، ويعد شهيداً له الأجدر والثواب عند الله. (١)

لقد استغلت الدولة البيزنطية الدافع الديني في حروبها ضد المسلمين، لما له من أثر في الناس، لإثارتهم وحثهم على القتال، لتحقيق أهدافها الأخرى سواء كانت سياسية أم حربية، أم اقتصادية، بينما كان المسلمون يدافعون بصدق عن دينهم، فالجهاد كان عقيدة لها أثرها الفعال فيما أحرزوه من انتصارات على البيزنطيين وكانت دعوة الجهاد كافية لإثارة الحماسة لديهم فكل مشترك في القتال مجاهد،(٢) وإذا مات في ساحة القتال فهو شهيد ولهذا العرض يمكننا أن نستنتج ما يلي:-

١- أن الحروب التي شنها البيزنطيون على الخلافة العباسية في هذه الفترة، حروب صليبية مبكرة، حركها التعصب الديني لدى المسيحيين، واستهدفت السيطرة على الأراضي الإسلامية، ونهب خيراتها، مما حرك الشعور لدى المسلمين بضرورة حماية دينهم وأراضيهم
٢- إن الصراع العباسي البيزنطي، كان صراعاً بين قوتين كبيرتين، وحضارتين مختلفتين كلتاهما تحاول أن تفرض نفسها على الأخرى، فإذا تعادلت القوتان سياسياً وحربياً كان هذا يعني اعتدال ميزان القوى في الصراع بينهما، بحيث لا يمكن لأي منهما أن تحرز تفوقاً أو نصراً حاسماً على الأخرى، بل تقفان وجهاً

١- جوزيف نسيم يوسف، الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى، القاهرة، دار الفكر الجامعي، ١٩٨٦، ص١٧٨.
٢- جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص١٧٨.

لوجه في فترة تربص واستطلاع وجس نبض، وهذا ما نسميه باعتدال كفتي الميزان في الصراع بينهما، ويستمر الوضع على هذا الحال، إلى أن يتغير ميزان القوى الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتغير الظروف السياسية والداخلية وإذا رجحت كفة إحدى القوتين على الأخرى، بادرت باتخاذ سياسة الهجوم بينما تلتزم الأخرى بسياسة الدفاع. [١]

وهذه حقيقة تؤكدها الفلسفة الإستراتيجية للدولة العباسية التي لم يكن لها أهداف توسعية بقدرها ما حاولت الاحتفاظ بما في حوزتها وعدم إعطاء أية فرصة للبيزنطيين في توجه الضربة إليها.

ب- اتجاه الخلافة العباسية نحو الشرق:

كانت الحرب بين المسلمين والبيزنطيين منذ انتزاع المسلمين الشام إبان حركة الفتوحات الأولى في معظمها حرباً حدودية نتيجة للظروف الداخلية والخارجية للدولتين الإسلامية والبيزنطية، كحوادث الفتنة الكبرى التي شغلت المسلمين عن مواصلة الفتح، لكن هذا الوضع تبدل منذ قيام الدولة الأموية التي عادت إلى انتهاج الخطة الهجومية على البيزنطيين، حتى اجتاحت جيوشها أراضيهم وحاصرت القسطنطينية نفسها أكثر من مرة،[٢] وبالمقابل كانت بيزنطة تمر في عصر السر الحاكمة القوية بأطوار قوة عرفت في التاريخ البيزنطي بفترات الصحوة مثل عصر الأسرة الأيسورية (٩٩-١٨٦هـ/٧١٧-٨٠٢م) وغيرها وكانت بيزنطة تسعى لشن هجوم كبير على المسلمين لاستعادة ما انتزعوه منها من أقاليم.

ومنذ سقوط الدولة الإسلامية الأموية يختلف في كثير من خصائصه عن العصر الأموي الذي سبقه، فقد صاحب قيام الدولة العباسية انتهاء الشعور بالانتماء إلى عالم البحر المتوسط، وبعبارة أخرى فإن العباسيين غيروا اتجاههم من البحر

١- جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص ١٨٣.

٢- جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص ٤٧.

المتوسط وتطلعوا إلى جهة الشرق[١] فالمؤثرات الفارسية التي كان لها دور مهم في قيام الدولة العباسية، ازدادت وضوحاً، بعد ذلك فرضت عليها نقل عاصمة الدولة الإسلامية من دمشق إلى بغداد القريبة من فارس، فضعف بذلك الأثر الهيلينستي في الحضارة الإسلامية، في حين ازداد فيها أثر الحضارات الشرقية كالفارسية والهندية.[٢]

وترتب أيضاً على الاتجاه شرقاً حدوث تغير في سياسة الخلفاء العباسين تجاه البيزنطيين فأصبحت شواطئ البحر المتوسط بالنسبة للعباسيين بمثابة حدود ونهايات، ينبغي الدفاع عنها لأبواب وثغور يفقر منها إلى ما وراء هذا البحر من البلدان، كما ترتب على بعد عاصمة دولتهم عن ساحل البحر أن كل اهتمام الخلفاء بدعم الأسطول الإسلامي في البحر[٣] ونتيجة للضعف الذي لحق به، غلب الطابع البري على العلميات الحربية العباسية ضد البيزنطيين وقد تمثل ذلك في حملات موسمية، تخترق الحدود البيزنطية في تواريخ محدودة، عرفت باسم المصايف والمشاتي، فالأولى حملة الربيع وهي تقع لعشرة أيام تخلو من شهر مايو بعد أن تكون خيول المسلمين تحسنت أحوالها لوفرة الكلأ والمرعى، وتستمر هذه الغزوة ثلاثين يوماً، أما الحملة الثانية فتستمر أيضاً عشرة أيام من شهر يوليو، ويكون الكلأ في أرض العدو وفيراً، أما حملة الشتاء فهي الحملة الثالثة وتحدث في حالة الضرورة، وتبدأ في أخر فبراير إلى أيام تمضي من شهر مارس، مع مراعاة عدم استمرار المسلمين في هذه الحملة أكثر من عشرين ليلة.[٤]

دار الصراع العباسي البيزنطي في هذه الفترة حول المناطق التي تتكون من سلسلتي حيال طوروس وطوردس الداخلية (Anti Taurus) والتي تبدأ من الفرات

١- فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ج٢، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٦، ص١٣١.
٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ط١٠، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦، ص١٥١.
٣- حسين مؤنس، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ط٢، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٦، ص٥٦.
٤- أبو الفرج قدامة بن جعفر، نبذة من كتاب لخراج وصنعة الكتابة، ضمن كتاب المسالك والممالك لابن خرادذبة، نشرة دبي غوية، ليدن، مطابع إبريل ١٩٨٩، ص٢٢٩. انظر الملحق رقم (٢)، ص١١٧.

حتى حدود قيليقية، بعد جبل اللكام "الأمانوس Amanus" واحداً من مجموعة طوروس الداخلية ويحمي الثغور هنا خط طويل من القلاع يبدأ من ملطية "Melitihe" على الفرات الأعلى إلى طرسوس "Tarse" بالقرب من ساحل البحر المتوسط وشهدت هذه المناطق اصطدامات مستمرة تقريباً[١] ولم تتوغل أي من الدولتين إلا نادراً في أراضي الدولة الأخرى.

وكانت الصفة الغالية على تلك الغارات الاستيلاء على معاقل جبال طوروس والتخلي عنها حسب مد الحرب وحرزها، وإن أسفر البعض منها على وجه الخصوص عن تخريب بعض المدن المهمة. [٢]

١- ليسترنج جاي، بلدان الخلافة الشرقية، ت: فرسيس وكوركيس عواد، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٤، ص ٣٨، ١٦٠.
٢- عليه عبد السميع الجنزوري، الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩، ص١٢-١٣.
- A A.vasilive history of by zantine Empire, Vol 1. (the uni: of Wisconsin press, 1958,: (1). P276.

١,٢,٢- المعارك الحربية بين العباسيين والبيزنطيين

أ- الحدود الإسلامية البيزنطية في العصر العباسي الأول:

اهتم خلفاء العصر العباسي الأول خاصة الخليفة هارون الرشيد، بإنشاء وتحصين الكثير من القلاع التي أطلق عليها اسم الثغور وشحنها بالجند، وانقسمت الثغور الإسلامية البيزنطية بوجه عام إلى أقسام ثلاثة هي: ثغور برية وأخرى بحرية وثالثة تجمع بين الصفتين فهي برية وبحرية وانقسم خط القلاع إلى مجموعتين: إحداهما تحمي منطقة الجزيرة وتسمى ثغور الجزيرة وهي الشمالية الشرقية، والثانية تحمي منطقة الشام وهي الجنوبية العربية. [١]

ويفصل جبل اللكام "Amanus" بين ثغور الجزيرة وثغور الشام، وإنما سمي بعضها من ملطية إلى مرعش "Germanica" بثغور الجزيرة لأن الجند المقيمين فيها كانوا من العراق أومن الجزيرة ويلي ثغور الجزيرة مجموعة أخرى تعرف بالثغور البكرية نسبة إلى ديار بكر بالجزيرة، وأهمها سمياط "Samosata" وماني ومكلين وحصون أخرى منها جمح وحوران والكلس وفي أقصى الشمال حصن فاليقك "theodosiopolis" الذي يقابله من الثغور البيزنطية ثغر الارمنياك. [٢]

وأذانه "Adana" والمصيصة "Mopsuestia" وحلب "Aleppo" وعين زربي "Anazarbas" والكتيبة السواء والهارونية، وإنطاكيا "Anatolitai" من ناحية البر ثم ثغر سلوفيا، من ناحية البحر. [٣] أم الثغور الجزرية فقد اشتملت على: مرعش، والحدث "Adata" وزيطره "Zapetra" وكيسوم "Cesium"،

١- ليتسرانج، المرجع السابق، ص١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣.
٢- قدامة بن جعفر، المصدر السابق، ص٢٢٣، ٢٥٤.
٣- أبوالقاسم عبيد الله بن خرداذبه، المسالك، نشرة ذي غوية، ليدن، مطابع إبريل، ١٩٨٩، ص٩٩-١٠٠.

وسغلوس، وحصن منصور "Perrthe" وشمشاط "Arsamosaate" وملطية ويقابلها في الأراضي البيزنطية ثغر خرشنة "Chasiane" والخالدية "Chaldia".

أما الثغور البحرية فهي تشمل المواني التي تقع على ساحل البحر المتوسط في الشام ومصر أهمها: انطرطوس "Antardus" وبانياس "Banynas" واللاذقية "Lodicee" وجبلة "Zibal" وطرابلس "Tripli" وجبيل "Jubail" وبيروت "Baruth" وصيدا "sagitta"، وقيسلريا "caesarea" وأرسوف "Arsu" ويافا "Jaffa" وعسقلان "Ascalen" وغزة "Gaza" ثم سواحل مصر ورفح والعريش "Laris" والغرفا.[١]

ويقطع جبال طوروس دروب كثيرة سلك المسلمون اثنين منها بوجه خاص في غزواتهم السنوية للأراضي البيزنطية، أولهما: درب الحدث وهو في الشمال الشرقي ويمتد من مرعش إلى أبلستين "Ablastain" وكان يحمي ذلك الدرب حصن الحدث، أما الدرب الثاني: فهو درب الأبواب الفليقية "Cilican" الضارب شمالاً من طرسوس في اتجاه الطريق العام إلى القسطنطينية ويعرف في قمة الجنوبي باسم درب السلامة، وهو متصل بالأبواب الفليقية وكان يحمي هذا الدرب من الشمال عدة حصون مهمة منها حصن اللؤلؤة "Lulon" وإلى شمالها الطوانة "Tyana" ثم حصن الصفصاف وهو في طريق القسطنطينية،[٢] وأقام الخليفة هارون الرشيد خطاً دفاعياً آخر خلف مناطق الثغور سمي بالعواصم، وذلك لأنه يعصم المسلمين في الثغر من الوقوع في قبضة البيزنطيين ومن مدنه منبج "Manbig" التي اتخذها عاصمة له ثم استبدلها بإنطاكيا فيما بعد،[٣] وزودت الدولة العباسية مناطق الثغور بالجند والأموال اللازمة للصرف على وسائل الدفاع الخاصة بها، والقيام بالغزوات وبلغ ما تصرفه الثغور الشامية نحو مائة ألف دينار، تنفق في مصالحها من المراقب

١- قدامة بن جعفر، المصدر السابق، ص٢٢٣، ٢٥٥.
٢- ليتسرانج، المرجع السابق، ص١٦٥، ١٧١.
٣- البلاذري، مصدر سابق، ج١، ص١٦٥.

والحرس والموكلين بالدرب والمخايص[١] والحصون وغير ذلك، أما مقدار نفقات الجند ورواتبهم في المصايف والمشاتي في البر والبحر فقد بلغت مائتي ألف دينار وأحياناً تصل إلى ثلاثمائة ألف دينار،[٢] وفي مقابل الثغور العباسية اتخذ البيزنطيون نظاماً خاصاً بمناطق الحدود ناتجاً عن النظام المعروف لديهم باسم الثيمات "Themes" أو الأجناد يسمى قائده بقائد الثغور[٣] وبلغ عددها في القرن الثاني الهجري القرن الثامن الميلادي، أربعة هي تراقيا ومقدونيا وصقلية وهيلاس "Hellas"[٤] وترجع بداية هذا النظام إلى الإمبراطور هرقل الذي حاول أن يتغلب على أزمة النقص في جنود حرس الحدود بأن أغرى بعض شعوب البلقان بالتطوع في سلاح الحدود مقابل التعهد بمنح كل مجند قطعة صغيرة من الأرض الزراعية تسمى "الثيما" "Thema" وجعل لكل قومية منطقتها الخاصة وأطلق أسمها على الثغر الخاص بها وكان من أهم واجبات المستوطن الخدمة الحربية مقابل ذلك، فالجند الفلاحون أصبحوا عنصراً ثابتاً في قوات الجيش البيزنطي وأمدتهم أقطاعاتهم بالوسائل الاقتصادية التي تكفل لهم سبل العيش، وتعدهم حربياً فضلاً عن أنهم إذا جرت دعوتهم للقتال خرج كل منهم بسلاحه وفرسه.[٥]

وبنت الدولة البيزنطية الأبراج الدفاعية بطريقة هندسية معينة على طول الحدود، وعلى مسافات لا تقل على الكيلومتر ولا تزيد عنه، ليتناوب الجنود حراسة هذه القلاع من خلال الأبراج، وذلك عن طريق إرسال صيحات أو إشارات إلى الأبراج الأخرى إذا شعروا بالخطر، وفي فترة الإمبراطور ثيوفل (٢١٤-٢٢٧هـ/٨٢٩-٨٤٢م) أدخل ليو الرياضي بعض التحسينات على هذه الطريقة حيث أعد ساعتين في زمن واحد إحدهما جعلها في القصر الكبير في القسطنطينية

١- المخايص: من النهر الكبير وهو الموضع القليل الماء، انظر: إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، ج١، ط١، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٢، ص٢٦٢.

2 - G, Ostrgorsky: History of the Byzantine state, "Oxford, Press. 1968". PP 195,196.

٣- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٩٢.

٤- المصدر السابق نفسه، ج١٠، ص٩٢.

٥- المصدر السابق نفسه، ج١٠، ص٩٢، وأنظر:

Theophanous thchronicle Tr. Byturtlesove ((uni-ofpenn press, 1922)) P97.

والأخرى في قلعة اللؤلؤة وذلك على أن تتفق السلطات المقيمة في القصر والسلطة المقيمة في القلعة على اثنتي عشرة حادثة وتكتب كل حادثة أمام الرقم المخصص لها على واجهة الساعة فإن حدث أن شعر حارس قلعة اللؤلؤة في الساعة الرابعة مثلاً أن العدو على أهبة عبور الحدود انتظر إلى الساعة السادسة ليتبين حركات العدو ثم يشعل النار، وعندما تنتقل تلك الإشارة عبر المحطات إلى القصر الإمبراطوري ينظر الحراس إلى الساعة فيعلمون متى أشعلت النار في قلعة اللؤلؤة، ويقفون بذلك على معنى الإشارة، وإذا أشعلت في الساعة الثامنة دلت على أن العدو بدأ في شن الهجوم. [١]

إن عادة إشعال النار في الأبراج هي عادة عربية استعملها العرب في التخاطب قبل ظهور الإسلام وإن كل ما أحدثه البيزنطيون هو إدخال بعض التحسينات على هذا النظام، وقد أشار المقدسي إلى الأماكن التي تشغل فيهما النار على الساحل الشامي واتخذها المسلمون والبيزنطيون وسيلة للتفاهم عند افتداء أسرى الطرفين، فقال: ((فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط وغن كان نهاراً دخنوا ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة فيها أقوام فتوقد المنارة للتي للرباط ثم التي تليها، ثم الأخرى فلا يكون ساعة الأوقد نفر انقره النقير بالقصبة وضرب الطبل على المنارة)). [٢]

<u>ب- ميزان القوى بين الجانبين:</u>

اهتمت المصادر الإسلامية بأخبار المصائف التي غلب عليها في الفترة التي تمتد من سنة (١٣٢-٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٦م) رجحان كفة المسلمين في ميدان العمليات الحربية، وكان من الطبيعي أنه إذا أحس أي طرف أنه الأقوى أو أن خصمه يعاني من مشاكل يبادر بتوجيه ضربة إليه ويحاول الطرف الآخر الرد عليها أو

١- السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٢، ص ١٢٢.
٢- محمود أحمد بن محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط١، ليدن، مطابع إبريل، ١٩٠٦، ص١٧٧.

يتجنبها وشراء السلم، وقد استغل الإمبراطور قسطنطين الخامس (١٢٤-١٥٩هـ/٧٤١-٧٥٥م) فرصة انشغال الدولة ا لعباسية بتوطيد أركانها والقضاء على الخارجين عليها، فدفع حدود دولته إلى الشرق على طول الحدود في آسيا الصغرى بعد عدة عمليات ناجحة.[١] ولكن عندما كانت إيرين على عرش الدولة البيزنطية، أرسل الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٥٥-٧٨٥م) عدة حملات ناجحة في آسيا الصغرى وأحرز انتصاراً حاسماً في ثغر تراقيبون سنة (١٦٥هـ-٧٨٢م) مما اضطر الإمبراطور إبرين الوصية على ابنها قسطنطين السادس (١٦٤هـ-٧٨٣م) بين الدولتين استمرت ثلاث سنوات،[٢] مثل ذلك الاتفاق إهانة بالغة للدولة البيزنطية، إذا التزمت الإمبراطورة بدفع مبلغ مالي قدر ما بين سبعين أو تسعين ألف دينار سنوياً.[٣] نجحت العمليات الحربية التي قام بها الجيش الإسلامي تحت قيادة الخليفة هارون الرشيد سنة (١٧٣هـ-٧٩٠م) في عقد اتفاقية سلام جديدة مع الدولة البيزنطية قضت بدفع إتاوة كما عهد الخليفة المهدي.[٤]

اجتاحت جيوش المسلمين آسيا الصغرى حتى وصلت البسفور، كما نشط البلغار في البلقان واجتاحوا تراقيا بعد أن أنزلوا الهزيمة بالجيوش البيزنطية التي كانت تحت قيادة الإمبراطور قسطنطين السادس،[٥] عاود الخليفة هارون الرشيد حملاته ضد الدولة ا لبيزنطية وذلك بسبب تهديد الإمبراطور نقفور الأول (١٨٧-١٩٦هـ/٨٠٢-٨١١م) له في إحدى رسائله التي طالب فيها من الخليفة برد ما دفعته له الإمبراطورة إيرين قائلاً: ((أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها..))[٦] فأجابه الرشيد برسالة جاء فيها: ((بسم الله الرحمن الرحيم من هارون

١- البلاذري، المصدر السابق، ج١، ص٢١٩.
٢- شهاب الدين أحمد النويري، نهاية الحرب في فنون الأدب، ج٢٢، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٣، ص١١٥.
٣- الطبري، تاريخ الأمم، ج٩، ص٣٤٧.
٤- مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبر الحدائق، ج٣، بغداد، مكتبة المثنى، ب- ت، ٢٧٩.
5 -G, Ostrgorsky: History of the Byzantine state, "Oxford, Press. 1968".
٦- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٩٢.

الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه)).[١] وأهم غارات الخليفة في فترة حكم الإمبراطور نقفور كانت سنة (١٩٠هـ-٨٠٦م) عندما قاد الخليفة الجيوش الإسلامية بنفسه، واستولى على معاقل مهمة منها هرقلة "Heracuea" وبعض الحصون مثل حصن الصقالبة "Slavs" ودنسه "Thebase" ومقلوبية "Malacopia" والصفصاف واضطر نقفور على أثر هذه الحملة إلى طلب الصلح ودفع مبلغ من المال عن نفسه وعن ولده وبطارقته وباقي الرعية بلغ خمسين ألف دينار سنوياً[٢] حتى يتخلى له الخليفة عما بيده من الأراضي البيزنطية ولعل في هذا ما يدلنا على أن الخلافة العباسية لم تضع لنفسها سياسة ثابتة هدفها تقويض دعائم الدولة البيزنطية، ثم انشغل الخليفة هارون في أواخر أيامه (١٩٣-١٩٤هـ/٨٠٨-٨٠٩م) بثورات في الأقاليم الشرقية من أراضي الدولة.[٣] كما تلا وفاته اضطراب الدولة العباسية بسبب الخلاف بين وليده الأمين والمأمون فلما أستتب الأمر للمأمون بعد مقتل الأمين سنة (١٩٨هـ-٨١٣م) كان عليه أن يواجه بعض الفتن الداخلية العنيفة التي تجلت في الثورة الخرمية.

ولكن الخليفة لم يصرف نظره تماماً عن الدولة البيزنطية فقد انتهز أحدى الثورات المهمة التي أعلنها شخص صقلي يسمى توماس على الإمبراطور ميخائيل الثاني (205-214هـ/٨٢٠-٨٢٩م) وعمل على شد أزر ذلك الثأر ضد الدولة البيزنطية وقد استمرت هذه الثورة ثلاث سنوات،[٤] ساعدت السياسة الدينية للإمبراطور ميخائيل الثاني على ازدياد خطر الثورة، فقد استأنف اضطهاد عبدة الصورة والأيقونات مما دفع هؤلاء الناس كانوا كثيرين ولهم قادة متحمسون إلى تأييد توماس الذي أعلن نفسه مدافعاً عن الأيقونات، ولم يكن الخليفة المأمون ليغفل عن تلك الثورة، ولم يتردد في أن يعقد حلفاً مع توماس تعهد فيه بمساندته في سبيل خلع

١- المصدر السابق نفسه، ج١٠، ص٩٢.
٢- المصدر السابق نفسه، ج١٠، ص٩٢.
3 -Vasiive op cit, vol, P274.
٤- قسطنطين بورفير جنيتوس، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، حققه محمود سعيد عمران، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٠، ص٨٧.

الإمبراطور ميخائيل الثاني مقابل حصول الخليفة العباسي على بعض مقاطعات الحدود[١] ومما يؤكد هذا التحالف وجود بعض الفرق الإسلامية في جيش توماس.[٢]

وتوج بطريق إنطاكيا التي كانت تحت سيطرة المسلمين توماس إمبراطور ووجد الإمبراطور نفسه في مواجهة منافس خطير[٣] سحق توماس جيشاً بيزنطياً أرسله الإمبراطور ميخائيل لمواجهته عندما تحرك لمهاجمة القسطنطينية ولم يلبث الإمبراطور أن أدرك خطورة هذا الثائر خاصة بعد تزعمه حرب الأنصار الأيقونات فجنح إلى السلم مع أنصار هذا الحزب ليضعف جبهة توماس في حين ارتكب الأخير خطأ حربياً يتقدمه لحصار القسطنطينية براً وبحراً في سنة (٢٠٦هـ-٨٢١م) وكان يتوقع أن تفتح له المدينة أبوابها بمجرد اقترابه منها، ولكن أمله خاب، فعلى الرغم من صراحة موقف الإمبراطور فإنه أخذ تمام أهبته للدفاع عن عاصمة ملكه، وفي سنة (٢٠٧هـ-٨٢٢م) تمكن من تدمير أسطول الثوار، واستعان بملك البلغار أمورتاج من أجل القضاء على قواتهم البرية[٤] فاضطر توماس إلى الهرب، لكن قبض عليه سنة (٢٠٧هـ-٨٢٣م) وأمر الإمبراطور ميخائيل بإعدامه، وقد تركت ثورة توماس أثاراً خطيرة على أوضاع الدولة البيزنطية ومثل القضاء عليها أهمية كبيرة ففشل الثورة بعني فشل محاولة إرجاع عبادة الصور والأيقونات، كما كانت هزيمة توماس هزيمة لخليفة المأمون. [٥]

استمرت الثورة الخرمية تقلق بال المأمون فقد حمل بابك لواء العصيان واتسمت ثورته بالعنف والشدة، ورأت الدولة البيزنطية في ثورة بابك فرصة للأخذ بثأرها من مساعدة الدولة العباسية للثائر توماس، وقامت بخطوات إيجابية في سبيل

---

1 - Vasiive op cit, vol, P274.

٢- أ. أ. فازيليف، العرب والروم، تحقيق: الهادي شعيرة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٤٣، ص ٣٦-٣٧.

3 -Vasiive op cit, vol, P27٥.

٤- العريني، مرجع سابق، ص٢٧٦.

٥- عزالدين أبو الحسن علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، بيروت، دار صادر، ١٩٥٦، ص ٤٢٩.

احتضان تلك الثورة وذلك بتحالف الإمبراطور ثيوفيل بن ميخائيل الثاني الذي تولى العرش سنة (٢١٤-٢٢٧هـ/٨٢٩-٨٤٢م) مع الثائر بابك رتب هذا التحالف القائد ثيوفويوس فارسي الأصل نشأ وتربى بالقسطنطينية وقد كان من أهم جنود هذا التحالف، دخول عدد كبير من الجند الخرمية في خدمة الإمبراطورية الذي جعل على رأسهم قائدهم ثيوفويوس لما يربط بينه وبينهم من صلة النسب واللغة.[١]

وفي سنة (٢١٥هـ-٨٣٠م) قاد ثيوفيل حملة إلى آسيا الصغرى انتهت بهزيمته، لكن في السنة التالية تمكن من الانتصار في قيليقيا على جيش من قوات الحدود الإسلامية، استقبل الإمبراطور استقبال الأبطال عند رجوعه إلى القسطنيطينية، بيد أن السنوات التالية لم ترى أي نجاح في سياسة ثيوفيل الخارجية فأرسل سنة (٢١٧هـ-٨٣٢م) وفداً إلى الخليفة المأمون من أجل عقد معاهدة سلام، لكن المأمون توفى سنة (٢١٨هـ-٨٣٣م) في الوقت الذي تولى فيه الخليفة المعتصم.[٢]

في عهد المعتصم هناك حادثة تاريخية مهمة، وهي انتصاره الحاسم على البيزنطيين في عمورية بآسيا الصغرى سنة (٢٢٣هـ-٨٣٨م) ومن أخبار هذا الفتح أن الإمبراطور ثيوفيل البيزنطي انتهز فرصة انشغال المعتصم في مطاردة الخرميين وأغار على الحدود الإسلامية وهاجم مدينة زيطره (Azopetra) وهي أقرب الثغور الإسلامية إلى بلاد الروم، فأحرقها وخربها وقتل رجالها وسبئ نساءها وأطفالها، وغضب المعتصم لهذا الحادث خصوصاً وأنه كان يعتز بهذه المدينة لأنها كانت مسقط رأس والدته، ويضيف ابن كثير أن امرأة هاشمية أخذت تصيح عندما وقعت في اسر الروم: (وا معتصماه)! فلما بلغ ذلك المعتصم أقسم بأن ينتقم من الروم وان يخرب مدينة عمورية ثم جمع المعتصم جيشاً كبير تولى قيادته بنفسه، ويقال أن اسم عمورية كان منقوشاً على درع كل جندي من جنود المسلمين،[٣] وبذلك استطاع

١- ابن فضل الله العمري، مسالك البصار في ممالك الأمصار، ج٢٦، إسطنبول، سلسلة عيوان، ١٩٨٨، ص٤٥.
٢- ابن الأثير، مصدر سابق، ج٦، ص٤٣٠.
٣- ابن الأثير، مصدر سابق، ج٦، ص٤٣٢.

الخليفة المعتصم أن يتفرغ لتنفيذ الخطة التي أعدها للانتقام، والتي هدفت على تخريب عمورية موطن الأسرة الحاكمة في الدولة البيزنطية، فقد كانت عمورية يومئذ في أعز أيامها، ومن المحتمل أن الإمبراطور ميخائيل الثاني جعلها أسقفية، كما كانت محصنة منيعاً، وقد تمكن المعتصم من الاستيلاء على عمورية،[١] وفكر في متابعة انتصاراته بالزحف على القسطنطينية، لكنه اضطر إلى العودة إلى بلاده عند سماعه بأنباء مؤامرة تدبر ضده، ولم يلبث أن توفى سنة (٢٢٧هـ-٨٤٢م) وتبعه ثيوفيل في السنة نفسها. [٢]

وعلى الرغم من وصول القوات الإسلامية إلى ذلك العمق في الأراضي البيزنطية فإنها انسحبت دون الاستفادة من الموقف الحربي في الدولة البيزنطية، وقد عدت الدولة العباسية هذه الغارة نصراً عظيماً، على الرغم من أنه لا يمكن مقارنتها بانتصارات المسلمين في العصور الأولى للدولة العباسية، ومع ذلك فقد بالغ المؤرخون في إظهارها كحدثٍ مهم.

وفي الفترة المتبقية من حكم الأسرة العمورية، لم يجدد المسلمين هجماتهم لانشغالهم بمشاكلهم الداخلية التي قامت بها القبائل العربية حول المدينة وفلسطين وفي مناطق أصبهان والجبال وفارس[٣] أما في الدولة البيزنطية فقد أصبحت ثيودورا ثيودورا زوجة ثيوفيل سنة (٢٢٧-٢٤٣هـ/٨٤٢-٨٥٦م) هي الحاكم الرسمي للدولة بعد وفاة زوجها وقصور ابنها ميخائيل الثالث[٤] وقد توالت الهزائم على بيزنطة في تلك الفترة فهزم جيشها في مينا بصقلية سنة (٢٢٨هـ-٨٤٣م)[٥] ونتيجة لتلك الهزائم المتكررة التي لقيتها الجيوش البيزنطية، بادرت الإمبراطورية ثيودورا بإرسال

١- اليعقوبي، تاريخه، ج٣، ص١٦٦.
٢- فازيليف، مرجع سابق، ص١٥٥.
٣- الطبري، تاريخ الأمم، ج١١، ص١٢،٥، ١٣-١٥.
٤- فازيليف، مرجع سابق، ص١٦٩.
٥- العريني، مرجع سابق، ص٢٢٨.

رسلها سنة (٢٣٠هـ-٨٤٥م) إلى الخليفة الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٦م) تطلب عقد هدنة وتبادل الأسرى فوافق الخليفة على ذلك.[1]

٣,٢,١- الأسر والفداء:

ارتبطت الغارات البرية والبحرية على الحدود الإسلامية والبيزنطية بنظام يتعلق بمعاملة الأسرى، تلك الغارات التي اتسمت بطابع التخريب والمفاجأة، وأسر الكثير من رعايا وجند الدولتين، وسنحاول هنا أن نسلط الضوء على معاملة هؤلاء الأسرى.

أ- معاملة المسلمين للأسرى البيزنطيين:

امتازت الدولة الإسلامية عن غيرها بالرحمة في المعارك والحروب، فلا يقتلون من لم يبلغ الحلم ولا النساء ولا الزمنى ولا العميان[2] وقد اختلفت معاملة المسلمين لأسراهم حسب طبيعة ونشاط هؤلاء الأسرى فالأسرى الذين لم يصدر عنهم أي عمل عدائي ضد الدولة كالتجسس مثلاً أحسنت الدولة معاملتهم إذ أعدت للأسرى من أهل الشرف وكبار رجال الدولة وقادة الجيش والأساقفة أماكن خاصة لهم، أما عامة الأسرى فقد يصبحون أرقاء[3] ومع ذلك فقد كان الإسلام مبدأ في مصلحة الرقيق ذلك أن الواحد منهم يستطيع أن يشتري حريته بدفع مبلغ من المال أو العتق، فأوصى الخليفة المعتصم قبل موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه، وأمر ألا يفرق بين أعضاء العائلات التي وقعت في الأسر، وقد كان هناك سوق في سامراء

١- أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، التنبه والإشراف، حققه عبد الله العبادي، بيروت، مكتبة خياط، ص١٧٨.
٢- شمس الدين أبو عبد الله بن بكر بن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، حققه: صبحي صالح، ج١، ط٣، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٣، ص٥ ، ١٧.
٣- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٣٤٣.

خاص لبيع الرقيق،[١] حيث كان ينادي عليهم بخمسة أصوات وعشرة ثم يوجب بيعهم للسرعة[٢] أما الذين أساءوا إلى الدولة الإسلامية فقد تشدد الخلفاء معهم.

ففي خلافة أبي جعفر المنصور أسر الراهب رومانوس سنة (١٥٥-١٥٩هـ/٧٧١-٧٧٥م) في أحدى غارات المسلمين، وسجن في بغداد وفي الفترة نفسها وقع في أسر المسلمين الراهبان "يوحنا وشمعون" اللذان فرا خوفاً من اضطهاد الإمبراطور قسطنطين الخامس اللأيقواني لأنهما كانا من مؤيدي عبادة الأيقونات، وأسر أيضاً البطريق[٣] جورجيوس الذي كان يتفقد ممتلكاته على الحدود البيزنطية العباسية سجن هؤلاء جميعاً ي سجن واحد فحاول البطريق جورجيوس اللايقواني قتل الرهبان الثلاثة مؤيدي الأيقونات، ولكن مؤامرته اكتشفت من قبل المسلمين ففصل عن الرهبان حفاظاً على حياتهم التي قد تعرض للخطر في وجوده معهم.

وفي سنة (١٥٨هـ-٧٧٤م) مات الخليفة المنصور وخلفه المهدي فانضم إلى الرهبان الثلاثة لخلافة المهدي (١٦٠هـ-٧٧٦م) اعتنق الإسلام راهب يدعى يعقوب، واشتبه الراهب في وجود جاسوس بيزنطي ببغداد يدعى رومانوس، فأخبر الخليفة المهدي بذلك فأمر الخليفة حاجبه الربيع أن يحضر إليه الرهبان كلهم ليجري معهم تحقيقاً، واستمر التحقيق عدة أيام، ولكي يتأكد الخلفية من إثبات التهمة على الراهب رومانوس، أستدعى يعقوب لرؤيته، ولكن يعقوب اضطر عند المواجهة ولم يؤكد اتهامه، فطرده الخليفة.[٤]

وفي السنة الأخيرة من خلافة المهدي وبعد أن أمضى رومانوس في السجن تسع سنوات، كان يعمل على إعادة بعض الأسرى البيزنطيين الذين اعتنقوا الإسلام

١- الطبري، مصدر سابق، ج١٠، ص٣٤٣.
٢- الطبري، مصدر سابق، ج١٠، ص٣٤٣.
٣- البطريق: لا يعني Patriarah أي رئيس الكنيسة لكنه بعني الشريف وهو لقب كثير ما ينعم به الإمبراطور على البارزين من رجال دولته، أولئك الذين قدموا خدمات جليلة للدولة وهو لقب روماني قديم.
٤- رضا السيد حسن، المعارك بين العرب والروم، بيروت، الدار العالمية للنشر، ١٩٨٥، ص١٨٦.

إلـى المسـيحية وهـو مـا يعد خطيئـة كبـرى عقابهـا المـوت، وبعـد ثبـوت التهمـة عليـه عرض عليه الخليفة الدخول في الإسلام، وعندما رفض نفذ فيه حكم الموت.[١]

لقد بلغ الصراع اللاأيقوني في الدولـة البيزنطيـة أشده فـي فتـرة قلـم الإمبراطـور قسطنطين الخامس، حيث نصت قرارات مجمع هبريـا الـديني فـي القسطنطينية سنة (١٣٧هـ/٧٥٤م) على تحريم اللايقونات وصور القديسين لأنها تعد مظهراً وثنياً فدمر للأشجار والطيور، لكن هذه الحركة قوبلت بمعارضـة ومقاومـة شديدتين بخاصـة مـن الرهبـان الـذين تعرضـوا للتعـذيب والنفـي والقتـل وصـودرت ممتلكـات الأديـرة، وقـد بلغت هذه الحركة ذروتها سنة (١٤٨هـ-٧٦٥م) عنـدما طلـب الإمبراطـور مـن هـؤلاء الرهبان أداء اليمين بالتخلي عن الصور، وعندما تأكد لـه أن ذلك لمجد نفعـاً، اضـطر إلى اضطهاد كل من خـالف رأيه فتعرض الكثير منهم للتنكيل وسمل العيون، وأجبـروا علـى العـودة للحيـاة المدنيـة العاديـة،[٢] ويصـعب تحديـد هـدف الإمبراطـور مـن وراء سياسته هذه فقد يكون سبب هذا الاضطهاد الحد من نفوذ رجـال الـدين، وبخاصـة أنـه كـان يـدرك المكانـة التـي يتمتعـون بهـا، لدرجـة أنـه حـاول فـي البدايـة كسبهم لتأييـد سياسته، لكنه عنـدما فشـل فـي ذلك لشدة مقاومتهم أخذ ينتقم منهم ونظـر إلـيهم نظـرة العداء [٣] لقد كان الصـراع بني معارضـتي الأيقونات والمؤيدين لها عنيفاً، أصـر تأثيـراً كبيـراً علـى رجـال الدين حتى وهم في السجون، وقد نلقي جميعهم المعاملـة نفسـها دون تميز كما منح الرهبان حقهم في ممارسة شعائرهم الدينية داخل السجن، حيث اعتزلـوا في زاوية معينة لإقامة الصلاة في اتجاه الشرق. [٤]

ولـم يتعرضــوا لأي تعـذيب بـل إن المسـلمين المسـئولين عـن السـجن كــانوا حريصـين علـى حيـاة السـجناء، ضـد أيـة مؤامرة تحـاك ضـدهم، وممـا يؤكـد لنـا حسـن

١- حسن، مصدر سابق، ص١٨٩.

2 -P. peters Roman. Le Neo Martyr Tmai,780 DCAfres an Document. Georgian.

٣- حسن، مصدر سابق، ص١٨٦.

٤- حسن، مصدر سابق، ص١٨٩ أيضاً Vasilive, op cit P, 262.

معاملة المسلمين الأسرى البيزنطيين، أن الخليفة المهدي اضطر إلى قتل الراهب بعد ثبوت إدانته، غير أنه من الممكن أنسوء معاملة البيزنطيين للأسرى المسلمين عندما استولوا على زبطره قد أثرت سلباً على معاملة المسلمين لأسراهم، وذلك رداً على تلك المعاملة السيئة، وإذا صدقنا رواية الطبري فإن الخليفة المعتصم عامل إسراء البيزنطيين أثر حصاره عمورية معاملة اتسمت بشيء من القوة وقتل عدداً كبيراً منهم لأقل الأسباب، وتمكن بعضهم من الهرب وبلغ عددهم ستة آلاف أسير.[١]

ب- معاملة البيزنطيين للأسرى المسلمين:

اختار البيزنطيون طريقاً طويلاً لتسيير أسرى المسلمين الذين يريدون فداءهم وكان الهدف من طول الطريق إذلال هؤلاء الأسرى، بإجبارهم على السير أطول مسافة ممكنة ويذكر هارون بن يحي الذي كان من بين الأسرى الذين تم فداؤهم سنة (٢٣١هـ-٨٤٥م) إنهم سيروا إلى القسطنطينية عن طريق البحر في المراكب من عسقلان، ثم سيروا منها ثلاثة أيان حتى وصلوا مدينة إنطاكيا وساروا ثلاثة أيام أخرى حتى وصلوا مدينة نيقيا "Nicaea" ومثلها إلى مدينة سنقرة، ثم ساروا في الصحراء مشاة حتى وصلوا البحر، حيث أبحروا إلى القسطنيطينية، وذكر أنه رأي فيها سجوناً خصصت للأسرى المسلمين وسجنا أخر لأهل طرسوس، ومنها أيضا ما خصص بسجن العامة، وسجن خاص بالحرس.[٢]

ويضيف ابن حوقل سجناً خامساً يعرف بدار البلاط بسجن فيه أسرى الإمبراطور في رساتيق[٣] ويوقف الأسرى عند وصولهم إلى القسطنطينية وسط السوق بين الضمين في حين يذهب رسول الإمبراطور، فإن رجع وهم واقفون أرسلهم إلى السجن، وإن وجدهم اجتازوا الضمين قتلهم جميعاً وأحياناً يتعرض

١- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٣٤٣.

٢- أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، الأعلاق النفسية، مجلد ٧، ليدن، مطابع إبريل، ١٨٩١، ص١١٩-١٢٠.
٣- ابن رسته، مصدر سابق، مج٧، ص١٢٦.

الأسرى لمعاملة قاسية، فربما ضربوهم بالفؤوس والحجارة والقوهم في النار[١] كما كان البيزنطيون يستعبدون الأسرى من عامة المسلمين ويستعملوهم في المصانع، فالأسير الحاذق الذي إذا سئل عن صنعته لم يقر بها،[٢] لأن البيزنطيين كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى استغلال أسراهم في الصناعة التي يتقنونها للاستفادة منهم، وحاول البيزنطيون الضغط على أسرى المسلمين لتنصيرهم، ففي فداء سنة (٢٣١هـ-٨٤٥م) تنصر نحو ثلاثين أسيراً.[٣]

وعلى الرغم من المعاملة القاسية التي عومل بها الأسرى المسلمون، فغن البيزنطيين سمحوا لهم في بعض الأحيان بممارسة الألعاب المرحة للترفيه عن أنفسهم، فشاركوا البيزنطيين في مسابقات الخيول، واحتفالات أعياد الميلاد التي يقدمون فيها للمسلمين موائد خالية من لحم الخنزير، وفي نهاية الاحتفال الذي يستغرق اثني عشر يوماً يمنح الأسير دينارين وثلاثة دراهم،[٤] كما سمح لهم بمزاولة نوع من التجارة الداخلية، ولم يقتصر الطرفان في بيع أسراهم على مبالغ مالية فحسب بل لجأوا إلى المقايضة، إذ تم بيع بعض الأسرى في بعض الأحيان مقابل مقتنيات من الذهب أيضا.[٥]

ج- عمليات الفداء:

كانت الحرب بين المسلمين والبيزنطيين سجالاً، ينال بعضهم من البعض الأخر، لذلك احتاج الخلفاء والأباطرة إلى الفداء خاصة عندما تكون الأوضاع الداخلية لأحدهما لا تتحمل ضغوطاً خارجية، فتضطر إلى المهادنة وعقد الصلح مع الدولة الأخرى، غير أن ذلك لم يضع حداً للعداء التقليدي المستمر بينهما.

١- المقدسي، مصدر سابق، ص١٤٨.
٢- أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت، ص١٧٨.
٣- المقدسي، مصدر سابق، ص١٤٧-١٤٨.
٤- ابن رسته، مصدر سابق، مج٧، ص١٢٣.
٥- نفس المصدر السابق، ص١٧٧.

أول فداء حدث في الدولة الإسلامية بمال كان في العصر العباسي الأول، ولم يحدث فداء بمال في العصر الأموي، إنما كان الفداء في سواحل الشام والإسكندرية وبعض الجزر، أسير بأسير،[١] وتعرضت بعض المصادر الإسلامية لذكر بعض الأفدية، منها فداء حدث في فترة الخليفة أبي جعفر المنصور الذي يعاصره من الأباطرة البيزنطيين والإمبراطور قسطنطين الخامس وأجرى هذا الفداء سنة (١٣٩هـ-٧٥٦م) وإن أغلب من تم فداؤهم من المسلمين من أسرى فينقيا ومناطق أخرى.[٢]

كما أجرى فداء في عصر الخليفة المهدي تولى أمر القيام به النقاش الإنطاكي، وفي سنة (١٨١هـ-٧٩٨م) تم الاتفاق بين الرشيد وابرين على عقد هدنة وتبادل الأسرى، حيث قام بأمر هذا الفداء القاسم بن الرشيد وبلغ عدد الأسرى المسلمين حوالي ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير،[٣] وقع هذا الفداء على نهر اللامس "Lamos" وهي قرية على شط البحر،[٤] بينها وبين طرسوس مسيرة يوم واحد يكون البيزنطيون في سفنهم بالبحر والمسلمون في البر فيتفادون[٥] وحضرة العلماء والأعيان ومن أهل الثغر أناس كثيرون، ومن الجنود ثلاثون ألفاً، فاستعاد المسلمون أسراهم وسط مظاهر من الفرح، وأجرى فداء أخر سنة (١٩٢هـ-٨٠٧م) وتولى هذا الفداء ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي[٦] وحدث فداء أخر في فترة خلافة الأمين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م) وبالتحديد في السنة الثانية من خلافته وأخر في عصر الخليفة المأمون تم سنة (٢٠١هـ-٨١٦م) على يد ثابت بن نصر الخزاعي أيضاً،[٧] إلا أن هذه الأفدية لم يشتهر أمرها على الرغم من إشارة المصادر الإسلامية إليها ونحن نوافق المسعودي لأنه كان أكثر اهتماماً ودقة لمسألة فداء الأسرى، فذكر

١- أبوالعباس أحمد بن علي المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، القاهرة، مطبعة الحمين، ب- ت، ص١٩١.
٢- الطبري، تاريخ الأمم، ج٩، ص١٧١.
٣- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٣، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦، ص٤٧٧.
٤- ابن حوقل، مصدر سابق، ص١٨٣.
٥- أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، دار صادر، ١٩٧٩، ص٨.
٦- ابن حوقل، مصدر سابق، ص١٨٣.
٧- المسعودي، التنبيه، ص١٨٢.

طريقة إجرائها، ومن حضرها، وعدد الأسرى الذين تم فداؤهم رجالاً ونساءً ويشتمل العصر العباسي الأول في رأيه على ثلاثة أفدية رئيسية أجريت مع البيزنطيين هي:-

- **الفداء الأول:**

حدث هذا الفداء سنة (١٨٩هـ-٨٠٤م) في عصر الخليفة هارون الرشيد والإمبراطور نقفور الأول، وقد تولى أمر الفداء من الدولة العباسية القاسم بن الرشيد، وحضره أبو سليم فرج خادم الرشيد وسالم البربري مولى بني العباس، ومن أهل الثغور والأمصار نحو خمسمائة ألف.

وقيل أكثر من ذلك بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح، وفيه تم فداء الأسرى البيزنطيين سواء أكانوا رجالاً أم نساءً وحضرت مراكبهم بأحسن ما يكون من العدة واللباس، يصبحون معهم أسرى المسلمين الذين بلغ عددهم حوالي ثلاثة آلاف وسبعمائة مسلم، ثم فداؤهم في اثني عشر يوماً. (١)

- **الفداء الثاني:**

أجرى هذا الفداء أيضاً في عصر الرشيد سنة (١٩٢هـ-٨٠٧م) تولى أمر القيام به ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي، ويرى بعض المؤرخين أن هذا الفداء حدث في البندندوت "Podandos"،(٢) بينما يرى المسعودي أنه حدث في اللامس وهو الرأي الذي نرجحه لأنه المكان المعتاد في عملية تبادل الأسرى، استمر هذا الفداء سبعة أيام وحضره آلاف من الناس، وبلغ عدد الأسرى المسلمين الذين تم فداءهم نحو ألفين وخمسمائة رجل وامرأة. (٣)

- **الفداء الثالث:**

١- المسعودي، التنبيه، ص١٧٦-١٧٧.
٢- الطبري، تاريخ الأمم، ج٦، ص٢٠٨.
٣- المسعودي، التنبيه، ص١٧٧.

حدث هذا الفداء في عصر الخليفة الواثق، الذي واجه منذ بداية خلافته أزمات داخلية وأدى فشل البيزنطيين في الاستيلاء على صقلية إلى ميل الطرفين إلى إقامة علاقات سليمة وذلك عن طريق الفداء الذي تم سنة (٢٣١هـ-٨٤٥م) وكلف ابن أبي قحطبة صاحب الفتح بن حاقان التركي بمعرفة عدد الأسرى المسلمين في بيزنطة فلما وصل البلاط الإمبراطوري أخبره أن عدد الأسرى ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة، وقد اختلف رسل الدولة البيزنطية مع الوزير محمد بن عبد الملك الزيات لأن البيزنطيين رفضوا فداء العجزة من النساء والرجال والأطفال، واستمر هذا الخلاف أياماً حتى اتفقوا على يفدي رجل برجل ويبدوا أن عدد الأسرى المسلمين كان أكثر من الأسرى البيزنطيين، لذلك وجه الخليفة الواثق رسله إلى بغدد والرقة "Raqqa" لكي يشتروا الرقيق الموجود هناك، ولم يكفه العدد فاضطر إلى إخراج الرقيق الموجود في قصره حتى يتكافأ العددان بلغ عدد المسلمين الذين حضروا هذا الفداء أربعة آلاف فارس وراجل وتولى أمر هذا الفداء من الجانب البيزنطي قائدان يقال لأحدهما القاس وللأخر طلسيوس،[١] وقدر عدد المسلمين الأسرى الذي تم فداؤهم في هذا الفداء بحوالي أربعة آلاف وستمائة أسير منهم الأطفال والنساء، ومنهم خمسمائة من أهل الذمة، وبالرغم من أن أهل الذمة في الغالب نصارى فإن الدولة الإسلامية اهتمت بأمر فدائهم واعتبرت نفسها مسئولة عنهم.[٢]

لما اتصفت به من عدالة وتسامح ديني في معاملة رعاياها، وقد استمر هذا الفداء أربعة أيام كان المسلمون في الجانب الشرقي من النهر، والبيزنطيون في الجانب الغربي منه، وأجرى الفداء رجلاً برجل يلتقيان في وسط النهر، فإذا صار المسلم إلى المسلمين هللوا وكبروا، وإذا صار البيزنطي إلى البيزنطيين تلكموا أشبه بالتكبير،[٣] ومن المسلمين الذي تم فداؤهم مسلم بن أبي مسلم الجرمي، وهو شخصية عظيمة الأهمية عاش في أسر البيزنطيين فترة طويلة حتى عرف بلادهم وكتب عدة

١- الطبري، تاريخ الأمم، ج١١، ص١٣.
٢- الطبري، المصدر السابق، ج١١، ص١٩.
٣- أبو علي أحمد بن محمد بن مسكوية، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج٦، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٨، ص٥٣٢.

كتب عن الأباطرة البيزنطيين وعن أقاليمهم ومسالكهم وطرقهم، وأوقات الغزو إليهم، ومن جاورهم من الممالك، البلغار والصقالية والخزر وغيرهم، وقد أخذ ابن خرداذبة الجغرافي عنه علمه في أقاليم الدولة البيزنطية.(١)

وأهم ما يميز هذا الفداء مسألة خلق القرآن، حيث وجه الخليفة الواثق جماعة من رجاله منهم يحي بن آدم الكرخي وجعفر بن الحداء وطالب بن داود لامتحان المسلمين الذي تم فداؤهم فمن قال إن القرآن مخلوق فك أسره وأعطي ديناراً.(٢)

ومن خلال هذه الأفدية نستنتج أن نظام الفداء كان من النظم المتبعة بين الدولتين العباسية والبيزنطية، لأنهما كانتا في حروب دائمة، لا تنقطع إلا في فترات نادرة تلجأ فيها أحدى الدولتين إلى المهادنة وعقد الصلح مع الدولة الأخرى، وتنتهي هذه الحرب بأسر الكثيرين من كلا الطرفين.

لذا كانوا يتفقون على إجراء الفداء ويحددون لإجرائه الزمان والمكان اللذين يتم فيها بصورة رسمية، ورافق عمليات الفداء احتفال عظيم من قبل الألوف من الجنود واستعراض القوات الحربية من كلتا الدولتين، حيث يتم تبادل الأسرى عادة عند اللامس، غير أن المقدس بروي حدوث أفدية أخرى في ثغور فلسطين مثل قيسارية "caesarea" ويسبق عمليات الفداء إيفاد سفارات لتقرير أمر الفداء فإذا اتفق الطرفان على إجرائه استعد له استعداداً عظيماً، فتأتي السفن البيزنطية المزنية، حاملة أسرى المسلمين، وإذا اقتربت هذه السفن من الشواطئ الإسلامية ورآها الحرس الموكل إليهم مراقبة السواحل دقوا الطبل إيذاناً بوصولها. (٣)

والملاحظ في هذه الأفدية أن أغلبها تم في فترة الخليفة هارون الرشيد، وربما يرجع ذلك إلى كثرة الغارات الحربية في عصره، وعلى الرغم من تحديد المصادر

١- المسعودي، التنبيه، ص١٧٧.
٢- العمري، مصدر سابق، ج٢٦، ص٤٠.
- Minorsk V.Hadud Al-Alam ((the Rigions of the worid)) London, Oxford univ, 1937, P419.
٣- المقدسي، مصدر سابق، ص١٧٧.

الإسلامية عدد أسرى المسلمين ونوعيتهم ذكوراً وإناثاً، شيوخاً وأطفالاً مسلمين وأهل ذمة، فإنها أغفلت ذكر عدد الأسرى البيزنطيين ونوعهم. [1]

اتضح لنا من خلال ما طرحناه في هذا الفصل أن الصراع العباسي البيزنطي وإن بدأ مستديماً واتسم بالاستمرار لم يحل دون الاتصال بين الطرفين، كان أسباب ذلك الصراع تكمن في الخلافات الدينية والسياسية التي أدت إلى عدم شعور أي من الطرفين بوجوب إقامة سلم دائم وصريح، ومع ذلك فد كانت هناك اتصالات دبلوماسية أثرت تأثيراً واضحاً على العلاقات بينهما وهذا ما سنحاول بحثه في الفصول القادمة إن شاء الله.

١ـ المقدسي، المصدر السابق نفسه، ص١٧٧.



الاتصالات الدبلوماسية بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية

<u>٢,١- المراسلات</u>

أ) المراسلات المكتوبة.

ب) السفارات الشخصية.

ج) تبادل الزيارات.

<u>٢,٢- العلاقات بين القوى المتصارعة.</u>

أ) علاقة العباسيين مع الفرنجة.

ب) السفارات المتبادلة بين الأمويين في الأندلس وبيزنطة.

الفصل الثاني

١,٢- المراسلات

أ- المراسلات المكتوبة:

إن موضوع الدبلوماسية في مختلف العصور، من الموضوعات المهمة الجديرة بالدراسة، لأنها تكشف عن جانب العلاقات السلمية بين الدولة الإسلامية والدول المعاصرة لها ولعل تفسير ظاهرة اهتمام الخلفاء العباسيين والأباطرة البيزنطيين بالمراسلات الدبلوماسية المكتوبة يعكس حرص الطرفين على توطيد العلاقات السلمية في سبيل تحقيق الأهداف والمصالح المشتركة.(١)

على الرغم من أن الدول تهتم كل الاهتمام تنظيم جيوشها وأساطيلها إلا أنها مع ذلك لا تغفل جانباً هاماً منن النشاط السياسي يترتب على العناية به الاقتصاد في القوات العسكرية، فالنشاط الدبلوماسي يصطنع الأصدقاء ويبرر الشقاق بين الأعداء فيتحقق توازن القوى ويحجز العدو المتربص عن المخاطرة بالعدوان، والمعلومات المتوفرة عن تنظيم الدبلوماسية البيزنطية،(٢) والطابع الظاهر للدبلوماسية البيزنطية هو الشكلية الجامدة التي وضعت للمبالغة في تقرير العظمة الإمبراطورية في الأذهان، فكان السفير الأجنبي لا يكاد يصل القسطنطينية حتى يحاصر بقواعد صارمة للبروتوكول حتى لا يقابل غير المختصين وعندما يؤذن له بالدخول إلى الحضرة الإمبراطورية، كان يجري استقباله وفق مراسم خاصة حسب مركزه في بلاده.(٣)

وتجري الاتصالات الإسلامية البيزنطية في المراسلات المكتوبة والسفارات الشخصية ويتميز الإسلام عن سائر الأديان بأنه دين ودولة عقيدة وعبادة شريعة روحية، حكم وإدارة جاءت لأمور الدنيا مثلما جاءت لأمور الدين، شريعة سماوية

١- عمر كمال توفيق وحياة ناصر الحجي، الدبلوماسية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج٧، عدد ٢٦، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٧، ص١٦٨.
٢- فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ج٢، ص٣٨٥.
٣- فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ج٢، ص٣٨٥.

جاءت لهداية البشرية وإخراجها من ظلمات الجهل، والإسلام لم يفرض نظاماً معيناً من أنظمة الحكم لتتبعه الشعوب والحكومات بل ترك تفصيل الأحكام لتراعي كل أمة ما يلاءم حالها وتقتضيه مصالحها.[١]

لقد جاء الإسلام بقواعد تحدد السلوك والمعاملات والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية بما يتفق وروحه العظيم وليكون أساساً لحضارة إنسانية تعم الدنيا كلها والمبادئ العامة التي اشتمل عليها القرآن الكريم وتناولتها السنة بالشرح والتفسير واجتهاد الفقهاء مصدر غني للتشريع الذي يتلاءم مع كل عصر لا يقتصر أو يمكن أن يقف عند حدود معينة، أو محدودة، بل هي دائماً متطورة مع الشرح والاجتهاد ورغم أن الشريعة الإسلامية ظهرت في القرن السابع الميلادي أي قبل ظهور القانون الدولي الحديث فإنها جاءت مشتملة على قواعد وأحكام نظم العلاقات الإنسانية بين الناس وبين مختلف الجماعات، علاقات تستهدف الوحدة بين الدول والسلام.[٢]

وقد وصلت الشريعة الإسلامية إلى تقرير مبدأ الإلزام بالمساعدات والوفاء بالعهود في زمان لم يكن الوفاء بالعهد متعارفاً عليه بين الجماعات والأفراد كانت القوة هي الفيصل وأساس الإلزام بالمعاهدات الدولية عرفته الشريعة الإسلامية والأخذ بأصوله وكلنا نعرف أن أهم مبادئ الإسلام هو احترام العهد وعدم الإخلال بالمعاهدات والاتفاقيات، في ظل الدولة العباسية تحولت الخلافة إلى ملك خوض خطب الخليفة العباسي السفاح غداة استيلائه على الحكم وتناقضت صورة الحكم شأنها في ذلك شان الدولة الأموية ومن هنا كانت بداية التحول عن أساس الحكم الإسلامي، وهو الشورى والديمقراطية.

وكانت النهاية بدخول الدولة الإسلامية السياسية في طور الإمبراطوريات، لقد ازدهرت الدولة السياسية[٣] في ذلك العصر كان العالم تتنازعه أربع قوى كبرى

١- عمر توفيق وحياة ناصر الحجي، مرجع سابق، ص١٦٨ .
٢- المرجع نفسه، ص١٦٨.
٣- إبراهيم أحمد العدوي، السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٧، ص٥، ١٣.

تعددت مطالبها، واختلفت أهدافها ففي الشرق كانت الدولة العباسية وعاصمتها بغداد تشكل إمبراطورية واسعة، وفي الشمال الغربي منها الدولة البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية وسلطاتها تشمل آسيا الصغرى وبلاد البلقان، وقامت بعد ذلك سنة (١٣٨هـ-٧٥٥م) في الغرب الدولة الأموية في الأندلس وفي شمالها دولة الفرنجة التي اتخذت من اكس لاشابل عاصمة لها[١] كل دولة من الدول المجاورة، تعتبر الدولة الأخرى خطراً يهدد وجودها، بيزنطة تعتبر الدولة الإسلامية ممثلة في الأمويين ثم العباسيين غريماً منافساً وكان النزاع بينهما والحروب مستمرة فاشتدت غارات بيزنطة على الدولة العباسية خصوصاً بعد نقل العاصمة من دمشق إلى بغداد فانشأ العباسيون الحصون والقلاع على الحدود لرد هجماتهم وكانت هذه الغارات مستمرة ومن الطبيعي أن يكون هناك أسرى بين الطرفين وأن يتزايد عددهم مع استمرار الغارات.[٢]

وتمثل المراسلات المكتوبة أبرز مظاهر الاتصالات الدبلوماسية بين المسلمين والبيزنطيين، وقد شجع قيام الدولة الأموية سنة (٤١هـ-٦٦١م) واتخاذها دمشق عاصمة لها، على ازدياد نشاط العلاقات الدبلوماسية وتبادل المراسلات بين الدولتين، فخصص الأمويون ديواناً يعرف بديوان الرسائل لمكاتبة ملوك الدول المجاورة، وقام الديوان نفسه في العصر العباسي بالتمهيد لاختيار السفراء، وإعداد الكتب التي يحملونها إلى الملوك والأباطرة وإلى الأمراء التابعين للدولة والولاة وغيرهم.[٣]

ومن بين هذه المراسلات تلك التي بعضها الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى الإمبراطور جستينان الثاني سنة (٨٨هـ-٧٠٧م) يطلب منه تقديم المساعدات الممكنة لعمارة مسجد رسول الله بالمدينة المنورة فاستجاب الإمبراطور البيزنطي لهذا الطلب، وأرسل للخليفة مائة ألف مثقال ذهب ومائة عامل في فن البناء وأربعين جملاً

١- إبراهيم العدوي، المرجع نفسه، ص١٣.
٢- إبراهيم العدوي، المرجع نفسه، ص٢٤.
٣- إبراهيم العدوي، المرجع نفسه، ص٥، ١٣.

من الفسيفساء وعندما أراد الخليفة تجديد بناء مسجد دمشق أرسل كتاباً آخر يطلب فيه إرسال مائتي صانع لتجديد بناء المسجد.[١]

ونستنتج من خلال هذه الرسالة أن الاتصال بين الدولتين كان اتصالاً قوياً ولم يقتصر على الجوانب الحربية، بل تعداه إلى جوانب مادية أخرى، حتى إن هذه الجوانب جعلت التعاون وتبادل المجاملات الدبلوماسية بين البلاطين أمراً ممكناً.ورافق ازدهار الدولة العباسية وتوسع مصالحها شرقاً وغرباً، ونمو علاقاتها السياسية وتطورها مع شعوب وأمم ذلك العصر، أن شهدت بغداد أوسع العلاقات الدبلوماسية وأقواها، فإضافة للاحتكاك الحربي المستمر بين الدولتين العباسية والبيزنطية، قامت مصالح مشتركة بينهما وأدى الفداء الحربي وعدم الاستقرار إلى لجوء الطرفين للطرق الدبلوماسية لحل هذا الخلاف فتبادل الطرفان السفارات، وعقد المعاهدات والاتفاقيات السياسية لأغراض وأهداف مختلفة تحقق للدولة مصالحها، وتزيد من روابطها الثقافية والتجارية،[٢] ومن أشهر المعاهدات التي عقدت بين الدولتين العباسية والبيزنطية، المعاهدة التي عقدها هارون الرشيد مع الإمبراطورة أيرين في فترة خلافة المهدي وأسفرت هذه المعاهدات التي عقدت سنة (١٦٦هـ-٧٨٢م) عن صلح وهدنة لمدة ثلاث سنوات، على أن تدفع الإمبراطورة الوصية مبلغاً من المال قدر ما بين سبعين أو تسعين ألفاً من الدنانير، وتسلم ما لديها من أسرى المسلمين جميعاً، وتقييم الأسواق في عودة المسلمين وتقدم له الإدلاء.[٣]

تعرضت الدولة البيزنطية في فترة وصاية الإمبراطورة أيرين وفترة حكمها لنزاع عقائدي حاد ساهم في إضعاف الدولة، وبرهن على ميل كفة الميزان لصالح الدولة العباسية، وعلى الرغم من أن المسلمين لم يفتحوا مناطق جديدة فإن إجبار بيزنطة على دفع إتاوة أكثر من مرة، حقق لهم التفوق كقوة كبرى في ذلك الوقت،

١- عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، حققه سامي الدهان، بيروت المكتبة الكاثوليكية، ١٩٥٧، ص٥٦.
٢- عز الدين علي شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص٥٧-٥٨.
٣- الطبري، تاريخ الأمم، ج٩، ص٣٤٧.

قطع نقفور الإتاوة على المسلمين ربما أراد كسب الصيت والسمعة لنفسه أو إضفاء الصفة الشرعية على انقلابه.[١]

وتلمح في رسالته احتقاره للإمبراطورية أيرين وعدم اعترافه بحقها في الملك فجعلها "بيرقاً" لا قيمة لها على الإطلاق، بل هي تابعة ذليلة فائقة يملؤها الرعب ذلك الرعب الذي صور لها خليفة المسلمين بأنه "الرخ" صاحب السطوة والسيطرة، ويرى أن خضوعها كان ناتجاً عن ضعف النساء وحمقهن، وتناسى أن من الرجال على مر التاريخ من كان حمقه سبباً في ضياع دولته وتدمير شعبه، ومن النساء من قادت شعبها وأمتها إلى صنع الأمجاد العوالي، وأخذت بيد أبناء جنسها إلى بلوغ الآمال، لقد ظن الإمبراطور نقفور أنه رسالته هذه يخيف الخليفة، لكن الخليفة أمر كاتبه بكتابة جوابه على ظهر كتاب نقفور قد جاء فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم وقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه)).[٢]

بدأ الخليفة هارون كتابه بالتسمية التي تدل على قوة عقيدته، واعتزازه بخالقه، وكتب جوابه على ظهر الكتاب المرسل إليه وهذا يعني عدم اكتراثه بذلك الكتاب أو رغبته في الاحتفاظ به، اتبع الخليفة هذا الجواب بالهجوم على هرقلة،[٣] فحاصرها ثلاثين يوماً حتى فتحها وسبى أهلها، وتمكن قادته من فتح عدة حصون منها حصن الصفصاف(*)، ودبسه(*)، مقلوبية(*)، الصقالبة(*).[٤]

١- شاكر مصطفى، دولة بني العباس، ج٢، الكويت، وكالة المطبوعات للنشر، ١٩٧٤، ص٣١٤.
٢- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٩٢.
٣- أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، حققه: عبد المنعم عامر وجمال الدين السيال، ط١، القاهرة، دار الكتب العربية، ١٩٦٠.
٤- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٩٩.
*- الصفصاف: كورة من ثغور المعيصة في حوض نهر جيحان و كانت قلعة بيزنطية قديمة، أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٦٨.
*- دبسه:
*- مقلوبية: اسم معركة واقعة مرج الأسقف وهي عند الهروج الشمالي لدرب طرطوس ويذكر ياقوت الحموي أن قليمة كورة واسعة برأسها من بلاد الروم قرب طرسوس، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٢٩.
*- الصقالبة: قوم من الصقالبة كانوا فروا من البيزنطيين فجعلهم مروان الثاني هناك لحراسة الدرب، أنظر ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص١١٢.

وجعل اسم الدولة العباسية يزداد قوة وترددا، ومن المؤكد أن ضعف بيزنطة قد ساهم في الوصول إلى تلك الأوضاع ليس فقط فيما يتعلق بالعلاقة مع الدولة العباسية بل أيضاً علاقاتها مع الغرب الأوربي، حيث قام الباب ليو الثالث (١٧٩-٨٠١هـ/٧٩٥-٨١٦م)[1] مما عرض العالم المسيحي لأزمة تعدد كيان ووحدة الإمبراطورية الرومانية بمفهومها القديم وكان لهذا كله أثره في خوض بيزنطة غمار الحرب ضد المسلمين، ولما تولى هارون الرشيد الخلافة تميزت الفترة الأولى من خلافته بالهدوء النسبي، حيث ركز اهتمامه على تنظيم الحدود مع البيزنطيين وتحصينها[2] لكن الانقلاب الذي قام به نقفور الأول في القسطنطينية ضد أيرين سنة (١٨٧هـ-٨٠٢م) سبب توتر العلاقات الهادئة مع العباسيين وبوصوله على العرش بدأت سلسلة من المراسلات التي يغلب عليها طابع التهديد، وذلك حين رفض دفع ما كانت الإمبراطورية المخلوعة معتادة على دفعه للعباسيين في رسالة جاء فيها: ((من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك)).[3]

أرسل الإمبراطور نقفور بعد هذه الحملة يطلب الصلح، وهذا يدل على حمقه وتسرعه، كما يدل على عدم درايته بإمكانيات دولته في ذلك الوقت، حتى توهم أنه قادر على هزيمة جيوش المسلمين الذي ارتوت قلوبهم بالإيمان فحركت فيهم مشاعر القوة الفائقة.

وقد وافق الخليفة على عقد الصلح سنة (١٩١هـ-٨٠٦م) على أن يدفع الإمبراطور مبلغاً من المال عن نفسه وولده وبطارقته ورعيته يتراوح فيما بين

1 - Geoffrey, Barraclouy. The Medie val papacy "printed in brtain. 1972" P37.
٢- البلاذري، مصدر سابق، ج١، ١٥٦.
٣- الطبري، تاريخ الأمم، ج١١، ص٩٢.

ديناريـن وأربعـة دنـانير، بلـغ خمسين ألـف دينـار،[١] علـى أن ينقش علـى أحد وجهـي نقودهـا "هـارون الرشـيد"، وعلـى الأخـر "الأمـين والمـأمون"،[٢] ربمـا أراد الخليفـة هارون الرشيد من الإمبراطور نقفور الاعتراف بقوة الدولـة الإسـلامية دون الـدخول فـي ذمتـه، ك مـا اتفـق الطرفـان علـى ألا يعمـر نقفـور هرقلـة وألا يخـرب هـارون الحصول (حملة، سنان، ذي الكلاع) على أن يحمل إليه نقفور ثلاثمائـة ألـف دينـار،[٣] لقد كان هذا ا لصلح أكثر إذلالا من الصلح الذي عقدته أيرين، لأن الخليفة لقنـه درسـاً لا ينسى وعلمه من دروس الأدب ما ينبغي أن يتحدث به ها المغرور أبي الأقوى منـه عدة وعتاداً، وأعظم منه عقيدةً واعتقاداً، وأكد قوتـه ومبلـغ إهانتـه للإمبراطـور عنـدما فرض عليه دفع أتاوة عن نفسه وولده أي أن الخليفة عد الإمبراطور مثـل أي بيزنطـي دون أيـة امتيـازات خاصـة بـه بصـفته إمبراطـوراً لدولـة مجـاورة كمـا فـرض عليـه أن ينقش على وجهيها أسم الخليفة وولديه،[٤] وهذا إن دل علـى شـيء فإنمـا يـدل علـى مـا وصلت إليـه الدولـة العباسية من قوة ومـا وصـلت إليـه الدولـة البيزنطيـة من ضـعف، ويرى البعض أن الأتاوة التي كان الأباطرة يؤدونهـا للمسـلمين لـم تكن سـوى اسـتثمار حكيم للمال، فإذا كان الإمبراطور البيزنطي على استعداد للقتـال توقـف عـن الـدفع،[٥] ولكننـا نـرى أن لجـوء الأبـاطرة البيـزنطيين إلـى طلـب الصـلح ودفـع الأتـاوة لـم يكـن استثماراً للمال بقدر ما كان يعبر عن الضعف الذي كانت تعانيه الدولة، التي لو كانـت قويـة لمـا اضـطرت إلـى عقد صـلح مهين مـع المسلمين، ولـذلك لا يمكننـا الأخذ بهـذا الـرأي قاعـدة، ونعـد القـائلين بـه قد أرادوا التقليـل مـن قيمـة الانتصـارات التـي حققهـا المسلمون، ولو كانـت هـذه الأتـاوة فرضـت علـى المسلمين من قبـل البيـزنطيين لعـدوا لذلك نصـراً عظيمـاً.

١- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٩٩.

٢- تقـي الـدين أبـو العبـاس المقريـزي، شـذور العقـود فـي ذكـر النقـود "النقـود الإسـلامية" حققـه: محمـد بحـر العلـوم، ط٦، بيـروت، دار الزهراء، ١٩٨٨، ص٩٣.

٣- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٩٩.

4 - Edward Gibbon. The Decine and Fall of the Roman Empire. Vol iii "The Modern Libry, N y no date P 241.

٥- نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، تحقيق: حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، الملحق الثـاني من كتـاب الإسلام وبيزنطـة، أ.أ فازيليف، ط٢، القاهرة، ا لدار القومية للنشر، ١٩٥٧، ص٣٩٨.

لقد أرسل الإمبراطور نقفور بعد هذا الصلح كتاباً يطلب فيه من الخليفة افتداء خطيبه ابنه التي كانت قد أسرت في هرقلة قائلاً: ((لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم سلام عليك أما بعد أيها الملك إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك هينة يسيرة، إن تهب لأبني جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابني فإن رأيت أن تعطيني بحاجتي فعلت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته)). [١]

تغير موقف الإمبراطور نقفور بعد غزو المسلمين هرقلة وانتصارهم على البيزنطيين انتصاراً رائعاً، فانظر إلى الرسالة التي بدأها أولاً باسم المرسل إليه مقدماً على اسمه هو وذلك لما فيه من محاولة استعطاف الخليفة وترضيه خاطره، وإظهار جانب من جوانب الذل النفسي الذي كان يعيشه الإمبراطور، حيث أصبح الخليفة في نظره بعد انتصاره عبد الله لا لسواه، والاعتراف الصريح بإمارته، وقد كان في الرسالة الأولى يلقبه بملك العرب، ودعا للخليفة بالسلام، كما تبين لنا رسالته أنه أصبح محتاجاً وأن تلك الحاجة هينة وسهلة، وأنها من باب الإحسان إليه، إذ المسألة أصبحت استنجداً وطلباً للمعروف، بل وبلغ به أن ختم الرسالة بأن استعمل الأسلوب الإسلامي في المخاطبة، فأرسل الخليفة هارون خطيبة ابن نقفور مع الهدايا من الطيب والديباج، فرد إليه نقفور دراهم إسلامية وأثنى عشر بازياً، وأربعة كلاب من كلاب الصيد وثلاثة براذين. [٢]

أم في عصر الخليفة المأمون فقد أرسل الإمبراطور ثيوفيل (٢١٦هـ-٨٣١م) رسالة يعرض فيها هدنة بين الطرفين، وذلك عندما بلغه خبر إعداد المأمون العدة لغزو بيزنطة رداً على غارات ثيوفيل على الثغور الإسلامية، وما قام به من تقديم معونات إلى بابك الخرمي بدأ ثيوفيل رسالته بحكمه تقول: ((إن اجتماع المختلفين على حظها أولى بهما في الرأي مما عاد بالضر عليهما ولست حرياً أن تدع الخط

١- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٩٩.
٢- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٩٩.

يصل إلى غيرك خطأ تحوزه إلى نفسك وفي علمك كاف عن إجبارك وقد كتبت إليك داعياً إلى المسألة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا وتكون كل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأنس وأن الطرق والبضة فإن أبيت فلا أدب لك في الخمر(*) ولا أزخرف لك في القول فإني لخائض إليك غمارها أخذ عليك أسدادها شان خيلها ورجاله)).[١]

من خلال هذا النص نفهم أن الإمبراطور يطلب من الخليفة عقد الصلح الذي هو أفضل من خوض غمار الحرب، لكن جنوح ثيوفيل إلى الصلح لم يكن رغبة منه في السلام، بل أراد أن يوجه موارده وقواته إلى صقلية لاستردادها من المسلمين، وتؤكد لنا رسالته هذه أنها ليست الأولى، بل سبقتها رسائل أخرى، يطلب فيها الإمبراطور السلام والمهادنة، وتكشف لنا عن أثر العامل الاقتصادي في قيام الحروب، ما أعظم العرض وما ألين الطلب عندما عرض عليه أن يكون حلفاً واحداً. تزدهر بينهما العلاقات التجارية، ويضمن الأمن والأمان في الطرقات فلا سطو ولا قطاع الطرق، وإن رفضت فهي الحرب فأرسل الخليفة المأمون رداً على رسالته جاء فيه: ((فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة وإلا اعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه لعلت جواب كتابك خبلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة)).[٢]

ومن هذا الجواب ندرك صفات أهل الحكم في ذلك العصر، وكيف حملوا الإسلام والمسلمين وحرمة الأرض فضمنوا لرعاياهم السلام، لقد شعر هذا الجواب الإمبراطورية بقوة الخليفة وشدة بأسه وكثرة عدده ومدده حتى أدرك أنه لم يجبه إلى ما طلب عن ضعف بل من باب إيثار السلام على الحرب وفي فترة خلافة المعتصم، أرسل الإمبراطور ثيوفيل رسالة يلتمس فيها الصفح والسماح من الخليفة أصر ما

*ـ الخمر: بالتحريك: كل ما وراك من شجر أو بناء أو غيره، أنظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، د- ت، ص٦٢٩.

١ـ المصدر السابق نفسه، ج٨،ـ ص ٦٢٩ـ٦٣٠.

٢ـ الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٢٨٣.

اقترفه جيشه في زبطره[١] جاء فيها: ((إن الذين فعلوا بزبطره ما فعلوا تعدوا أمري، وأنا أبينها بمالي ورجالي وأرد من أخذ من أهلها وأخلي جملة من في بلد الروم من الأساري وأبعث إليك بالقوم الذين فعلوا بزبطره على رقاب البطارقة)).[٢]

لقد اعتذر الإمبراطور في رسالته هذه وطلب الصفح والسماح من الخليفة المعتصم وذكر أن الذين فعلوا بزبطره ما فعلوا قد جاوزوا أمره، وخالفوا تعليماته، ولذا فهو يتعهد ببناء ما أفسدوه بماله ورجاله، كما يتعهد أن يرد من أخذ من أهلها، والغنائم التي سلبها جنده، وكل من اغتصبوه من أهل زبدره، وهذا تأكيد منه في محاولة الصلح وطلب الصفح، حيث عرض مرة أخرى إخلاء سبيل الأسرى المسلمين الموجودين في بيزنطة وإرسال المعتدين على رقاب البطارقة، ولم يقابل الخلية المعتصم سفير ثيوفيل[٣] ربما انه كان بعيداً عن عاصمة الخلافة، فأرسل إليه الإمبراطور رسالة أخرى بعد غزو الخليفة المعتصم لعمورية جاء فيها: ((إن الملوك لم تزل يغزوا بعضها بعضاً ويعلوا بعضها على بعض وربما أتيت من وزراء السوء، وقد كان منا بزبطره ما كان وتبنيت وجه الخطأ فيه، وقد كنت لي بالصاع أصواعاً فيما فعلت بعمورية، وأنا أسالك بالطينة المباركة التي أنت منها ن تنعم بإطلاق بطارقتي، فإنهم مائة وخمسون بطريقاً، وأنا افتدي كل واحد منهم بمائة من المسلمين وقد تهادت الملوك قلبنا، وقد وجهت مع رسولي من الثياب الديباج المذهبة أربعين ثوباً، طول كل ثوب منها أربعون ذراعاً في عرض العشرين)). [٤]

تكررت مراسلات طلب الصفح في فترة الخليفة المعتصم، حيث أرسل الإمبراطور ثيوفيل رسالة يلتمس فيها الصفح من الخليفة الذي لقنه في غزوة عمورية درساً لا ينسى، وأوضح فيها أن الحرب بين الدول أمر معتاد، فتارة نرى هذا غالباً

١- أبو الفرج غر يغوريوس بن أهرون بن العبري، تاريخ مختصر الدول، نشرة الأب أنطوان صالحاني، ط٢، بيروت، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٨، ص١٣٩.
٢- اليعقوبي، تاريخه، ج٣، ص١٦٦.
٣- أبو الحسن بن محمد الفراء، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، حققه: صلاح الدين المنجد، ج١، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢، ص٣٤.
٤- ابن الفراء، المصدر السابق، ج١، ص٣٤-٣٥.

وذالك مغلوباً، وقد يحدث العكس، وهذا من قبيل تهدئة خاطر المعتصم حتى يصفح عنهم، كما بين لهفي رسالته أن ما وقع كان بسبب وزراء السوء، وقد تبين له وجه الخطأ فيه، ثم أن البيزنطيين شربوا من المسلمين، كأساً مترعاً من الهزيمة المرّة في أكثر من موقعة، استخلف ثيوفيل الخليفة المعتصم بالطينة المباركة التي ينتسب إليها، ومن خلال هذا النص يتضح لنا مدى المكانة التي يتمتع بها البطارقة "القادة الأشراف" داخل الدولة البيزنطية مما دفع أباطرتها إل أن يقبلوا افتداءهم مقابل مائة من المسلمين، كما يوضح لنا في الوقت نفسه عدم تمكن هؤلاء البيزنطيين من أسر قادة أو شخصيات إسلامية حتى يتم تبادل الأسرى بشكل متكافئ، لقد رفض الخلية هذا الصلح لأن فيه إشارة إلى تكريم القادة في بيزنطة وطعناً في المسلمين برخص دمائهم الواحد بمائة ما أرخص المسلمين، فإذا كان أولئك البطارقة أهل الباطل لهم كل تلك المكانة والتأثير في شعوبهم فإننا يجب أن ننكل بهم تنكيلاً يغرس في نفوس البيزنطيين الفزع.

حتى لا يجرؤا على الاعتداء على المسلمين بعد ذلك كما رفض الخليفة المعتصم هديته لأنه في غير حاجة إليها ولو عظمت لأنه لا يسلم غي عزة وقوة المسلمين مقابل بضعة أشياء من الهدايا، فكان جوابه للإمبراطور: ((بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فقد قرأت كتابك وسمعت خطابك والجواب ما ترى ولا ما تسمع وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار)). [(١)]

يحمل هذا الجواب رداً في منتهى الإيجاز أبلغ من كل تهديد وإسراف في الكلام، الأمر الذي كان له أثره في نفس الإمبراطور فأصيب بحالة من القلق والاضطراب أثر وصول جواب الخليفة الذي يعني رفقته عقد الصلح مع الإمبراطور.

١ـ أبو بكر أحمد بن ثابت بن أحمد بن الخطيب، تاريخ بغداد، ج٣، بيروت، دار الكتاب اللبناني، د- ت، ص٣٤٤.

لقد كانت المراسلات المكتوبة هي الوسيلة الأسهل والأكثر شيوعاً في العلاقات السياسية بين الدولتين، فاللهجة الملتهبة التي صيغت بها الرسائل التي تبادلها الرشيد ونقفور، لم تكن مألوفة في الخطابات الدبلوماسية الأخرى، بل نجد ألواناً أخرى من اللين والشدة يمتزج بعضها ببعض، وكانت العادة في الرسائل أن تبدأ باسم الخليفة العباسي قبل اسم الإمبراطور البيزنطي وغالباً ما كان البيزنطيون من يبادر إلى طلب الصلح والمهادنة من الخلفاء العباسيين الذين كانوا يكتفون منهم بالأتاوة.

لم يكن القصد حروب العباسيين مع البيزنطيين، حتى وهم في أوج قوتهم التوسع والفتوح، لكنها غزوات متبادلة من الطرفين لتثبيت المراكز وصراع من أجل التحكم في ممرات جبال طوروس والمعابر المؤدية إلى آسيا الصغرى، فمن يسيطر على تلك المعابر يأمن خطر الدولة الأخرى، كما يؤمن الطرق التجارية، فلم يكن جنوح البيزنطيين إلى طلب الصلح رغبة منهم في السلام لنهم هدفوا من وراء ذلل إعادة ترتيب جيوشهم وتقويتها لتستعد لمواجهة المسلمين، أو لانشغالهم بحرب البلغار في الشمال، أو للقضاء على المشاكل الداخلية في دولتهم كالمشكلة اللايقوانية، وقد فكر الخليفة المعتصم في القضاء على الدولة البيزنطية وفتح القسطنطينية، لكن هذا المشروع لم يقيض له أن يتحول إلى التنفيذ،[١] ذلك لأن المعتصم أدرك جيشه البري لن ينفعه كثيراً في الاستيلاء على القسطنطينية، ما لم يدعمه بأسطول بحري قوي لا يملكه في ظروفه القائمة لذلك فإن تنفيذ مثل هذا المشروع قد يسبب له كارثة حربية هو في غنى عنها مع طول خطوط موصلاته وصعوبة التموين، إضافة إلى المشاكل والثورات الداخلية فلا ننسى مثلاً أن المعتصم أجبر على العودة وعدم مواصلة رضخه نحو القسطنطينية، بعد أن وصلته أخبار عن مؤامرة تحاك ضده،[٢] وتحولت حملته على عمورية رغم كل الدماء التي سفكت والجهود التي بذلت والأموال التي

١- المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص٦٠.
٢- المصدر السابق نفسه، ج٤، ص٦٠-٦١.

أنفقت من أجلها إلى إغارة مثلها مثل أية غارة حدودية تأديبية قام بها العباسيون من قبل دون أي فتح أو تغيير يذكر في حدود الطرفين.

ب- السفارات الشخصية:

قد يستدعي الاتصال الدبلوماسي إرسال سفير لتبادل وجهات النظر عند الرغبة في الاتفاق على مسائل حربية أو تجارية أو لتبادل المجاملات، ويعرف اليوم هذا النوع من السفراء بالسفراء فوق العادة، وهم سفراء المناسبات وقد راعى أولو الأمر في الدولتين تزويج السفراء بكتاب يعرف بشخصية ومهمته تشبه أوراق الاعتماد آلاف وتمتع سفراء الجانبين بميزات وحصانات، وحرص كل فريق على الحفاوة بالسفراء وإظهار عظمته لممثل الفريق الأخر، وقد طلب معاوية من الخليفة عثمان من عفان أن يترك له خراج بعض أراضي وضياع لا يرسل لبيت المال كي يخصص لأعباء التمثيل الدبلوماسي.[١]

وقد عرف عن الدولة البيزنطية تدقيقها في اختيار سفرائها إلى الدولة الإسلامية، وقد أرسلت إلى دمشق بعد انتهاء حصار القسطنطينية الثاني (٥٤-٦٠هـ/٦٧٤-٦٨٠م) أحد رجالها الممتازين ويدعى يوحنا وكان منا حكيماً لبقا، وقد استقبل لدى الأمويين بالحفاوة والترحيب وعقد له مجلس كبير ضم علية القوم.[٢]

عرفت الدولة الإسلامية التمثيل الدبلوماسي على نحو مقارب لما هو معروف في الوقت الحاضر وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أول من أوفد السفراء فوق العادة يحملون الرسائل المهورة بخاتمة الشريف، وكان هؤلاء السفراء يختارون الصحابة المقربين وكانوا يوفدون في مهمة معينة تنتهي بانتهاء المهمة التي أرسل من أجلها.

١- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح المنجد، م١، ص٥٩٥.
٢- ابن الفراء، رسل الملوك، ص٢٠.

السفير شخص كلف بالمثول أما دولة أرسل إليها، ويتكلم باسم من أرسله، ويقضي أموراً ذهب لإنجازها،[١] وينسب إلى الرسول الكريم إرسال أول سفارة في التاريخ الإسلامي إلى الإمبراطور هرقل، يدعوه إلى الإسلام،[٢] وازداد تبادل السفارات بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية، منذ قيام الدعوة الأموية، ومن أبرز سفرائها عامر بن شرحبيل الشعبي الذي بعثه الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٠-٧٣هـ/٦٨٠-٦٩٢م) سفير إلى البلاط البيزنطي، وتجلت مواهبة الدبلوماسية عندما قابل الإمبراطور جيستنان الثاني الذي انتابه شيء من الحسد والغيرة من شدة دهاء السفير الأموي، لذلك دبر له مؤامرة في شكل رسالة سلمها له، كي يعطيها للخليفة لكن الخليفة أدرك أن الهدف من وراء رسالة الإمبراطور قتل سفيره. [٣]

وأدى انتقال العاصمة الإسلامية من دمشق إلى بغداد إلى تطور وازدهار حضارتين كبيرتين في العلاقات السياسية الخارجية مع الدول المجاورة، فجاء هذا الازدهار وذلك التطور ليشملا تنظيم السفارات بشكل دقيق، ووفق ضوابط تتناسب مع ازدهار الدولة ومصالحها.[٤]

ففي سنة (١٤٦هـ-٧٦٣م) أتم الخليفة المنصور بناء بغداد وجعلها مدورة، وبنى القصر وسطها، فلما قدم عليه سفير من الدولة البيزنطية، طلب من أحد رعاياه أن يخرج به لرؤية بغداد فلما رجع سأل المنصور السفير عن رأيه في المدينة فأجاب: ((يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناءً لم يبنه أحد من قبلك وفيه ثلاثة عيوب، قال: أولها بعده عن الماء، والثاني فإن العين خضرة تشتاق إلى الخضرة وليس في محلك هذا بستان، والثالث فإن رعيتك في بنائك وإذا كانت الرعية مع الملك في بنائه فشى سره، قال أما الماء فحبسنا منه ما يبل شفاهنا، والثاني فإن لم نخلق للهو واللعب، وأما

١- ابن الفراء، مصدر سابق، ج٢، ص٦١.
٢- أحمد بن علي بن أحمد الفرابي القلقشندي، صبح الأعشى في كتابه الإنشاء، حققه: عبد القادر زكار، ج٦، دمشق، منشورات وزارة الثقافة ١٩٨٣، ص٣٧٦.
٣- المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٦١.
٤- حسن فاضل زغين، العلاقات السياسية الخارجية، في موضوعه حضارة العراق، نخبة من الباحثين العراقيين، ج٦، بغداد، دار الحرية للنشر، ١٩٦٣، ص٣٣٩.

سري فما لي سر دون رعيتي)).[١] نستنتج من هذا النص أي نوع من الرجال هذا السفير، فمن جوابه نعرفه أنه خبير بشؤون العمران وأمور السياسة، وهذا ما سعى إليه الخليفة أبو جعفر المنصور بكل تأكيد ليستفيد من رأي رجل يعرف أنه لو لم يكن ذا خبرة ودارية ما كلف بالسفارة، كما بين لنا جواب الخليفة مدى قدرته، وذكائه في الرد على السفير البيزنطي، لذا كان من الضروري وضع مواصفات حضارية وسياسية لمن يصلح للسفارة تناسب وأهمية هذا المنصب، فعلى الرغم من أن المنصور لم يقر بعيوب عاصمته أمام السفير، فإنه أدرك بينه وبين نفسه أن رأيه كان صواباً، فبادر بمد قناتين من الماء، واهتم بالحدائق، ونقل العامة والأسواق إلى حي خاص يعرق بحي الكرخ.[٢]

ويروي ابن الفراء أن المنصور رد على بطريق الروم قائلاً: ((ما أبالي أن يطلع على سري خاصتي وعامتي لأني فيه وأحصنه، فلما انصرف الرسول تعب الرأي وتبينه))،[٣] ورد الخليفة أبو جعفر المنصور على سفارة الإمبراطور قسطنطين الخامس، وجعل الخليفة عمارة بن حمزة سفيره إلى البلاط البيزنطي، فأدى عمارة الرسالة، وأوصل الكتاب،[٤] ولما تولى المهدي الخلافة قدْ إليه سفير من بيزنطة مهنأً بالخلافة، وصل السفير إلى بغداد سنة (١٥٨هـ-٧٧٥م) وكان اسمه طافات بن الليث بن العيزار بن طريف بن توق بن هورق.[٥]

وعبر السفير عن سبب قدومه قائلاً: ((إني لم أقدم على أمير المؤمنين لمال ولا غرض وإنما قدمت شوقاً إليه وإلى النظر إلى وجهه، لأنا نجد في كتبنا أن الثالث من أهل بيت بني هذه الأمة يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوداً))[٦] فأمر الخليفة وزيره

١- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، مناقب بغداد، نشره محمد بهجت الأثري، بغداد، مطبعة السلام، ١٩٢٣، ص١٤.
٢- ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص١٤.
٣- الطبري، رسل الملوك، ج٩، ص٢٦٢.
٤- ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص١٤.
٥- أبوبكر أحمد إبراهيم الفقيه الهمداني، البلدان، ليدن، مطابع إبريل، ١٨٨٩، ص١٣٧.
٦- أبوبكر أحمد إبراهيم الفقيه الهمداني، بغداد مدينة السلام، حققه: صالح أحمد العلي، ط١، بغداد، سلسلة التراث، ١٩٧٧، ص٥٤.

الفضل بن الربيع بإكرام السفير.[١] ولكن السؤال الذي يطرح ما سبب قدوم السفارات البيزنطية في هذه الفترة؟ هل جاءت فعلاً للتهنئة، أو لتحقيق أهداف أخرى؟ لقد كان الأباطرة البيزنطيون يسعون وراء سفاراتهم إلى معرفة مدى قوى الخلفاء العباسيين وإصرارهم على مواصلة الحرب ضدهم، وهل فكرة فتح القسطنطينية، والقضاء على الدولة البيزنطية من ضمن مخططات الدولة الجديدة، وهدف تحشد له القوى وتنطلق من أجله الجيوش، أو مجرد حلم أو رغبة بعيدة، كما كانوا يسعون أيضاً إلى التعرف على العاصمة الجديدة، فالأباطرة بإرسالهم السفراء، لا يرمون إلى تسليم برسالة فحسب، بل إن هناك العديد من الأهداف التي يبغون تحقيقها من وراء سفارتهم، يريدون معرفة حالة الطرق إذا كانت بعيدة أم لا، وهل تستطيع الجيوش أن تمر بها؟[٢] وعادة ما تتخذ هذه السفارات طابعاً أحر، أي أنها لم تقتصر على التهنئة بتولي العرش أو التعزية، بل جاءت أحياناً من أجل أهداف ثقافية أو تجارية لكن أغلبها كان يرمي إلى التجسس واستطلاع الأخبار وجمع المعلومات التي يستفاد منها في الأمور الحربية. [٣]

واشتهرت سفارة يوحنا النحو إلى الخليفة المأمون في مستهل عهد الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل، وقد بلغ من آثار هذه السفارة على الخيال الشعب البيزنطي أنها اتخذت طابعاً أسطورياً والحقيقة التي يمكن استخلاصها من الروايات المشوشة أن يوحنا المشهور بالبخوي وهو عالم ربما كان على معرفة بالعربية، قد أوفد إلى بغداد لأن ارتقاء ثيوفيل عرش الإمبراطورية وقد حمل معه هدايا ثمينة للخليفة، كما حمل أموالاً ضخمة للتأثير في العرب بمظاهر البذل والسخاء، ولقد روى أنه كان ينثر الذهب مثل رمال البحر ويمنح هباته لكل من يزوره في دار الضيافة لأي سبب.

١- ابن لخطيب، مصدر سابق، ج١، ص٩١.
٢- الحسن الطوسي، سياسات تامة "سير الملوك" تحقيق: يوسف حسين بكار، بيروت، دار القدس، د- ت، ص٣٣-٣٤.
٣- عباس بن راشد بن حماد، رسالة في وصف الرحلة إلى بلاد الترك وخزر الروس والصقالية، حققه: سامي الدهان، دار دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٥٩، ص١٧.

وكان من أسباب الاهتمام بسفارة يوحنا حقيقة أو وهمية تربطها بمغامرات قائد شهير في ذلك الوقت، مما أدى إلى لبس في تحديد النصوص الرومية لتاريخ السفارة بتأخيرها عن وقتها ذلك أن مانويل الذي كان قائد البند (الأرمني) في عهد ليو السادس، ولعله كان قائد البند نفسه في عهد ميشيل الثاني قد امتاز ببسالة في معركته مع العرب أنقذت جرأة هذا القائد وعزيمته حياة الإمبراطور أثناء انهزامه أمام المأمون سنة (٢١٥هـ-٨٣٠م) واحتماله بالفرقة الفارسية التي تآمرت عليه لتسليمه لعدوه، إذ فهم مانويل لسان الفرس واندفع خلالهم وأمسك بعنان حصان ثيوفيل وانتزعه من الهلاك وأغدق الإمبراطور علي منقذه من آيات التكريم ما أثار من حسد بتروناس شقيق الإمبراطور وهنا دس إلى الإمبراطور أن مانويل يتطلع إلى العرش، وانطلت الدسيسة على ثيوفيل وأحس مانويل بالخطر فعبر إلى بيالي (Pylae) ثم وصل إلى الحدود الكيليكية، واستقبله العرب بالترحيب، وكان الخليفة يشتو بالشام وقد تقبل بسرور خدمات أقدر قواد عدوه، ويحكى أنه أدى خدمات كبرى للخليفة ضد أتباع بابك وثوار خراسان ويذكر فازيليف أن هرب مانويل والتجاء إلى العرب حدث سنة (٨٣٠م) ويذكر اليعقوبي وابن الأثير أن هروبه كان أيام ميشيل الثاني أي قبل سنة (٨٢٩م) وهناك معلومات تشير إلى دور لمانويل أيام ميشيل الأول وليو الخامس، وقد أول أنصار مانويل التجاءه إلى العرب بأنه كان هرباً من اضطهاد ثيوفيل. [1]

ويجعل المؤرخون الروم من يوحنا سفيراً مهد السبيل لعودة مانويل إلى بلاد الروم تلك العودة التي حدثت سنة (٨٣٠م) وقد قيل أن يوحنا أضطلع بتدبير لقاء سري مع مانويل لينقل إليه تأكيد الإمبراطور بالعفو والإيمان والتكريم إذا ما عاد إدراجه إلى القسطنطينية، وأجرى المبعوث هذه المهمة الحساسة بنجاح فقد حمل خطاباً إمبراطورياً مختوماً بخاتم ذهبي كما حمل الصليب الذي يضعه ثيوفيل على

١- ابن الفراء، رسل الملوك، ص٣٤.

صدره، وقد عادت هذه التأكيدات الثقة إلى مانويل فتعهد بالعودة إلى البلاد في أول فرصة.[١] وعندما رافق ابن الخليفة في غزوة بلاد الروم نجح في الفرار عند الحدود فيذكر الطبري في أخبار سنة (٢١٥هـ) ((انصرف أبو اسحق بن الرشيد من مصر فلقي المأمون قبل دخوله الموصل، ولقيه مانويل وعباس ابنه برأس العين)) وكان هذا قبل دخول العرب أرض الروم، أما اليعقوبي فيقول: ((إن المأمون عندما أخذ أنقره هرب منها مانويل، وأنقره في هذه العبارة صحتها قرة)).

فلا شك أن مانويل قد فر إلى العرب ثم رجع ثانية وليس بعيداً عن الاحتمال أن يكون يوحنا أداة في توصيل التأكيدات الإمبراطورية التي أدت إلى عودته ولكن قبول القصة كما يرويها كتاب الروم يدعوا إلى افتراض أن فرار مانويل وعلى هذا الأساس كان تاريخ سفرة يوحنا هو شتاء (٨٣١م) ومثل هذه النتيجة توقعنا في صعوبات شتى، والحل الذي يبدوا أكثر احتمالا للمسألة أن مانويل كان قد فر من بلاط ثيوفيل وهو عاد إلى القسطنطينية (٨٣٢م) وقد كانت سفارة يوحنا ومخاطرة مانويل متعة للخيال الشعبي.[٢]

وتجدر الملاحظة أن الدبلوماسية البيزنطية باهظة التكاليف كان الهدف من سفارة يوحنا، إعادة القائد الشهير مانويل الذي هرب من أنقرة (Angor) سنة (٢١٥هـ-٨٣٠م) ولجأ إلى المسلمين في فترة حكم ميخائيل الثاني (٢٠٥-٢١٤هـ/٨٢٠-٨٢٩م).[٣]

كان مانويل قد تولى منصباً مهما أيام حكم الإمبراطور ليو الأرمني (١٩٨-٢٠٥هـ/٨١٣-٨٢٠م) بسبب السياسة المضادة للأيقونات التي اتبعها ليو، لم يجروا رهبان الدير على أن يقولوا أن مؤسس ديرهم خدم إمبراطورا عدواً للصور وإلا كان

١- فازيليف، فصل بيزنطة والإسلام من كتاب Byzantium مترجم بكتاب يليز الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة: حسين مؤنس، ص٣٨٠.
٢- فتحي عثمان، مرجع سابق، ج٢، ص٢٨٥.
٣- رانسيمان، الحضارة، ص١٩٢-١٩٣.

ذلك طعناً في أرثوذكسيته، ولهذا لجوءه إلى المسلمين على أنه كان خوفاً من اضطهاد للأيقونيين، وقد صفح ليو الأرميني لمانويل وفاءه للإمبراطور ميخائيل الأول، حيث كان الأخير مقدساً للصور.[١]

تحول مانويل بعد ذلك نصيراً لليو الأرمني، فلما تولى ميخائيل الثاني لجأ مانويل إلى المسلمين، ابتع الإمبراطور ثيوفيل عند توليه العرش البيزنطي سياسة مخالفة لسياسة الإمبراطور ميخائيل الثاني في كثير من النواحي، لهذا سعى إلى استدعائه خاصة أن مانويل كان عماً للإمبراطورة ثيودورا زوجة ثيوفيل مما يضيف سبباً للعفو عنه، وعلى أثر إيقاع ثيوفيل سنة (٢٢٣هـ-٨٣٨م) بزبطره وخروج المعتصم في غارة انتقامية كبرى حاول الإمبراطور البيزنطي أن يصلح خطأه فوجه رسولاً في أول ما نزل المعتصم على عمورية. [٢]

وهكذا كان المسلمون والبيزنطيون على السواء يحرصون على أن يطلعوا السفراء على أبهة ملكهم وروائه بوضع برنامج لزيارة السفير يشاهد فيه روائع المنشآت وتقديم هدايا تكون صورة مشرفة للبلد الآخر، وخصصت دور الضيافة لاستقبال السفراء، وهيئ التراجمة لمصاحبتهم فقد عهد عمر بن العزيز إلى عشرة من المسلمين يعرفون اليونانية لمصاحبة سفارة بيزنطية من عشرة رجال ولكنهم أن يدنوا له ملاحظات الروم دون أن يطلعوهم على معرفتهم بلغتهم،[٣] ولما دخلت السفارة البيزنطية الجامع الأموي وأخذت تتفرس في روائعه الفنية خر رئيسها مغشياً عليه، فسأله رفاقه عن سبب إغمائه بعد أفاقته، فقال: أنا معشر رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيبقونها فلذلك أصابني ما أصابني)) وبالمثل كان البيزنطيون يعرضون على سفراء المسلمين روائع عاصمتهم ومباهجها، ومن ذلك ما ذكره "ابن رسته" في وسط بلاط الملك وهو قصر والي جانبه موضع

١- فازيليف، مرجع سابق، ص٣٦٢، ٣٦٥.
٢- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٢١٨.
٣- حسين مؤنس، المسلمون في البحر المتوسط، المجلة التاريخية المصرية، م٤، ع١، ١٩٥١.

يقال البدروم (Hippodrome) وهو يشبه الميدان تجتمع إليه فيه البطارقة فيشرف عليهم الملك من قصره في وسط المدينة وقد صور في القصر أصنام مفرغة من صفر على مثال الخيل والناس والوحوش السباع وغير ذلك، وعلى غرب الميدان بايان: يوقوت إلى هذين البابين ثمانية من خيل، وهناك عجلتان من ذهب تشد كل عجلة على أربعة من الخيل يركب فوق العجلة رجلان قد ألبسا ثياباً متوجة بالذهب، ويتركها تجري حتى تخرج من تلك الأبواب فتدور على تلك الأصنام ثلاث دورات فأيها سبق صاحبها الغني إليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل من ذهب، وكل من في القسطنطينية يشهدون ذلك الميدان وينصرون.[١]

وكان المسلمون والبيزنطيون يدققون في مراقبة السفراء خشية التجسس، ويروى أن سفارة بيزنطة أتت لاستطلاع أخبار الاستعدادات لغزو القسطنطينية، ويلاحظ أن المسلمين قد تفوقوا على البيزنطيين في ميدان الرحلات وتدوين التقارير عنها، فتفيض كتب (المسالك) التي وضعها الجغرافيون المسلمون بشرح الطرق المودية إلى بلاد الروم، وقد استمدوا معلوماتهم ممن شاهدوا تلك الديار ومعظمهم من كبار الأسرى.[٢]

وقد قدم مسلم بن أبي مسلم الجرمي أحد الأسرى المسلمين الذين أطلق سراحهم سنة (٢٣١هـ/٨٤٥م) قائمة من التقسيمات الإدارية العسكرية للدولة البيزنطية التي تسمى البنود كانت المادة الأساسية التي استمد منها الجغرافيون المسلمون معلوماتهم.[٣]

وقد كتب المسلمون في الشروط التي يجب توافرها في السفراء وفي القواعد التي يسيرون عليها في قيامهم بمهامهم وفي مقدمة كتاب المسلمين في هذا الموضوع ابن الفراء صاحب كتاب (رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة)، وقد تحير في

١- فتحي عثمان، الحدود، ج٢، ص٤١٠.
٢- إبراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص٢٥٣.
٣- ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١١٩-١٢٠.

شخصية الكاتب ورجح أن يكون أحد رجلين: موصلي تكلم عنه الخطيب أو قرطبي ذكره المعاني تحدث الكاتب عن مميزات الرسالات المكتوبة والسفارات الشخصية فالكتاب يد والرسول لسان، والواجب عن الحكام أن يقرنوا كتبهم بالرسل لما في ذلك من كمال الفائدة ووجوب الحجة، ولقطع الرسول الأمر إذا كان مأمورا من غير مراجعة ولا احتياج إلى استئذان مرسلة[١] على ابن الفراء بنهي الرسول عن تعدي ما أرسل به ويؤثر أن يخطي برأي المرسل على أن يصيب برأيه وهو ينهي كذلك عن الوهم بالرسالة والتحريف لها، ثم يعدد الشرائط التي ينبغي توفرها في الرسول: فأما من الناحية النفسية فينبغي للرسول أن يفعل إذا سفر بين ملكين وكان أحدهما يرعد ويبرق ويتوعد ويستعدي فهو بهذا التغاضي يصغر إليه نفسه (والرسول محتاج من الأقدام والجرأة إلى مثل ما يحتاج إليه من الوقار، ويحتاج الرسول من الحلم وكضم الغيظ ما يحتاج إليه من الصبر على طول المكث وتراضي المقام فإن الرسول ربما وجه إلى سخيف ودفع إلى طائش)). [٢]

وقد يدفع الرسول من ملكه إلى رسالة غليظة يؤمر بأن يؤديها على وجهها ويحظر عليه أن يغيرها، فيحتال حتى يؤدي الرسالة ويسلم من معرة الملك المرسل إليه ويعود بحمد منه وقد نصح لمن أرسله وأدى مقالته. [٣]

وهنا ينتقل ابن الفراء إلى بيان الصفات الجسمية للسفر ويستجيب في الرسول تمام القد وعيالة الجسم حتى لا يكون قميئاً وضئيلاً، وإن كان المرء بأصغر به ومجنوءا تحت لسانه، ولكن الصورة تسبق اللسان وقال أبوزيد في السياسة المختصرة ((وأن يكون الذي تختاره للتوجه في الرسائل جهر الصوت حسن الأداء والمنظر، مقبول الشمائل، حسن البيان جيد العبارة، حافظاً لما يتبلغ ليؤديه على

١- ابن الفراء، رسل وملوك.
٢- العدوي، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص٩٦.
٣- ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٢٠.

وجهه، ولا يمنعه الصدق عن سلطاته رغبة يقدمها فيمن يتوجه إليه، ولا مهانة يستشعرها في نفسه وتقديم النصيحة لرئيسه)).[١] ويجب أن تزاح علله فيما يحتاج إليه حتى لا تشره نفسه إلى ما يبذل له ويدفع إليه، فغن الطمه يقطع الحجة، والرسول أمين لا أمين عليه فيجب أن يرتهن إليه والأفضال عليه.[٢]

وجاء في سيرة المعتصم أنه وجه رسولا إلى ملك الروم فلما رأى الملك هيبة الرسول وكثرة تحمله وما صحبه معه التي لا يكون مثلها إلا لعظماء الملوك قال له: كم ترزق من حال سلطانك؟ قال: ارتزق أنا وولدي في كل شهر عشرين ألف درهم أو نحوها، قال: فتحت فتحاً قسط كان السلطان به معيناً؟ قال الرسول لا، قال الملك: نازلت رجلاً مشهورة بالفروسية من أعداء سلطانك أو اتقدت خليفة أو ولي عهد وقد لج في مضيق أو معركة قال الرسول لا، قال الملك فبأي تستحق هذا الرزق الكثير؟ قال الرسول إن مثلي من يصلح أن توفده الخلفاء للملوك ويحتمل رسائلهم إلى أمثالك من أهل الجلالة والقدر فلولا ثقتهم بي وعلمهم بمناصحتي وقيل لمثلي هذا الرزق مع هذا التحمل من الخلافة وهي من الجلالة فسكت ملك الروم.[٣]

١- كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٢.
٢- ابن الفراء، رسل الملوك، ص٣٥-٣٦.
٣- ابن الفراء، المصدر نفسه، ص٣٥-٣٦.

ج- تبادل الزيارات:

ساعد المسلمين على تنظيم أحوالهم الإدارية تلك الخبرات والتقارير التي كان يدلى بها رجالهم الذين شاهدوا بلاد الدولة البيزنطية، ويلاحظ في هذا الصدد تفوق المسلمين على البيزنطيين في ميدان الرحلات وتدوين تقارير عن مشاهداتهم فلم يكن البيزنطيون مولعين بالرحلات، وتفتقر كتبهم إلى أوصاف المدن الإسلامية وأحوالها، ولكن على النقيض من ذلك نقيض كتب المسالك التي وضعها الجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى بشرح الطرق المؤدية إلى بلاد الدولة البيزنطية وإلى عاصمتها، والمحطات الممتدة على هذه الطرق، واستمد أولئك الجغرافيون معلوماتهم من المسلمين الذين شاهدوا بلاد بيزنطة وكانوا موضع ق\ثقة وأهل خبره ودراية، ومعظم المسلمين الذين دونوا أوصافاً لأحوال الدولة البيزنطية من كبار الأسرى، الذين حملتهم السلطات البيزنطية إلى العاصمة،[١] فمن ذلك أمدنا ((مسلم بن أبي مسلم الجرمي)) أحد الأسرى المسلمين الذين أطلق سراحهم في فداء سنة (٢٣١هـ-٨٤٥م) كانت المادة الأساسية التي بنى عليها الجغرافيون المسلمون معلوماتهم في هذا الصدد،[٢] كذلك كان أول رحالة مسلم وصف العاصمة البيزنطية "القسطنطينية" هو هارون بن يحي فوصف طريق البحر الذي حمل فيه إلى القسطنطينية كما وصف ما رآه بعينيه فيها من الأبواب والملعب والقصر الإمبراطوري، ووصف أيضاً موكب الإمبراطور إلى الكنيسة ويمدنا وصف هارون بمعلومات جليلة مما أفاد منه المسلمون كثيراً.[٣]

وتتجلى أوضح مظاهر تبادل الطرفين الزيارات في السفارات التي كان يوفدها كل فريق لعقد هدنة أو صلح أو إجراء مفاوضات لإطلاق سراح الأسرى، وكان

١- الطبري، تاريخ الأمم، ج١١، ص٢٠.
٢- الطبري، المصدر نفسه، ج١١، ص٢١.

3 - Runciman, op eit 156.

يتولى مهمة الإشراف على هذه السفارات ديوان الإنشاء في الدولتين، وهو أشبه بوزارة الخارجية في المصطلح الحديث، وكان صاحب ديوان الإنشاء يزود السفير بتعليماته ويلقنه ما يجب عليه مراعاته في أثناء زيارته للبلد المتوجه إليها، كل ذلك وفق قواعد مقررة ونظم مرتبة لاستقبال السفراء، ودونت هذه التعاليم في مرجع بيزنطي يسمى كتاب المراسيم، ونسيب هذا الكتاب إلى الإمبراطور "قسطنطين السابع".[١]

على أنه لم يكن للدولتين ممثلون أو دور سفارات في الخارج على نحو ما هو معروف في العصر الحديث،[٢] وإنما أوفدت الدولتان عمالاً مخصوصين يؤدون مهمة السفراء عندما تقتضي الظروف، ويختارون من المتكلمين في اللغتين العربية واليونانية، وكان أولئك السفراء يصنعون تقارير تحفظ في ديوان الإنشاء وعلى هديها تحدد الدولة سياستها الخارجية، والعادة المتبعة في هذه السفارات سواء الإسلامية أو البيزنطية أن تخرج على رأس قوافل محملة بالهدايا الثمينة والمجوهرات لولي البلاد وبعض كبار رجال دولته، وحالما يصل السفير إلى العاصمة سواء بغداد أو القسطنطينية يلقن آداب مقابلة ولي البلاد وأساليب التحية التقليدية وكان موظفو الإنشاء يجتهدون في منع السفير من الاتصال بأي شخص أو مقابلة أحد من رجال الدولة لا ترغب السلطات في اجتماعه بالسفير وبوضع السفير كذلك، دون أن يسعر بأنه تحت رقابة شديدة حتى يعود إلى بلاده دون أن يرى شيئاً أو يطلع على أمر لا تود السلطات كشفه له،[٣] على أن السفير كان يحاول في فترة الاستعداد للمقابلة اكتساب صداقة أصحاب النفوذ والخطوة في البلاد فمن ذلك أن السفير البيزنطي (نقفور أو رايفوس) عندما أوفد إلى بغداد سنة (٩٨٠م) زود بتعليمات تتضحه بخطب ود عضد الدولة أعظم شخصية في الدولة الإسلامية[٤] ذلك أن سفراء الدولتين

١- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١١، ص١٠٠، ١٠٥.
٢- الخطيب البغدادي، المرجع نفسه، ج١١، ص١٠٥.
٣- الطبري، مصدر سابق، ج١١، ص٦٢.
٤- ابن الأثير، مصدر سابق، ج٥، ص٢٥.

الإسلامية والبيزنطية كانوا يعاملون طبقاً للمراسيم معاملة ممتازة، وبوضع للسفير برنامج خاص يقف به على مظاهر العظمة والأبهة في الدولة، ومن الأمور التي اضطلعت بها بعض السفراء التي تبادلتها الدولتان على إعادة النظر في القرارات تفرض على إتباع دين من الأديان من رعاياها اتخاذ سمة خاصة بهم، على أن هذه المعاملة الدينية التي لجأت إليها الدولتان أحياناً لم تقم على نوع من التعصب الديني بين المسلمين والبيزنطيين، وإنما استهدفت كل دولة من وراء هذه القوانين الدينية التي فرضتها خدمة مصالحها السياسية والحصول على امتيازات أدبية، فالمعروف أن أولى الأمر في الدولة الإسلامية في المعاملة الحسنة التي تمتع بها المسيحيون بصفة خاصة، وما وصل إليه كثير منهم من مراتب عالية في الإدارة الإسلامية، كذلك عاملت الدولة البيزنطية الذين وفدوا إليها معاملة ممتازة تكشف عما كانت تكنه للدولة الإسلامية وجالياتها من احترام وتقدير، وهذه السياسة فريدة في تاريخ الدولة البيزنطية الدينية، إذ عاملت الدولة البيزنطية من قبل رعاياها من أصحاب المذاهب الدينية المخالفة لمذهب الدولة الرسمي على أنهم "هرافقة" خارجون على قوانين الدولة ويستحقون أشد أنواع التنكيل والتعذيب.[١]

غير أن هذه السياسة البيزنطية الدينية اتخذت لونا أخر بظهور الإسلام ودخول كثير من المسيحيين في التبعية لها، فاعتبرت الإمبراطورية البيزنطية نفسها القوة المسيحية الكبرى التي وكل إليها رعاية المسيحيين في بلاد المسلمين والدفاع عن مصالحهم، واستعراض بعض هذه الأمثلة النادرة من المعاملة يوضح الملاحظات السابقة وبين مدى ما كانت تهدف إليه من النواحي السياسية البعيدة عن التعصب الديني. فكان المسيحيون طول العصر الأموي موضع عطف الخلفاء ورعايتهم إذ تزوج معاوية من مسيحية على المذهب اليعقوبي، تسمى ميسون، وهمام يزيد خليفة معاوية، وكان الأخطل شاعر البلاط يدخل على معاوية وينشده القصائد والصليب

١- الطبري، مصدر سابق، ج١١، ص٦٥.

يتدلى من عنقه،[١] ويمدنا العصر العباسي الأول بأوضح مثال على أن استخدام الدولة الإسلامية لسياستها الدينية إزاء المسيحيين من رعاياها هدف النيل من الدولة البيزنطية ففي عهد الخليفة هارون الرشيد منحت الخلافة العباسية شرلمان إمبراطور الرومانية في غرب أوربا،[٢] مفاتيح بيت المقدس وحق رعاية شئون المسيحيين بالدولة الإسلامية، فالخلافة العباسية شاهفت الأمويين في الأندلس والدولة البيزنطية، مما دفع الآخرين إلى التآزر فيما يحقق رغباتها، ومن ناحية أخرى وقفت الدولة بالأندلس عدواً للخلافة العباسية وإمبراطورية شارلمان، وإذا كانت الدولة البيزنطية أجابت على هذا التحالف بتبادل السفارات مع الأمويين بالأندلس، فغن هارون الرشيد استطاع باستغلال سياسته الدينية والتقرب من شارلمان أن ينال من سمعه الدولة البيزنطية في وقت ضعف فيه نفوذها كذلك في غرب أوربا، ويعتبر هارون الرشيد كذلك أول خليفة عباسي أعاد استخدام الوسائل المجحفة بالمسيحيين ففي سنة (٨٠٧م) أمر هارون الرشيد بهدم كل الكنائس على الحدود الإسلامية البيزنطية أشبه بما اتبع في عهد عمر بن عبد العزيز، ولعل هذه السياسة ولاسيما هدم الكنائس تعزى إلى اشتداد العداوة بين هارون الرشيد والإمبراطور البيزنطي ورغبة الرشيد في المال سياسته في الحط من شأن الدولة البيزنطية.[٣]

ومهما كان من أمر هذه السياسة التي استغلتها كل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية لتحقيقي بعض الأهداف والمصالح السياسية، فإن الأمر الجدير بالملاحظة والإعجاب هو ابتعاد هذه السياسة عن روح التعصب المذهبي ومحاولة أنصار كل ديانة القضاء على إتباع الديانة الأخرى، وهذا أمر فريد في تاريخ العصور الوسطى التي نعتها بعض المؤرخين بأنها عصور دين وعصور حرب، فتاريخ الدولتين

١- الطبري، مصدر سابق، ج١١، ص٦٦.
٢- زكي محمد حسن، فنون الإسلام.
٣- المقريزي، المواعظ، ١، ص٣٣٦.

الإسلامية والبيزنطية بين أن العصور الأولى عرفت أن الأخوة الإنسانية واجبة رغم اختلاف الديانات والنزعات.

٢,٢- العلاقات بين القوى المتصارعة

أ- علاقة العباسيين مع الفرنجة:

إن موضع العلاقات بين الشرق والغرب والدور الذي لعبته الأراضي المقدسة بفلسطين في تطور هذه العلاقات المهمة، حيث أنها لم تكن مقصورة على الحرب والعداء، بل شملت اتصالات وسفارات ودية وإذا كانت السفارات الخاصة بالعباسيين والبيزنطيين واضحة وصريحة، فإن العلاقات العباسية الفرنجية غلب عليها طابع الاضطراب الغموض، وذلك لصمت المصادر الإسلامية وعدم الإشارة إليها، مما يدعونا إلى التشكيك في حدوثها أساساً، أما المصادر اللاتينية فقد أشار إليها البعض،[١] مما أدى إلى اختلاف المراجع الحديثة حول طبيعة هذه العلاقات، كانت أول سفارة بين العباسيين والفرنجة، تلك التي بعثها الملك بين إلى بغداد سنة (١٤٩هـ-٧٦٥م) وغادرتها بعد أن مكثت ثلاث سنوات مصحوبة بسفراء من الخليفة أبي جعفر المنصور، حاملين معهم هدايا لمقابلة الملك بين وقد أعاد الخليفة هداياهم بعد مقابلتهم الملك، كما سار الخليفة المهدي على سياسة أبيه فيما يتعلق بالفرنجة، فاستمرت العلاقات قائمة بين الطرفين،[٢] وفي ضوء هذه الاتصالات التي عاصرت تبادل البيزنطيين السفارات مع العباسيين، يمكن استبعاد احتمال أن الهدف منها حصول الفرنجة على مساندة العباسيين ضد البيزنطيين، خاصة إذا عرفنا أن البيزنطيين كان لهم في الفترة نفسها سفراء في بغداد، إذ تتحدث المصادر الإسلامية عن وصول سفير بيزنطي إلى بغداد بعد اكتمال بنائها[٣] كذلك وصول سفير بيزنطي عندما تولى

١- فازيليف، مرجع سابق، ص٣٦٣، ٣٦٥.
٢- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٢١٨.
3 -Eznhard the life if chariemagne, tr, by S.E. turner (uni of Michigan Press, 1998) PP 41:(3) 43 .
وأنظر أيضاً:

المهدي الخلافة.[١] ولم يغير شارلمان سياسة أبيه حيث تبادل السفارات الودية مع هارون الرشيد، وقد اكتشفت هذه السفارات الغموض، وانفردت بعض المصادر اللاتينية[٢] بالإشارة إليها واعتماداً عليها قام عدد أخر من المؤرخين بذكر هذه السفارات وبالغوا في تحديد أهدافها بشكل كبير [٣] إذ تذكر أحدى هذه الروايات على سبيل المثال أن شارلمان بدأ بخطب ود الخليفة الرشيد سنة (١٨١هـ-٧٩٧م) فأرسل له وفداً رسمياً يتكون من ثلاثة سفراءهم، لانتفريد "Lantfrid" وسيجموند "sigimund" واسحق التاجر اليهودي الذي يحتمل أن يكون مترجم السفارة، وفي سنة (١٨٤هـ-٨٠٠م) توجه راهبان شرقيان مندوبين عن بطريق بيت المقدس إلى روما ومعها كاهن يدعى زكريا، وحملوا معهم بعض الهدايا لشارلمان منها مفاتيح البر المقدس ورايته وبعض الآثار المقدسة وفي سنة (١٨٥هـ-٨٠١م) أرسل الخليفة سفارة تتكون من مبعوثين أحدهما فارسي والآخر عربي، وقد أخبر السفيران شارلمان بوصول سفارته الأولى التي يرجح أنها وصلت بغداد قبل أن تغادر السفارة العباسية ووفاة اثنين من أعضاء السفارة ونجاة التاجر اليهودي الذي غادر بغداد بعد أربع سنوات يحمل معه هدايا متمثلة في عطور ومنتوجات شرقية قيمة، وكذلك الفيل المعروف بأبي العباس وهو الفيل الوحيد الذي يمتلكه الرشيد، وفي سنة (١٨٦هـ-٨٠٢م) أرسل شارلمان سفارة أخرى يرأسها سفير يدعى رادبيرت "Radbert" لكنه مات أثناء رحلته في الطريق وفي سنة (١٩٠هـ-٨٠٦م) أرسل الخليفة ثلاثة مندوبين: أحدهم من المسلمين والآخران راهبان اختارهما بطريق بيت المقدس حملوا معهم هدايا نفيسة إلى شارلمان منها ساعة مائية عجيبة كانت الأولى من نوعها في أوربا.[٤]

-. Einhard and Notker, the stammere, Two lives of char lemagne with tr, by l.thorp (penguin Books, 1969). PP7:71

١- ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص١٤-١٥.
٢- ابن الخطيب، مصدر سابق، ج١، ص٩١.
٣- اينهارد، سيرة شارلمان، حققه: عادل زيتون، ط١، دمشق، دار حسان للنشر، ١٩٨٩، ص١٠٤- ١٠٥.
٤- عزيز موريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، تحقيق: فيلب صابر سيف، القاهرة، دار الثقافة ١٩٧٢، ص٢٤- ٢٥.

ويمدنا العصر العباسي الأول بأوضح مثال على أن استخدام الدولة الأساسية لسياستها إزاء المسيحيين من رعاياها هدف إلى النيل من الدولة البيزنطية ففي عهد الخليفة هارون الرشيد منحت الخلافة العباسية شارلمان إمبراطوراً للدولة الرومانية في غرب أوربا[١] مفاتيح بيت المقدس وحق رعاية شئون المسيحيين بالدولة الإسلامية وتعزى هذه الصداقة بينهما إلى الأحوال السياسة سادت العالم حينذاك، فقد انقسم الميدان السياسي في العصور الوسطى في القرن التاسع الميلادي إلى معسكرين، الخلافة الأموية بالأندلس تعادي إمبراطورية شارلمان التي ظهرت في أوربا وهكذا دفعت المصالح كل فريق من هذه القوى الكبرى إلى أن يتقرب إلى الفريق الذي يحقق مصالحها ويقلق راحة أعدائه.

وكانت القسمة طبيعية أملتها الملابسات والأوضاع الزمنية فالخلافة العباسية ناهضت الأمويين في الأندلس والدولة البيزنطية، مما دفع الأخيرين إلى التآزر فيما يحقق رغباتهما، ومن ناحية أخرى وقفت الخلافة الأموية بالأندلس على أن يعقد بينهما أواصر الصداقة والتحالف.

وفعلاً تبادل الخليفة هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان فيما سنتي (٧٩٧، ٨٠٦م) السفراء والهدايا، وإذا كانت الدولة البيزنطية أجبت على هذا لتحالف بتبادل السفارات مع الأمويين بالأندلس فإن هارون الرشيد استطاع باستغلال سياسته الدينية والتقرب من شارلمان أن ينال من سمعة الدولة البيزنطية في وقت ضعف فيه نفوذها كذلك في غرب أوربا،[٢] ذلك أن تتويج شارلمان إمبراطور أو إحياء الإمبراطورية الرومانية في غرب أوربا جاء لطمة قاسية بسمعة الدولة البيزنطية التي اعتبر أباطرتها أنفسهم الممثلين الحقيقيين لتراث الدولة الرومانية الكبرى، ويعتبر هارون الرشيد كذلك أول خليفة عباس أعاد استخدام الوسائل المجحفة بالمسيحيين، ففي سنة

١- غزير موريال، مرجع سابق.
٢- الطبري، مصدر سابق، ج١٠، ص٦١.

(٨٠٧م) أمر هارون الرشيد بهدم كل الكنائس على الحدود الإسلامية البيزنطية، وفرض على المسيحيين اتخاذ زي خاص بهم،[١] أشبه بما اتبع في عهد عمر بن عبد العزيز ولعل هذه السياسة ولاسيما هدم الكنائس على الحدود تعزى إلى اشتداد العداوة بين هارون الرشيد والإمبراطور البيزنطي نقفور الأول، ورغبة الرشيد في إكمال سياسته في الخط في شأن الدولة البيزنطية، على أن هذه السياسة لم تدم طويلاً إزاء المسيحيين، واستعادت الدولة البيزنطية مكانتها باعتبارها حامية شئون المسيحيين في الدولة البيزنطية، ذلك أن إمبراطورية شارلمان اضطربت بعد وفاته واضمحلت سطوتها وتركت الجو خالياً للدولة البيزنطية مرة أخرى،[٢] ونهض دليلاً على رعاية الدولة البيزنطية المهيمنة للمسيحيين وما كان لجاليتها كذلك من الدولة الإسلامية أنه أطلق علي حي المسيحيين في بغداد اسم "دار الروم".

على أن الاختلافات المذهبية المسيحية من رعاياها الدولة الإسلامية لعبت دورها أحياناً في التقليل من هذا النفوذ البيزنطي، ويرى البعض أن هذه السفارات قد حققت للأسباب التالية:ـ

١ـ محاولة العباسيين إقامة علاقات ود وصداقة مع الفرنجة، للقضاء على البيزنطيين، ومناواة الأمويين في الأندلس الذين ساء العباسيين قيامهم في ذلك الجزء ونجاحهم في الحفاظ على استقلالهم.[٣]

٢ـ التقاء رغبة العباسيين مع رغبة شارلمان، الذي كان يحاول إضعاف الدولة الأموية في الأندلس والقضاء عليها، حتى يضم الإجراء الشمالية منها لدولته.[٤]

٣ـ رغبة شارلمان في الحصول على امتيازات للحجاج الغربين في فلسطين وبالتالي بسط الحامية الفرنجية على بيت المقدس.[٥]

١ـ الطبري، المصدر نفسه.
٢ـ الطبري،المصدر نفسه.
٣ـ جميل المدور، حضارة الإسلام في دار السلام، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٣٢، ص٢٢٧ـ٢٢٨.
٤ـ حسان حلاق، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، الدار الجامعية، ١٩٨٦، ص٧٧.
٥ـ شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٣، ص١٦٣.

ولكننا لا نتفق مع هذه الآراء لأننا لم نعثر للأسف في المصادر الإسلامية على معلومات تفيدنا في هذا المجال لذلك فإننا نشك في حدوث مثل هذه الاتصالات وسنحاول هنا مناقشة هذه الآراء:-

١- بالنسبة لبيزنطة ورث العباسيون عن أسلافهم عداواتهم لها، ووجودا أنفسهم مساقين في غمرة الصراع التقليدي، الذي فرضته الحدود المشتركة والاختلاف في العقيدة والمصالح الاقتصادية، وقاد من أجله الخلفاء العباسيون الأوائل الحملات الحربية بأنفسهم، إذ كان المسلمون أصحاب المبادرة في هذه الحروب ولم يكن هذا الصراع حدثاً طارئاً حتى يضطر فيه الرشيد إلى التحالف مع شارلمان، ثم أن الرشيد كان هو المنتصر في هذه الفترة حتى أجبر أباطرة بيزنطة جميعاً تقريباً على أن يؤدوا مبلغاً من المال لخلفاء بغداد فمثلاً نجد قسطنطين الخامس أقدر حكام البيت الأيوري مجبراً سنة (١٥٦هـ-٧٧٢م) على دفع مبلغ من المال لتأمين حدوده الشرقية، ثم تجددت الأتاوة زمن إيرين سنة (١٦٦هـ-٧٨٢م) عند تحرك الجيش الإسلامي عبر الأناضول قاصداً البسفور، كذلك سنة (١٨١هـ-٧٩٨م) عندما بلغت جيوش المسلمين مدينة أفوس، كما أجبر نقفور الأول على دفع أتاوة سنة (١٩١هـ-٨٠٦م) عندما بلغ الجيش الإسلامي مدينة هرقلة.[١]

٢- أما فيما يخص موضوع الأمويين في الأندلس وموقف الرشيد المهادي لهم ورغبته في القضاء عليهم، نقول ربما لقيت الحملة التي قام بها شارلمان بالتحالف مع سليمان بن يقظان حاكم برشلونة ولاحسين بن يحي بن سعيد الأنصاري وإلى سرقسطة، ارتياحاً من قبل الرشيد لأنها تشغل الأمويين عن

١- ارشيبالد ر.لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ت: أحمد محمد عيسى، القاهرة، مؤسسة فرانكلين للنشر، ١٩٦٠، ص١٧١- ١٧٢.

محاولة التطلع نحو شمال إفريقيا والمشرق الإسلامي،[١] لذلك منح العباسيون الأغالبة في تونس استقلالاً ذاتياً ليجعلوا منهم ولاية حاجزة لأعدائهم في المغرب والأندلس، فهل من المعقول أن يفكر الرشيد في استرجاع الأندلس في وقت اضطر فيه التخلي عن سلطته الحقيقة في تونس التي انفصلت عن جسم الدولة رغم اعترافها بسلطة الخليفة، إن سياسة الدولة العباسية لم تكن تهدف إلى التوسع بقدر ما كانت تهدف إلى الاحتفاظ بما في حوزتها من ممتلكات، لأن انتقال عاصمة الدولة الإسلامية من دمشق إلى بغداد، جعل من شواطئ البحر المتوسط بمثابة حدود ونهايات للدولة ينبغي الدفاع عنها لأبواب وثغور يقفز منها إلى ما وراء البحر من بلدان،[٢] وبالتالي قل اهتمام العباسيين بالأسطول البحري ثم إن الدولة العباسية كان عليه بذلك الجهود لتأمين حدودها خاصة أنها امتدت في فترة خلافتهم من حدود الصين ووسط الهند شرقاً على أفريقيا غرباً، ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والبيزنطيين شمالاً، لذلك التزمت الدفاع واهتمت بإنشاء الأنظمة الداخلية وتقوية الدولة والإبقاء عليها أكثر من العمل على التوسيع رقعتها بخاصة بعد فقدان الأندلس.

٣- أما النقطة الخاصة بحماية بيت المقدس فإنه من المستحيل أن يمنح الرشيد شارلمان حق حماية بيت المقدس لأنها كانت وما تزال ذات أهمية دينية وسياسية بالغة بالنسبة للمسلمين بصفة عامة، فاهتم بها الخلفاء العباسيون اهتماماً متميزاً حيث زاروها وأصلحوا مساجدها، حتى وإن كان المنح قد حصل فعلاً فهو تعبير عن المودة والتسامح الديني وهي عادة ما تزال إلى اليوم متبعة بين الدول ولا تعني على الإطلاق التنازل المادي عن مدينة أو دولة أو عن أية امتيازات سياسية، ويرى بعض المؤرخين أن فكرة حماية الأماكن المقدسة فكرة يصعب

١- عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ج٢، بيروت، دار الكتب، ١٩٥٦، ص٣٨١.
٢- مؤنس، تاريخ المسلمين، ص٥٦.

قبولها إذا قسناها بمقاييس السياسة الحديثة، ولكنها تصبح شيئاً عادياً إذا تقرب القرن الثاني الهجري "الثامن الميلادي".

إن مغالات المؤرخين في تفسير هذه العلاقات أدت بهم إلى تجاهل سياسة الرشيد الدينية، ففلسطين كانت أغلى من أن تعطي، وهو ما أثبتته الأحداث خلال القرنين التاليين عندما حاول الصليبون الاستيلاء عليها في زمن ضعفت فيه قوة المسلمين، حيث واجه الصليبيون مقاومة عنيفة. [١]

فمن غير المعقول أن يحدث العكس في عصر القوة "أي عصر الرشيد" إن هذا الافتراض لا يصمد أمام النقد الموضوعي، ذلك أنه لا يمكن لخليفة يصلي في اليوم مائة ركعة ويحج سنة ويغزو سنة أخرى أن يتنازل لعاهل مسيحي عن بيت المقدس، إن هذه الخطوات على حق قول رانسيمان[٢] ابتكرها اينهارد ليرفع من جاه إمبراطور "شارلمان" وقد أيده بعض المؤرخين الأوربيين حتى يؤكدوا أن المسلمين تنازلوا في أو أوج قوتهم وعزهم وسمحوا للمسيحيين بحماية بيت المقدس، ولكي يتخذها الاستعمار الحديث دليلاً للاقتداء بها في تثبيت أقدامه في فلسطين بخاصة والمنطقة العربية بعامة، وبما يعزز ما ذهبنا إليه هنا أن الرشيد تراجع عن فكرته في شق قناة تربط البحرين "المتوسط والأحمر" عبر برزخ السويس من أجل تعزيز العلاقات التجارية بين الشرق والغرب، لأنه رأى في ذلك خطراً على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وربما استغل البيزنطيون هذا الطريق في إرسال حملاتهم ومد نفوذهم إلى هذه المنطقة المقدسة،[٣] فإذا كان الرشيد ألغى هذا المشروع حرصاً وخوفاً منه على المقدسات الإسلامية فكيف لنا أن نقبل الرأي القائل بتنازله عن بيت المقدس، إن هذه الأسطورة التي نسجها اينهارد بعيدة كل البعد من وجهة نظرنا عن الموضوعية حيث امتزجت روايته بالأوهام والمغالطات لكنه كشف لنا وربما دون أن

١- مجدي خدوري، الحرب والسلم في شرعة الإسلام، ط١، بيروت، الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٣، ص٢٣٢.
٢- ستيفن رانسمان، تاريخ الحملات الصليبية، ت: السيد الباز العريني، ج١، ص، بيروت، دار الثقافة ١٩٦٧، ص٤٩.
٣- جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، حققه: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤، القاهرة، مطبعة الفعالة، ١٩٦٩، ص١١٢.

يقصد عن الجذور المبكرة للحركة للصليبية، إن القول بوجود اتصالات وأحلاف بين الرشيد وشارلمان أمر بعيد الاحتمال، ولكن هذا الاتصال الدبلوماسي إن وجد فإنه لم يأخذ شكلاً من أشكال التحالف الحربي، ولم يخرج عن حدود الود وحسن الصلات وربما يكون قد طلب من الخليفة حماية الحجاج والتجار الأوربيين الذين يزورون الأماكن المقدسة، وإن يسمح له بإرسال الصدقات إلى كنيسة القيامة من باب التسامح الديني فقط، وقد جاءت هذه الاتصالات من وجهة نظرنا من طرف شارلمان الذي اتصل بالرشيد بغية تحقيق أهداف اقتصادية وليس كما يزعم البعض من أن الرشيد هو البادئ بهذه الاتصالات، وأنه مدين بشهرته لاتصاله بالغرب،[١] ودليلنا على ذلك أن الرشيد اشتهر، لأنه كان أعظم الخلفاء في العصر العباسي، بفضل سياسته الداخلية والخارجية، إذ بلغت أوجها وأقصى اتساعها ووصلت إلى درجة عالية من الرخاء والتقدم فكان عصره تجسيداً لحالة القوة التي كانت عليها الخلافة العباسية حيث أصبحت مرهوبة الجانب ذائعة الصيت ففاقت قرطبة في الأندلس، وناقشت القسطنطينية عاصمة بيزنطة، وقد يقول البعض أن المانح هو بطريق بيت المقدس بصفته رئيسي الجالية المسيحية في فلسطين، فإننا نرى أن البطريق لا يمكنه أن يجري اتصالات سياسية من شارلمان دون علم الخليفة لكن ربما كانت للبطريق صلات ودية مع شارلمان هدف من ورائها تدعيم الكنيسة في الشرق معنوياً ومادياً ومما يؤكد ذلك أن شارلمان أرسل بعد هذه السفارات صدقات إلى فلسطين استعملت في تعمير بعض الكنائس وأنشأ منزلاً للحجاج باسمه كما أنشأ لهم مكتبة ومستشفى.[٢]

وخلاصة القول: أننا نؤيد أراء بعض المؤرخين في أن هذه العلاقات والاتصالات كانت تجارية[٣] وذلك لعدة أسباب منها:-

١- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ت: منير البعلكي وآخرون، ط٥، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٨، ص١٨٥.
٢- مؤنس، تاريخ المسلمين، ص١٤٢.
٣- فاروق عمر، بحوث في التاريخ العباسي، ط١، بيروت، دار القلم، ١٩٧٧، ص١٩٤. انظر أيضاً: د.أ.بليايف، العرب والإسلام والخلافة العربية، ت: أنيس فريحة، ط١، بيروت، الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٣، ص٣٩٢.

١- سيطرة بيزنطة على المسالك البحرية بين الشرق الغرب، حيث شكلت أكبر قوة بحرية في مياه البحرين "المتوسط والأسود" وسيطرت إلى حد كبير على الجزر البحرية مثل صقلية وقبرص وسردينيا وغيرها، وتحكمت في المضايق ذات القيمة الحربية الواقعة على طريق التجارة بين الشرق والغرب وصار إشرافها البحري دقيقاً بفضل قيام أسطولها بدورات تفتيشية على سواحل الأعداء(١) وما محاولة شارلمان إنشاء أسطول بحري في البحر المتوسط ومد نفوذه في جزر البليار وسردينيا وجنوب إيطاليا، ومحاولته السيطرة على البندقية وإيستريا ودالماثيا الأجزاء من الخطة التي استهدفت التخلص من الرقابة البيزنطية على التجارة والسيطرة على مصادر الثروة التجارية التي حرمت منها بلاده.(٢)

٢- لقد كان شارلمان في حاجة إلى السلع الشرقية، لأنه كان يسعى إلى تحقيق الرفاهية لشعبه فريط بين هذه الرفاهية وبين ازدهار النشاط التجاري، وسعى إلى النهوض بذوقيات المائدة والملبس، إذ كان يرى الإنسان يمكن أن يكتسب هذه المزايا عن الآخرين من خلال ممارسة النشاط التجاري مع المشرق الإسلامي خاصة، مما يؤكد لنا رغبة في إقامة علاقات تجارية حديثة مع مبعوثي الخليفة هارون الرشيد، حيث عبر عن أعمق مشاعر الأسف لتجني الظروف الطبيعية على دوليتها بوجود بحر فاصل بينهما يحول دون عجلة التلاقي مع المشرق ودويلاته، ولعله كان يقصد من وراء هداياه التي كانت عبارة عن منسوجات متنوعة الألوان والأشكال غمر المشرق بها بعد أن تجد رواجاً في بلاط الخليفة.(٣)

٣- ربما كان أصحاب هذه السفارات تجاراً أدعوا أنهم سفراء لتسهيل مصالحهم التجارية، ومما يدعونا لوصفها بأنها كانت اتصالات تجارية اشتراك التاجر

١- لويس، مرجع سابق، ص١٥٨.

٢- لويس، المرجع نفسه، ص١٦٧.

٣- ف. هايد، تاريخ التجارة في المشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت: أحمد محمد رضا، ج١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٥، ص١٠٦.

اليهودي "أسحق" في هذه السفارات، ومما يؤكد لنا ذلك أن التجار اليهود كانوا في هذه الفترة حلقة الوصل بين الشرق والغرب وهم الذين أشار إليهم ابن خرداذبه باليهود "الراذانية" الذي يتقنون عدة لغات ويتاجرون بين والأقطار الإسلامية.[١] واستمرت السفارات الودية بين الدولتين حتى عصر المأمون الذي أوفد سفارة إلى الإمبراطور لويس التقي بن شارلمان سنة (٢١٦هـ-٨٣١م) وقد كانت علاقاتهما استمراراً لعلاقة سلفيهما الرشيد وشارلمان.[٢]

<u>ب- السفارات المتبادلة بين الأمويين في الأندلس وبيزنطة في العصر العباسي:</u>

إن موضوع السفارات المتبادلة بين البيزنطيين والأمويين في الأندلس يعد العنصر الثاني في موضوعنا، وبفضل ما لدينا من معلومات يمكننا أن نعطي صورة واضحة عنها، حيث أنهه المعلومات تتخلص في أن الإمبراطور ثيوفيل أرسل (٢٢٥هـ-٨٣٩م) سفارة إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط برئاسة سفير يدعى قراطيوس "Kartiyus" حمل معه هدايا ورسالة رسمية، يطلب فيها من الأمير عقد معاهدة لتحديد الصداقة القديمة بين الدوليتين كما ورد فيها إغراء الأمير باسترجاع ملك أجداده بالمشرق "الشام" كما توضح الرسالة تذمر الإمبراطور من أعمال المأمون والمعتصم، حيث أطلق عليها ابني مراحل وماردة تحقيراً لها بالانتساب إلى امتين كانتا لهارون الرشيد، وفي الوقت نفسه تضمنت شكواه احتلا الريفيين جزيرة كريت.[٣]

وقد استقبل الأمير عبد الرحمن السفير استقبالاً حافلاً حسب ما تقتضيه الأصول، وعلى الرغم من أن الأمير لم يبدأ اهتماماً بالغاً بالأسباب التي جعلت

١- ابن خرداذبه، مصدر سابق، ص١٥٣.
٢- سليمان ضفيدع الرحيلي، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة، الرياض، دار الهدى للنشر، ب-ت، ص٥٤.

٣- أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه إحسان عباس، ج١، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨، ص٢٤٦.
- أنظر أيضاً: نقولا زيادة، لمحات من تاريخ العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦١، ص١٥٤.

الإمبراطور ثيوفيل يطلب العون منه فإنه رأي أن من واجب اللياقة الرد على رسالته، فكلف شاعرة يحي بن الحكم الغزال يحمل جوابه مع مجموعة من الهدايا القيمة،[١] ويبدو من هذا الرد أن الأمير كان شديد الحذر في مخاطبة الإمبراطور فعلى الرغم من كراهيته العباسيين الذين قضوا على نفوذ الأمويين في الشام فإنه لم يعد الإمبراطور بالقيام بأي عمل حربي ضدهم، وإنما أظهر عطفه ووده لبيزنطة.

وسنحاول مناقشة الأهداف التي سعى الإمبراطور البيزنطي إلى تحقيقها من وراء مخالفة مع الأمير من خلال هذه السفارة:

١- على الرغم من إغراء الإمبراطور ثيوفيل للأمير الأموي بإمكانية استعادة ملك أجداده في الشرق "الشام" فإننا نجد أن الأمويين في تلك الفترة لم تكن لهم أهداف توسعية بقدر ما كانوا يسعون إلى الاحتفاظ بدولتهم، خاصة أنهم كانوا يشعرون بتهديد العباسيين طوال عصرهم الأول، فقد أرسل الخليفة أبو جعفر المنصور سنة (١٤٦هـ-٧٦٣م) العلاء بين مغيث اليحصبي على رأس حملة إلى الأندلس، لكنها فشلت حيث قتل قائدها،[٢] وفي عصر الخليفة المهدي أراد الأمير عبد الرحمن الداخل أن يثأر من العباسيين فجهز سنة (١٦٣هـ-٧٧٩م) حملة ضدهم، لكنه تراجع عنها لانشغاله بالثورة التي قام بها سليمان بن يقطان والحسين بن يحي الأنصاري،[٣] كما أرسل الأمير عبد الرحمن الداخل كتاباً يندد فيه بالعباسيين ويفضح مثالبهم فاستدعى الخليفة المهدي هشام الكلبي وكانت كتاب السر، الذي أملى عليه هشام مثالب الأندلس وعرضها على المهدي فر بها وأمر بإرسالها إلى الأندلس،[٤] وعزم الخليفة المعتصم في فترة خلافته على السير

١- المقري مصدر سابق، ج١، ص ٣٤٦.
- أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي، حدوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، حققه محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، الثقافة الإسلامية للنشر، ١٩٥١، ص٣٥١، انظر المحلق رقم (٣) ص ١٢٣.

٢- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، حقق ج، س، كولات و أ. ليفي بروفال، ج٢، بيروت دار الثقافة، ب- ت، ص٥٢.
٣- ابن الأثير، مصدر سابق، ج٦، ص٦٢.
٤- الطبري، تاريخ الأمم، ج٨، ص١٧٢-١٧٣.

لغزو الأندلس قائلاً:-((إن بني أمية ملكوا وما لأحد منا ملك وملكنا نحن ولهم بالأندلس هذا أموي))[١] وبدأ في إعداد الحملة وتجهيزها لكنه مات،[٢] ومع ذلك يمكننا القول أن العباسيين لم يكن في نيتهم القضاء على الأمويين في الأندلس وكانوا يقصدون فقط تخويف الأمويين بتلك الحملات وإرهابهم حتى لا يفكروا في مد نفوذهم نحو الشمال الإفريقي، كما أن الأمويين لم تكن لديهم فكرة غزو الشرق واستعادة عرش الخلافة بدليل أنهم اعتبروا الدولة التي أسسوها في الأندلس ولفترة قرنين من الزمان، إمارة فقط.

٢- أما جزيرة كريت فقد وقعت في قبضة جماعة من الأندلسيين وهم ما يسمون "بالريفيين" الذين أمر الحكم الأول سنة (٢٠٢هـ-٨١٨م) بنفيهم إثر قيامهم بثورة في حي الريف فسميت الثورة باسمهم[٣] وخرجوا بنسائهم وأولادهم بحراً إلى مصر واستولوا على الإسكندرية، لكن الخليفة المأمون أمر عبد الله بن طاهر بإخراجهم فطردهم سنة (٢١٠هـ-٨٢٥م) فأبحروا إلى جزيرة كريت، واستولوا علياه من أيدي البيزنطيين دون أية مقاومة،[٤] ولذلك ذكر الأمير عبد الرحمن في رده إلى الإمبراطور أن هؤلاء لم يعودوا من رعاياه وأنهم ثوار خونة، فلا يسأل عما يفعلون، ويبيح للإمبراطور ثيوفيل طردهم بقوة السلاح، ثم يبدي دهشته من عدم تمكن الإمبراطور من إخراجهم من بلاده.

٣- إن هزيمة الإمبراطور ثيوفيل في عمورية لم تكن السبب الرئيس في إرساله السفارة لذلك فإننا نرجح أن السبب هو محاولة ثيوفيل إقامة حلق بين دول غرب أوربا لمواجهة التوسع الأغلبي الإسلامي في جزر البحر المتوسط والقضاء على النفوذ الإسلامي في أهم جزيرتين: كريت، وصقلية، ثم أننا نتساءل منذ متى كان الأمويون أصدقاء للبيزنطيين حتى يسعوا لتجديد الصداقة القديمة، وهل كان

١- السيوطي، مصدر سابق، ص٣٦٣.
٢- السيوطي، مصدر سابق، ص٣٦٣.
٣- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الأبار، الحلة السيراء، حققه حسين مؤنس، ١، ط١، القاهرة، الشركة العربية للنشر، ١٩٦٣، ص٤٤-٤٥.
٤- المصدر السابق نفسه، ج١، ص٤٥، وانظر أيضاً: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار العرب، حققه محمد سعيد العريان ومحمد العلي، ط١، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٤٩، ص١٩-٢٠.

العباسيون كفاراً حتى يتحالف الأمويون ضدهم، لقد شهدت العلاقات الأموية البيزنطية منذ منتصف القرن الأول الهجري، منتصف القرن السابع الميلادي صراعاً متأرجحاً بين النصر والهزيمة، إذ لم يكد الإمبراطور هرقل ينتهي من القضاء على خطر الفرس حتى التفت لمواجهة الدولة الإسلامية التي بدأت الاعتماد على وقتها الحربية وبخاصة البحرية[١] إذ يرجع إلى الدولة الإسلامية الأموية عامة ولمعاوية بن أبي سفيان خاصة عندما كان والياً على الشام من قبل أميري المؤمنين عمر ابن الخطاب وعثمان ابن عفان فضل السيطرة على البحر المتوسط، بعد أن كانت البحرية البيزنطية هي القوة الوحيدة فيه، حيث تمكن معاوية من غزو جزيرة قبرص سنة (٢٩هـ-٦٤٩م)[٢] كما تمكن عبد الله بن سعد بن أبي السرح والي مصر من تحقيق نصر كبير على البيزنطيين في موقعة ذات الصواري سنة (٣٤هـ-٦٥٥م) وهي التي وضعت نهاية السياسة البيزنطية البحرية،[٣] وبهذا نجد أن الجبهة البيزنطية استأثرت باهتمام خاص في عصر الأمويين وظلت القسطنطينية هدفهم الأول، وكان أخر محاولتهم للاستيلاء عليها سنة (٩٩هـ-٧١٧م) فهي أساس مخططاتهم لسياسة الجهاد ضد البيزنطيين ومن أجل ذلك وضعوا الأسس الأولى لنظام الحرب في آسيا الصغرى وهو النظام الذي عرف باسم المصايف والمشاتي، والذي أصبح في فترة إعادة ملكهم، فلماذا لم يستغلوا فرصة انشغال الأغالبى، التابعين للعباسيين في حروبهم البحرية ضد الممتلكات البيزنطية في جزر البحر المتوسط، فقد كان بإمكانهم استغلال هذه الفرصة وضرب العباسيين أو مد نفوذهم إلى الشمال الإفريقي لكننا نجدهم عكس ذلك فقد تمكن الأغالبة بفضل مساعدتهم (الأمويين) من محاصرة مدينة بالرمو "Palermo" هذه سنة واستولوا عليها سنة (٢١٤هـ-٨٣٠م) وأصبح هذا الميناء

١- البلاذري، المصدر السابق، ج١، ص٢٨٧، ٢٧٩.

٢- المصدر نفسه، ج١، ص١٨٠- ١٨١.
٣- البلاذري عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، حققه: عبد المنعم عامر، ج١، القاهرة، لجنة البيان العربي، ١٩٦١، ص٢٥٥-٢٥٦.

الاستراتيجي فيما بعد قاعدة للعمليات الحربية ضد المدن الباقية لجزيرة صقلية التي استولى عليها الأغالبة سنة (٢٢٦هـ-٨٤٠م). [١]

وهكذا نستنتج أن مساعدة الأمويين للأغالبة لم تكن ناتجة عن أهدف مادية، لكنها كانت ذات صبغة دينية، فالجهاد كان من أقوى الدوافع عند المسلمين فبالإضافة إلى أنه إعلاء لكلمة الله ونشر راية الإسلام، فإنه فرض أيضاً لحامية حدود الدولة الإسلامية وذلك بمرابطة القوات في المرافئ والثغور لأغراض الدفاع إذ يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ((**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ**))[٢] ولذلك لم يكن جهاد الأمويين في الأندلس إلا لحامية حدود الدولة الإسلامية، سواء في الشمال الإفريقي أم عند حدود الأندلس التي تمثل الحد الغربي للإسلام والتي كانت عرضه لهجوم القوات المسيحية، لهذا شدد المسلمون الدفاع عن حدودهم لأن ذلك من أهم الواجبات المرتبة على المسلمين، وتحول الموقف لصالح المسلمين في السنتين الأولى من حكم ثيوفيل إذ وصل المهاجمين أسطول أندلسي وأخر أفريقي سنة (٢١٥هـ-٨٣٠م).

ولكن انتشر المرض في الجيش الإسلامي وعاد عرب الأندلس إلى بلادهم، بينما حاصر عرب أفريقيا بلرم فاستولوا عليها ويقول فازيليف: ((كان فتح بلرم أمراً هاماً أكسب العرب قاعدة قوية تمكن الاعتماد عليها في فتح سائر المدينة، وكانت أحداث (٢١٦هـ-٨٣١م) تفسر لم قدم ثيوفيل بعد انتصاره في طرسوس والمعيصة على مصالحة المأمون))[٣] ولم يتبع نصر المسلمين في بلرم حدث هام مدى سنتين، لانشغال المسلمين بتنظيم فتوحاتهم.

---

1 - C. H. Knueger. ((the ltaline and the Arabs before 1095)) in history of the Grusads Ed by N. W. Baldwin, Vol 1,. ((the uni of Wisconsin press 1969)) P 94.

٢- سورة الأنفال، الآية (٦٠).
٣- فتحي عثمان، الحدود، ج٢، ص١٩١.

وتتابعت بعض الانتصارات للجيش الإسلامي حول قصر بأنه وفي سنة (٢٢١هـ-٨٣٦م) غزا المسلمون إقليم اتنا (جبل النار) وفي سنة (٢٢٢هـ-٨٣٧م) سجل البيزنطيون انتصارهم في الجهة الشرقية في زبطرة وفي صقلية ارتد المسلمون عند كفالو ومات زياد الله وتوقف الهجوم الإسلامي، لكن المسلمين ما لبثوا أن انتصروا في عمورية في العام التالي، ثم أخذت تتساقط في أيدي المسلمين مدن في داخل صقلية حتى صار القسم الغربي من الجزيرة في يد المسلمين في آخر أيام ثيوفيل.[١]

كما كان تذمر الإمبراطور ثيوفيل من معاناة دولته في حروبها مع العباسيين زمن المأمون والمعتصم سبباً في إرساله هذه السفارة وذلك لأن ثيوفيل أصبح غير قادر على مجابهة الأغالبة في ممتلكاتهم البحرية في الغرب والعباسيين على حدوده الشرقية، لذا فكر أن يستنجد بالأمير عبد الرحمن ويحثه على مهاجمة العباسيين كي يشغلهم عن غزو بيزنطة، وذلك يفتح جهة جديدة لهم، فالسفارة التي أرسلها الإمبراطور إلى الأمويين لم تكن الوحيدة، بل إن هناك سفيرين آخرين أرسلهما في الفترة نفسها التي أرسل فيها سفيره إلى الأندلس.

أوفد أحدهما إلى مدينة "انجلمام" "Ingetheim" حيث يوجد بلاط لويس الثاني سنة (٢٢٥هـ-٨٣٩م) والثانية إلى البندقية سنة (٢٢٦هـ-٨٤٠م) وكانت الغاية منهما إقامة تحالف مع الفرنجة والقيادقة والأمويين في الأندلس ضد الأغالبة في أفريقية[٢] الذين يهددون الممتلكات البيزنطية البحرية حيث استولى الأغالبة على مدينة تارنتوم التي كانت تابعة للدوق اللومباردي بينفتو "Benevento" ومن هناك تابعوا غزواتهم فاستولوا على كالايريا وأبوليا ومدنية باري "Bari" التي استغلت فيما بعد قاعدة أدرياتاكية للعمليات الحربية مدة ثلاثين سنة، كما أوقع المسلمون هزيمة بأسطول البندقية الذي أبحر إلى خليج تارنتوم وأنزلوا هزيمة أخرى بجيش لويس الثاني موانئ

١- فازيليف، مرجع سابق، ص .
٢- أ. ليفي بروفال، الإسلام في المغرب والأندلس، ت: السيد محمود عبد العزيز سالم، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٥٦، ص٩٩.

جزيرة صقلية قاعدة لسفن العرب المسلمين، التي كانت تقوم بالغزوات على شواطئ إيطاليا وجنوب فرنسا والجزر الواقعة غربي البحر المتوسط،[١] وعلى هذا كان الدافع الحقيق للإمبراطور ثيوفيل هدوء مواجهة الخطر الإسلامي الأمر الذي جعله يرسل من أجل ذلك عدة سفارات وقد استجابت البندقية لسفارته لأنها كانت تخشى النفوذ الإسلامي، ولذلك أرسلت أسطولاً بحرياً يتكون من ستين سفينة لاسترجاع مدينة تارنتوم كما تعاون الملك لويس الثاني ودوق مدينة تارنتوم ومدينة سرقوسطة "Syrcuse" سنة (٢٣٢هـ-٨٤٦م) ضد المسلمين وتمكنوا من حصر نفوذهم في مدينة باري، ولم يقضوا قضاءً نهائياً إذ استقر المسلمون في المناطق الساحلية وشيدوا عيها الأسوار والأبراج واتخذوها قواعد للإغارة على الأراضي الداخلية، فتوالت غاراتهم على مونتي كاسينو "Monti cassion" وسان فينسيترو "San Vincenzo".[٢] والأرجح أنه هذه السفارات كانت ودية تدور في إطار حضاري وسياسي بين مدينة القسطنطينية وقرطبة التي لم تكن لتردد في التوجه إلى أي مركز من مراكز الثقافة العالمية بخاصة في عصر عبد الرحمن الأوسط الذي بلغت قرطبة في عصره درجة كبيرة من الاستقرار والانفتاح الفكري.[٣]

إن ما طرحناه في هذا الفصل من تطور للعلاقات بين الدولتين تمثل في الاتصالات الدبلوماسية والسفارات بينهما التي كانت تحدث عندما يشتد الفراغ وكان الغرض منها هدنة الوضع ومحاولة الوصول إلى اتفاق أو هدنة أو فداء الأسرى، كما أن هناك السفارات التي كانت بجانب مهامها الظاهرة، تقوم بنشاطات تجسيمية وتجارية وثقافية، وسياسية كان لها دورها الواضح في تطور العلاقات بين الدولتين وبخاصة الثقافية التي ساهمت بدورها في تطور العلاقات السليمة وهذا سيكون محور دراستنا في الفصل القادم.

1 - Krueger op, Vol 1, P47.

2 - Krueger op, Vol 1, P48.

٣- إبراهيم بيضون، الدولة العربية في أسبانيا، ط٣، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٦، ص٢٥٠.



العلاقات الثقافية بين الدولتين العباسية والبيزنطية

<u>٣,١- العلاقات الثقافية بين الدولتين العباسية والبيزنطية</u>

أ- مراكز الاتصال الثقافي.

ب- الاتصال الثقافي عن طريق بعض الأسرى.

<u>٣,٢- السفارات العلمية بين الدولتين العباسية والبيزنطية</u>

أ- تبادل العلوم والعلماء.

ب- الرحلات العلمية بين الدولتين العباسية والبيزنطية.

<u>٣,٣- تأثير الصراع الحربى فى الحياة الثقافية للدولتين</u>

أ- التأثيرات الأدبية.

ب- الجدل الديني.

الفصل الثالث

١,٣- العلاقات الثقافية بين الدولتين العباسية والبيزنطية

أ- مراكز الاتصال الثقافي:

تمت الفتوحات العربية الإسلامية الأولى في أرض كانت مهداً لحضارات مستقرة منذ آلاف السنين، مثل وادي النيل ودجلة والفرات، ولم تستمر الحرب من أجل السيطرة على تلك الأراضي طويلاً، ولم تتعرض للتدمير، فنسبة كبيرة من أهل البلاد الأصليون ينتمون بصلة قربي "عرقاً ولغة" للعرب الفاتحين، وأخذوا جانب الحياد في الصراع الذي كان بالدرجة الأولى بين الفاتحين والطبقة الحاكمة من البيزنطيين أو من الفرس الساسانيين، وقد أكدت الدولة الإسلامية منذ البداية على حسن معاملة سكان تلك البلاد المفتوحة الذين كانوا في غالبيتهم مسيحيين من اليعاقبة والفساطرة، وقد تعلم هؤلاء كثيراً من العلوم التي ترجمت إلى اللغة السريانية، اللغة السامية القريبة من العربية، في متناول القادمين الجدد، الذين أعجبوا بثراء ثقافة البلاد وقدمها،[١] ولذا يمكن القول إن علوم اليونان وفلسفتهم كان لها الأثر الأكبر والفعال في تشكيل الحضارة العربية الإسلامية، وبالطبع فإن العظمة الهلينية وقت الفتوحات الإسلامية كانت قد ولت، إذ تجمد العلم اليوناني في القرن الثاني الميلادي، وكانت نهاية آخر جيل من المفكرين اليونان، عندما أغلق الإمبراطور جستيان (٥٢٧-٥٦٥م) مدارس الفلسفة في أثينا سنة (٥٢٩م) وبالرغم من أنه لم يعد الكلام عن اكتشاف علمي جديد أو إبداع فكري بعد ذلك التاريخ ممكناً.[٢]

فإن البيزنطيين حافظوا على ما تم تحقيقه من إنجازات وتناقلوه وحذا حذوهم تلاميذهم في سوريا ومصر والعراق، وعندما جاء الفاتحون العرب المسلمون إلى هذه البلاد، كانت أغلب مؤلفات اليونان في الطب والفلك والرياضيات وغيرها من

---

1 - J. J. Saunders, a history of Medieval Islam "London" 1965, P 182.

٢ - فيليب حتى، تاريخ العرب المطول، ج١، ط٤، بيروت، دار الكتاب للنشر، ١٩٦٥، ص٣٨١، ٣٨٥.

العلوم قد ترجمت إلى اللغة السريانية على أيدي علماء من مسيحي الشرق،[١] استمرت حركة الترجمة بعد الفتح العربي الإسلامي وازدهرت في الفترة من سنة (١٨٤-٣٩١هـ/٨٠٠-١٠٠٠م) وصار في إمكان طالب العلم المسلم أن يقرأ أعمال أساطين الفكر الهليني مترجمة إلى اللغة العربية من الأصل اليوناني عن طريق اللغة السريانية، وضمت الدولة الإسلامية العديد من المدن التي كان لها دور مهم في نقل الثقافة اليونانية إلى العرب المسلمين، والتي قامت بها مراكز علمية مثل الإسكندرية التي اتخذها بطلموس سوتير، الذي وقعتن مصر في حوزته نتيجة لتقسيم الإمبراطورية المقدونية بعد وفاة الإسكندر الأكبر قاعدة لمكله وبدل مجهودات كبيرة ليجعلها مركز للثقافة والعلوم اليونانية، وأنشأ فيها مدرسة أصبحت فيما بعد بمثابة جامعة يونانية تنافس المدارس اللاتينية القديمة، لكن المحيط اليوناني في الإسكندرية فقد طابعة الذي كان يمتاز به الفكر اللاتيني واتخذ طابعاً عالمياً، وظهر فيه ميل ظاهر نحو الفكر الشرقي، وبالرغم من أصالة الثقافة اليونانية فإنها لم تكن خالية من المؤثرات الشرقية كالمصرية والأشورية فقد أنشأ بطليموس سويتر مكتبة ألحقها بالمدرسة.[٢]

كانت من أهم العوامل التي جعلت من الإسكندرية قبلة العلماء، ولزيادة حجمها لجأ بطليموس إلى وسائل تعسفية، فأقام ما يمكن أن يسمى حجراً على الكتب التي في السفن، فكانت كل سفينة تأتي إلى الميناء تفتش ويصادر أي كتاب يعثر عليه فيها، ويؤخذ إلى المكتبة، فإن كانوا في حاجة إليه احتفظوا به، وكتبوا منه نسخة تقدم إلى صاحب الكتاب.[٣]

احتضن الأباطرة الرومان بعد أن أصبحت مصر ولاية رومانية معاهد العلم والثقافة في الإسكندرية، وأدى الصراع بين الوثنية والنصرانية إلى الاجتهاد في

١ - فيليب حتى، تاريخ العرب المطول، ص٣٨٥.
٢ - دي لاسي أوليري، علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، ت: وهيب كامل، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٦٢، ص٢٤.
٣ - مصطفى العبادي، العصر الهلينيسي "مصر"، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص١٦٠.

التاريخ والمنطق والفلسفة، وكان من الطبيعي أن تهتم الكنيسة بهذه العلوم في سبيل الدفاع عن الدين[١] بخاصة أنها كانت تمثل مؤسسة دينية أنصبت فيها مجاز فكرية، مختلفة، فأخذت من مجرى التراث اليوناني حسب المعرفة وإحلال العقل مرتبة رفيعة، مما جعل المسيحية مستودعاً للعلم والمعرفة.[٢]

لم تعد مدرسة الإسكندرية في العصر الإسلامي مزدهرة ازدهارها القديم نفسه، بل إن الحوادث السياسية المتمثلة في الصراع بين الرومان والبطالمة، وبين المصريين المسيحيين والرومان، أدى إلى تخريب معالم المدينة المهمة ومنها مكتبتها الكبيرة، لقد وضعت هذه المدرسة أسس علوم التصنيف وأصول نقد النصوص ومن علمائها المشهورين أقليدس الذي يعد له الفضل الأكبر في جعل الإسكندرية مركزاً للدراسات الرياضية، كما يمثل أراتوشيس أمام الجغرافيين في العالم القديم إذ ابتكر طريقة قياس محيط الأرض وهي الطريقة نفسها التي طبقها الخليفة المأمون سنة (٢١٤هـ-٨٢٩م) مما يؤكد أن العرب المسلمين لم ينقلوا فقط، بل درسوا ونقدوا وانتقوا، فتفضيلهم قياسات اراتوستينس على قياسات بطليموس خير دليل على ذلك، وظلت طريقة هيارخوس العلمية في وضع علم الفلك مستعملة إلى أن أدخل العرب النظام الهندي في الحساب كما أثرت مؤلفات خالينوس الطبية على الطب العربي، إذ كانت هذه المؤلفات من المصنفات الأساسية التي تدرس في هذه المدرسة[٣] وبالرغم من بعد مدرسة الإسكندرية عن مركز الخلافة الإسلامية في العصر العباسي "بغداد" واعتماد الخلفاء والقائمين على شؤون العلم في هذا العصر على مدارس أخرى قريبة من بغداد مثل جند يسابور وحران، إلا أن مدرسة الإسكندرية أثرت على الأدب والعلم في هذا العصر.[٤]

---

١ - رستم، مرجع سابق، ج١، ص١٤٣.
٢ - فيليب حتى، موجز تاريخ لاشرق الأدنى، أنيس فريحة، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٥، ص١٢٥.
٣ - أوليري، مرجع سابق، ص٣٧، ٣٨، ٤٠.
٤ - أحمد الأمين، ضحى الإسلام، ج١، ط١، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٧، ص٢١٦.

وتمثل إنطاكية مركز أخر من مراكز الثقافة اليونانية، لكنها عانت الكثير من الأحداث المتمثلة في الزلازل والحرائق، كذلك الصراع الديني بين الطوائف مما أدى إلى نفي السكان الأصليين في بعض الأحيان، كما تعرضت إنطاكية للغزو الفارسي في بداية القرن الأول الهجري / السابع الميلادي[١] ونظراً لوقوعها على الحدود القلقة بين البيزنطيين والمسلمين، استمرت في العصر الإسلامي موضع نزاع بين الدولتين، وبالرغم من ذلك فإن هذا الموقع نفسه قد ساعد على حركة الاتصال الثقافي، ذلك الاتصال الذي كان ينشط دائماً على الحدود في الفترات التي تهدأ فيها الحروب، وقد كانت المخطوطات اليونانية يحصل عليها العرب من آسيا الصغرى كثيرة في فترات السلم التي تعقب تلك الحروب. [٢]

لقد كانت إنطاكية واحدة من أهم المراكز المسيحية التي نقل إليها عبد الملك بن أبحر الكسائي مجلس التعليم من مدرسة الإسكندرية في عصر عمر بن عبد العزيز (٩٠هـ-٧٠٩م)[٣] وأولت مدرستها اهتماماً بالغاً بدراسة اللاهوت، ودخلت في صراع مع الإسكندرية أولاً ثم مع الإسكندرية والقسطنطينية حول الزعامة الروحية لمسيحي الشرق، ولكن ذلك كله لم يصرفها عن الاهتمام بعلوم اليونان.

فقد تمت بها ترجمة مؤلفات يونانية في الطب السرياني وشكلت العلوم الكلاسيكية اليونانية نواة المنهج المدرسي[٤] كما يرجع ما تمتاز به إنطاكية من مكانة علمية إلى أن العناصر الهلينية والمسيحية كانت تعيش فيها جنباً إلى جنب، وبهذا أصبحت إنطاكية العاصمة الفكرية لسوريا وانتقلت مدرستها إلى حران التي تقع وسط منطقة الثقافة اليونانية التي يتكلم أهلها اللغة الأرمنية وكان يسكنها السريان واليونان والأرمن، وكثير من المقدونيين والعرب، ولما ظهرت المسيحية وأصبحت الدين

١ - حلا نيفل داوني، إنطاكية القديمة، ت: إبراهيم نصحي، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٦، ص٣١٦.
٢ - ف، مابرهوف، من الإسكندرية إلى بغداد، في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، عبد الرحمن بدوي، دراسة بكبار المستشرقين، بيروت، دار القلم، ١٩٨٤، ص٦٩.
٣ - أبو داود سليمان بن حسان، طبقات الأطباء والحكماء، حققه: فؤاد السيد، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٥٥، ص٥٩.
٤ - فتحي عثمان، مرجع سابق، ج٣، ص٢٦٢.

الرسمي للدولة، حاول البيزنطيون الضغط على الحرانيين ليتنصروا فلم ينجحوا، ومن أجل ذلك كان رجال الكنيسة يطلقون عليها مدينة الوثنيين "هيلينوبوليس" "hellenoplis".[١] وكانت مدينة حران مركزاً مهماً للتبادل والاتصال حتى أن آخر خلفاء الأمويين وهو مروان بن محمد (١٢٧هـ-٧٤٤م) كان ينقل مركز الخلافة إليها أحياناً،[٢] وقد كان لهذه المدرسة أثر كبير في الاهتمام بدراسة الرياضيات خاصة علم الهيئة فنشأت بها صناعة أدوات القياس مثل الإسطرلاب والآلات الرياضية الدقيقة والموازين،[٣] كما اهتموا بالدراسات الفلكية نتيجة ملاحظة وتأملات أهلها للماء إذ كانوا يعبدون الكواكب والنجوم وهذه العبادة مستمدة من الديانات الأشورية والبابلية،[٤] وكان أولهم في ذلك الفلكي ثابت بن قرة الحراني وابنه سنان، وأسس سابور الأول مدينة جند يسابور وإليه تنسب، وقد كانت هذه المدينة عاصمة خوزستان وموطناً لأسرى الروم الذي وقعوا في أيدي الفرس من جيش الإمبراطور الروماني فاليريانوس (٢٥٨م) وقد تمتع هؤلاء الأسرى بقسط من الحرية الدينية الخاصة بهم، وكان بعض هؤلاء الأسرى يتكلمون اليونانية والبعض الآخر يتحدث السريانية،[٥] ومن الجائز انه كان من بينهم من يتكلم الفارسية، ولعل هذا من الأسباب التي جعلتها مركزاً للثقافة اليونانية، وأسس كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٨م) في هذه المدينة مدرسة الطب والفلسفة سنة (٥٥٥م) بإدارة النصارى معارفهم وعلومهم مستقاة من الثقافة اليونانية وكانت لغة التدريس فيها السريانية.[٦]

وقد كان الطب يدرس في هذه المدرسة نظرياً وعلمياً في بيمارستان كبير، كان نموذجاً لما صارت عليه الدراسة من بعد في العالم الإسلامي، ووحد النساطرة المطرودون من مدرستهم في الرها البيزنطية في القرن الخامس الميلادي في مدرسة

١ - أمين، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٧.
٢ - المسعودي، التنبيه، ص٢٩٧.
٣ - جورج حداد، المدخل إلى تاريخ الحضارة البيزنطية، ص٤١٣-٤١٤.
٤ - أوليري، مرجع سابق، ص١٩-٢٠.
٥ - فتحي حتى، الشرق الأدنى، ص١٣٦.
٦ - مايرهوف، مرجع سابق، ص٥٥، ٦٥.

جنديسابور ملاذاً لهم إذ استقبلهم كسرى أنوشروان وعمل على تأمين سلامتهم وتوفير الراحة لهم، كما استقبل فلاسفة مدرسة أثينا التي أغلقها جستينان سنة (٥٢٩م) وأرسل هذا الملك بعثة ثقافية إلى الهند لاستجلاب معلمين لتدريس الطب، وبهذا أصبحت مدرسته مركزاً اجتمع فيع التراث العلمي اليوناني والسرياني والفارسي والهندي.[١] وقدر لتأثيرها أن يمتد إلى العالم الإسلامي بخاصة في العصر العباسي، إذ تحقق انتقال العلوم اليونانية إلى المسلمين عندما استقرت الخلافة في بغداد التي كانت قريبة من جند يسايور، إذ كان الفرس على اتصال وثيق بالخلافة العباسية ولعب الأطباء دوراً مهماً في نشر التعليم اليوناني بين المسلمين، وحضيت أسرة يختشوع النسطورية بمكانة كبيرة عند الخلفاء.

كما قام يوحنا بن ماسوية، الذي استقر في بغداد في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، بيمارستاناً ومرصداً على غرار جندياسور، وترأس حنين بن إسحاق دار الحكمة، وترجم كتب علماء اليونان،[٢] ومثل السريان دور الوسيط بين الثقافة اليونانية والثقافة العربية الإسلامية، إذ قام هؤلاء بترجمة الكتب اليونانية إلى لغتهم السريانية، ثم ترجمتها إلى اللغة العربية، إذ لم يكن في مقدور العرب المسلمين أن يعرفوا العلوم اليونانية لجهلهم لغة اليونان فكان من الطبيعي أن يستعينوا ببعض المحترفين الذين يتقنونها، وشجع ما اشتهر به هؤلاء الناطرة من الدقة والأمانة في النقل الخلفاء على الاستعانة بهم حتى أنهم عدوا اللغة السريانية أقدم اللغات وأكثرها صحة، وأحدثت ترجماتهم تأثيراً في الفلسفة والطبيعيات والصيدلة والطب وفروعه، وأبرز الذي ساهموا في هذا المجال اصطفان القديم، وزكريا بن يحي البطريق، والحجاج بن مطر، وقسطاين لوقا، وحنين بن إسحاق العبادي وغيرهم وأقام هؤلاء

١ - رنية ناتون، تاريخ العلوم العام، تع: على مقلد، مبح١، مج١، ط١، بيروت، المؤسسة الجامعية للنشر، ١٩٨٨، ص٤٥٦.
٢ - مايرهوف، المرجع السابق، ص ٥٦-٥٧.

مدارس ثقافية حتى صار أمراً طبيعياً أن يكون للنصراني معلم مسلم وللمسلم معلم نصراني.[١]

وربما قيل أن كل ما قام به العرب المسلمون كان مجرد نقل، الصحيح وما يجب التسليم به أن التراث اليوناني الذي تلقاه العرب المسلمون أزدهر في بيئة عربية وتطور تطوراً حقيقياً فهم لم يكونوا مجرد نقل إلى من خلفهم من الأمم، فقد طابقوا ووفقوا بين مؤلفات علماء اليونان والهنود في الفلك والرياضيات، وبذلك أحرزوا تقدماً حقيقياً،[٢] وقد يقول البعض أن العرب المسلمين لم يهتموا بالعلم في حد ذاته إلا ما يخص الجانب العملي لأنهم يحتاجونه في حياتهم اليومية، كالطب والفلك، فمثلاً عندما أصيب أبو جعفر المنصور في معدته، ولم يستطع أطباؤه معالجته استدعى جورجيس بن يختيشوع رئيس أطباء مدرسة جنديسابور، وطلب الرشيد في فترة خلافته من جبريل يختشوع أن يعمل بيمارستاناً في بغداد على نمط بيمارستان جنديسابور[٣] وكذلك الأمر بالنسبة لعلم الفلك إذ كانوا يستعينون به في تعيين اتجاه القبلة ومعرفة أول رمضان ونهايته[٤] لقد اهتم الخلفاء المسلمون بعلم الفلك وكانوا يسمونه علم التنجيم ولكنهم لك يقفوا عند هذا الحد، وكان لهم حرص حقيقي على المعرفة، فدرسوا مؤلفات اليونان والسريان والهنود والفرس في الطلب، والرياضيات، والفلك، والصيدلة، والفلسفة وأصلحوا بعضها، ثم زادوا عليها زيادات مهمة ووضعوا أساس البحث العلمي، واهتموا بالملاحظة والتجربة والاختبار، ولم يكن لهم مصلحة إلا إتباع رغبتهم في المعرفة المجردة. [٥]

وإذا كان الخلفاء المسلمون بذلوا جهداً عظيماً في إحياء التراث اليوناني في بلادهم فإنهم أدركوا تفوق الحضارة البيزنطية، وأن ليس في استطاعتهم سد الفراغ

---

١ - أوليري، المرجع السابق، ص٥.

٢ - جمال الدين أبو الحسن علي من بوسطة، تاريخ الحكماء، دار القاهرة، مؤسسة الخاتجي للنشر، د-ت، ص١٣٤.
٣ - جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، ت، عمر الإسكندري، القاهرة، دار الطباعة الحديثة ١٩٥٤، ص٤٣.
٤ - أوليري، المرجع السابق، ص ٤-٥.
٥ - أوليري، المرجع السابق، ص ٨-٧.

في التراث اليوناني الذي غدا في متناولهم دون الاستعانة بالدولة البيزنطية والاستفادة من نشاطها الثقافي، فبيزنطة ورثت القسط الأوفر من مؤلفات اليونان القدامي، وأبدت القسطنطينية عناية وفيرة شديدة في الاحتفاظ بهذا الكنز الذي لا يقدر بثمن، وبلغ تقديس البيزنطيين لمؤلفات أسلافهم حداً دفعهم إلى دراستها عن طريق التعليقات والشرح وتجنب أي تغيير فيها قد يؤدي إليه البحث والاستقصاء، وتجلت هذه النزعة البيزنطية بصفة خاصة في ميدان الأدب حيث غلب طابع المحاكاة والتقليد للنماذج القديمة[١] ويمكن أن نلمس بشكل واضح بداية الاتصال الثقافي بين المسلمين والبيزنطيين منذ قيام الدولة العباسية، ونشاط حركة الترجمة في عهدها، فعلى الرغم من قيام هذه الدولة على اكتاف الفرس وازدياد التأثيرات الفارسية في نظمها الاجتماعية فإن خلفاءها لم يغفلوا أهمية بيزنطة ومركزها في الميدان الثقافي، ومن ثم كان الخلفاء العباسيون يرسلون في طلب بعض الكتب النادرة من بيزنطة التي لم تصنف بها ما دام ذلك في نطاق التعاون الثقافي أو تبادل المعرفة، فمن ذلك أن الخليفة أبي جعفر المنصور بعث إلى إمبراطور الدولة البيزنطية يطلب كتباً يونانية، وأن الإمبراطور أجابه إلى طلبه وأرسل إليه كتباً من بينها كتاب أقليدس،[٢] ويرجع إلى عهد المنصور أولى المحاولات للترجمة من اليونانية، وممن اضطلع بذلك أبو يحي بن البطريق الذي ترجم الكتب الكبيرة لجالينوس وابقراط على أن كثيراً من الكتب التي ترجمت في ذلك الوقت أعيدت ترجمتها أو مراجعتها فيما بعد زمن الرشيد والمأمون،[٣] وأستحوذ المسلمون كذلك على كثير من الكتب الهامة إبان إغارتهم المتكررة على الدولة البيزنطية، فكانت إغارات هارون الرشيد على آسيا الصغرى لا تهدف إلى السلب والنهب والعودة محملة بالغنائم فحسب، وإنما رمت

١ - بدوي، المرجع السابق، ص٦٩-٧١.
٢ - ابن خلدون، المقدمة، ص٤٠١.
٣ - ابن خلدون، المقدمة، ص٤٠١-٤٠٢.

كذلك إلى الاستيلاء على كنوز البيزنطيين الأدبية والعلمية، وأفادت الدولة الإسلامية منها، وقام بمهمة ترجمة بعضها مما كان يبحث في الأمور الطبية. [١]

وبلغت حركة الاتصال الثقافي بالبيزنطيين أقصاها في عهد الخليفة المأمون، الذي كان من أنصار حرية الرأي، ومتشابعاً لمذهب المعتزلة، الذين نادوا بأن النصوص الدينية يجب أن توافق أحكام العقل، فحدا ذلك المأمون إلى دراسة المراجع الإغريقية الفلسفية باحثاً فيها عما يمكن أن يؤيد أرائه، وأسس في بغداد سنة ٨٣٠م بيت الحكمة المشهور للإشراف على حركة ترجمة الكتب اليونانية.

وكان هذا المعهد يضم مكتبة ومجمعاً علمياً ولجنة للترجمة، ويعتبر هذا العمل خطوة جليلة ورعاية عظيمة من المأمون لتغذية العلوم الإسلامية بشتى معارف اليونان،[٢] فقد كانت حركة الترجمة حتى زمن ذلك الخليفة حرة يقوم بها أفراد من المسيحيين وممن اعتنقوا الإسلام حديثاً كذلك، تحت إشراف بعض كبار رجال الدولة من محبي العلوم والفنون، ومن أمثال هذه الحركة الأخيرة الجهود التي قام بها أبناء شاكر الثلاثة، إذ شملوا بعنايتهم للمترجمين وشجعوا كثيراً من البحوث العامة والخاصة.

ومما يشهد لهم بالذكر الحسن في هذا المضمار أنهم احتضنوا حنين ابن إسحاق الذي غدا شيخ المترجمين فيما بعد، وكان الفضل في إظهار مواهب إذا أوفدوها على نفقتهم إلى بعض البلاد التي تتكلم اليونانية ليجيد هذه اللغة وليحصل على المخطوطات القيمة المدونة بها، وكانوا يجزلون العطاء لحنين بن إسحاق، الذي كان يتناول منهم ٥٠٠دينار شهرياً (نحو من ٢٥٠ جنيها). [٣]

١ - ابن النديم، الفهرست، ص٣٣٩-٣٤٠.
٢ - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص٢٧٣.
٣ - ابن النديم، الفهرست، ص٣٤٠.

ولم يغفل المأمون أهمية الاتصال الثقافي بالدولة البيزنطية وجلب الكتب الإغريقية منها، فراسل الإمبراطور ليو الأرمني (٨١٣-٨٢٠م) يطلب من السماح للسفارات الإسلامية بالحصول على المصنفات اليونانية القديمة في الفلسفة والطب والهندسة، وقبل الإمبراطور طلب المأمون الذي أوفد إذ ذاك جماعة من أشهر علماء عصره، منهم الحجاج بن مطران وابن البطريق وصاحب بيت الحكمة إلى القسطنطينية، فأختار هؤلاء المبعوثون ما راق لهم من المراجع وقفلوا عائدين بهذه الكنوز الثمينة إلى بغداد، وهناك قسطا بن لوقا يشرف على ترجمة هذه المراجع الإغريقية،[١] ومما يجدر بالملاحظة في هذا الصدد أن معظم الذين قاموا بترجمة الكتب اليونانية كانوا من السريان أي المتكلمين باللغة الآرامية الشرقية[٢] ومن ثم كانوا يعمدون إلى ترجمة المراجع اليونانية إلى السريانية أولا ومنها إلى العربية، فكتاب الهرمنطيقا لأرسطو ترجم أولاً من اليونانية إلى السريانية على يد حنين، ثم ترجمه إسحاق بن حنين من السريانية إلى العربية، ولم يكن مستغرباً أن تكون القسطنيطينية قبلة أنظار الخلفاء العباسيين إذ شاهدت الدولة البيزنطية في القرن التاسع الميلادي وهو عصر المأمون نهضة ثقافية في الأدب والعلوم.

فاحيا برادس أعظم رجال الدولة البيزنطية آنذاك، والمتصرف الحقيقي في شئون الدولة، جامعة القسطنطينية القديمة، وعين لها أساتذة في الهندسة والفلك وفقه اللغة[٣] على أن أعظم شخصية بيزنطية في القرن التاسع الميلادي، هو الإمبراطور ثيوفيل، وقد عاصر الخليفة المأمون، وكانت القسطنطينية في عهده تنافس بغداد في الأبهة وفي حلية الثقافة، وكانت مدارسها التي جذبت أنظار العلماء المسلمين إليها، وجهدت بغداد في استدعاء مشاهير العلماء البيزنطيين إليها، فمن ذلك أنه عاش في القسطنطينية في عهد الإمبراطور ثيوفيل عالم مشهور في الرياضيات أسمه ليو،

---

١ - ابن النديم، المصدر نفسه.
٢ - Banes, op cit 126.
٣ - إبراهيم العدوي، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص ١٤٧.

وذاع صيت هذا العالم في الخارج ووصل إلى الدولة الإسلامية عن طريق تلاميذه، فلما ترامى إلى المأمون نبأ هذا العالم البيزنطي أرسل إليه يستدعيه إلى بلاطه وأغراه بإجزال العطاء له، لكن الإمبراطور ثيوفيل علم بهذه الدعوة، فمنح ليو وظيفة معلم في إحدى كنائس القسطنطينية وقرر له راتباً شهرياً على أن حرص المأمون على هذا العالم البيزنطي دعاه إلى إيفاد رسالة شخصية إلى الإمبراطور، يطلب فيها السماح بإيفاد ليو إلى بغداد لمدة قصيرة، وذكر في رسالته أنه يعد قبول الإمبراطور هذا الطلب عملا ودياً، وأنه يعرض لذلك ألف قطعة من الذهب وعقد صالح دائم، غير أن ثيوفيل رفض إجابة طلب المأمون ولاسيما أن الدولة البيزنطية اعتبرت علم ليو واختراعاته التي كان يقوم بها من الأسرار التي ينبغي ألا يطلع عليها المسلمون.(١)

وتبادل العلماء المسلمون والبيزنطيون كذلك الزيارات لمشاهدة الآثار ذات القيمة التاريخية في بلديهما، ومنحت السلطات في كل من الدولتين أولئك العلماء جميع التسهيلات لأداء مهمتهم فأرسل الواثق سنة (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٧٤٢-٨٤٧م) أحد العلماء المسلمين إلى مدينة أفينوس لمشاهدة الكهوف التي كان محفوظاً فيها جثث الشباب السبعة الذين استندوا أيام دقلديانوس وأذن الإمبراطور ميخائيل الثالث للعالم الإسلامي بالقيام بهذه الزيارة كما أوفد معه رجلاً يؤدي مهمة الدليل(٢) ولم ينقطع الاتصال الثقافي بين المسلمين والبيزنطيين حتى القرون الأخيرة من حياة الإمبراطورية البيزنطية.

وقد حاول البعض التقليل من دور العرب المسلمين في حركة الترجمة، التي نشطت في العصر العباسي الأول مدعين أنها قامت على أكتاف مترجمين من الفرس والمسيحيين واليهود، فرأوا أن الفضل يعود إلى هؤلاء(٣) صحيح أن لهؤلاء فضلاً

---

١ - إبراهيم العدوي، المرجع السابق، ص ١٤٧-١٤٨.
٢ - لوليري، المرجع السابق، ص٤-٥.
٣ - لولبري، المرجع نفسه.

كبير في تعريف المسلمين بالدراسات العلمية الجديدة التي بعثت من مصادرها اليونانية، لكنه فضل مشترك، السبب الذي من أجله كان أغلب المترجمين من غير العرب المسلمين هو أن الترجمة تحتاج إلى معرفة عدد من اللغات التي لا تكفي، لأن الترجمة كي تحقق لابد أن تجد من يحرص على تمامها ويتكفل بفقاتها وقد كان الخلفاء العباسيون على استعداد للبذل والعطاء لترجمة هذه العلوم ولهذا تجد أن الفضل يعود إليهم بدءأ واستمرارا فيها،[١] فالسريان لم يذكروا شيئاً من عند أنفسهم، وكل ما ذكروه مأخوذ عن الكتب اليونانية التي اختصروها أو شرحوها ونقلوها، وكانوا في أغلب الأحيان ترجموها بأمر الخليفة، أو الأمير، أو الوزير، أو واحد من أصحاب المال والنفوذ،[٢] وساعد التسامح الديني الذي تميز به العرب المسلمون في معاملتهم لرعاياهم المسيحيين على الازدهار العلمي، إذ تركوا لهم الكنائس، وسمحوا لهم بإقامة شعائرهم، كما تركوا المدارس الكبرى مسيحية ويهودية وصائبة قائمة في الإسكندرية وبيروت وإنطاكيا وحران والرها ونصيبين وجندسابور ولم يمسوها بأذى، ولم يطلبوا إلا الولاء السياسي الثابت للدولة الإسلامية،[٣] وهذا التفتح الواسع الذي لا يحده شيء ولا يقف في سبيله أي تزمت أو تعصب، العامل الأكبر في نشاط الحركة العلمية في الدولة الإسلامية وازدهارها الذي أضاء العالم في العصر الوسيط.

ب- الاتصال الثقافي عن طريق بعض الأسرى:

كان الصراع الحربي الذي دار بين المسلمين والبيزنطيين في آسيا الصغرى براً وبحراً، واحداً من العوامل المهمة في نقل ثقافة كل منها للآخر، فهذا الصراع الذي يلم يهدأ فترة طويلة رافقة ما يرافق الحرب عادة من قتل وأسر وسبي، فأسرى

---

١ - جورج سارتون، العلم الإسلامي، فلي كتاب الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته، ت: كو بكرينج، عبد الرحمن محمد أيوب، القاهرة، الدار المتحدة للنشر، د-ت، ص ١٤٥.
٢ - محمد عبد الرحمن مرحيا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٠ف، ص٧٦.
٣ - المرجع السابق نفسه، ص٧٢.

الحرب من البيزنطيين أو المسلمين أجبروا على الإقامة في دولة غير دولتهم ابتحت لهم، أو لبعضهم خلالها فرصة التعرف على بعض من عادات ونظم، وثقافة الدولة الأخرى، وعادوا بعد عمليات الفداء إلى موطنهم الأصلي بعد أن أطلعوا على فرق حياة وأساليب عيش مواطني البلاد حيث قضوا فترة أسرهم، هذا إلى جانب التشابه في السلوك الاجتماعي، الذي يتجلى في وصايا الآباء لأبنائهم، وفي النصائح الموجهة لقليلي الخبرة من الناس، وأراء القادة تلك التي كانت في الأغلب تلقي القبول بدرجة سواء على جانبي خط الحدود الفاصل بين الدولتين، وكان كل من الطرفين مولعاً باستخلاص العظات الأخلاقية والعبر من كل ما يجرى في المحيط الذي يعيش فيه.(١)

وقد كان من بين هؤلاء الأسرى من له اهتمام بالعلم، وعن طريقهم عرف كل فريق الكثير عما لدي خصمه من معارف وعلوم ففي عصر المأمون استفاد المسلمون من أحد الأسرى البيزنطيين أثناء مناقشة دارت بين الخليفة وبعض مستشاريه أظهر فيها ذلك الأسر قدرة على حل بعض المسائل الرياضية من كتاب اقيلدس أثارت إعجاب الجميع، وقد استرعى هذا الأمر انتباه الخليفة ودفعه أن يبذل جهوداً كبيرة من أجل إحضار معلم ذلك الأسير ليوا الرياضي إلى بغداد. (٢)

وكانت المعلومات والتقارير التي دونها الأسرى المسلمون حول مشاهداتهم في الدولة البيزنطية من المصادر المهمة لكتب الجغرافيا التي وضعها المسلمون في العصور الوسطى، إذ تفيض تلك الكتب الجغرافية التي وضعها المسلمون في العصور الوسطى، بأوصاف للطرق المؤدية إلى البلاد البيزنطية وعاصمتها "القسطنطينية" والمحطات الواقعة على هذه الطرق، ولم يفك أسره في فداء ٢٣١هـ/٨٤٥م، لأنه رفض القول بخلق القرآن، كان مجاهداً في الثغور يتمتع بمركز

١ - عز الدين إسماعيل، في الأدب العباسي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٥، ص١٦٨.
٢ - المسعودي، التنبيه، ص١٦٦.

مرموق، له مصنفات في أخبار الروم وأهلها وأباطرتها وأوقات الغزو إليها، والممالك التي تجاوزها من الصقالبة، والبلغار، والأقار، والخزر وغيرها.[١]

وقد عقد مقارنة بين البنود البيزنطية التي يطلق عليها "الأعمال" وثغور المسلمين فيقول: إن أعمال الروم التي يوليها الملك عماله أربعة عشر عملاً"،[٢] وكانت تعرف لدى المسلمين بالجناد فأجناد الشام تشمل ((جند فلسطين، وجند الأردن، وجند دمشق، وجند حمص، وجند قنسرين، غير أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد وأطول، وأول بنود الروم بند الناطليق وفيه مدينة عمورية، والبد الثاني بند الابسيق وفيه مدينة نيقيا، والبند الثالث يعرف بترقسيس وفيه أفسوس..)). [٣]

وقد استمد الجغرافيون أمثال ابن جرداذبه وقدامه بن جعفر وابن رسته والمسعودي، معلوماتهم عن طبوغرافية القسطنطينية من هؤلاء الأسرى الذين شاهدوا بلاد الدولة البيزنطية وكانوا موضع ثقة وأهل خبرة ودراية، فأسرى المسلمين قد ينهون إلى القسطنطينية وأسرى الروم إلى العراق، والحكايات كثيرة في التاريخ الأساري وخاصة في عهد الرشيد، فكان هذا سبباً من أسباب امتزاج الحياة الاجتماعية واقتباس المظاهر الحضارية بين الجانبين ثم الاحتكاك الدائم السلمي والحربي وهذا يحمل بين الطرفين على أن يتبادلوا الآراء والأفكار والكلام في اللغة والأدب ويروي صاحب الأغاني في ذلك خبر طريق فيقول: قدم رسول لملك الروم إلى الرشيد فسأل عن أبي العتاهية وأنشده شيئاً من شعره وكان أي الرسول، يحسن العربية فمضى الرسول إلى ملك الروم وذكره له، فكتب ملك الروم إليه ورد رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبي العتاهية ويأخذ فيه رهائن من أراد فكلم الرشيد أبى العتاهية في ذلك فاستغنى في منه وإياه. [٤] ويروي المقدسي صورة لمعيشة أسرى المسلمين في بلاد الروم فيقول: ((أعلم أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم

١ - المسعودي، التنبيه، ص١٧٨.
٢ - ابن خرذابه، المصدر السابق، ص١٠٥.
٣ - المسعودي، المصدر السابق، ص١٦٦.
٤ - أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص٢٧٩.

ودخل هذا المصر، شرط على كلب الروم بناء دار إزاء قصره في الميدان نيزلها الوجوه والإشراق إذا سروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده، فأجابه إلى ذلك، وبنى دار البلاد،[١] وهذه الصورة التي ينقلها المقدسي لاشك أن مصدرها رواية أحد الأسرى وهي تنبئ عن فرص الاتصال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين والروم)).

وقد روى المسعود في ثنايا كلامه عن فداء الأسرى الذي حدث في عهد الواثق سنة ٢٣١هـ (("والملك على الروم ميخائيل بن توفيل، وكان القيم به خافات الخادم التركي": أن من بين من أطلق في هذا الفداء من أسرى المسلمين لدى الروم مسلم بن أبي مسلم الجرمي وكان ذا محل في الثغور، ومعرفة بأهل الروم وأرضها، وله مصنفات في أخبار الروم وملوكهم وذوي المراتب منهم وبلادهم من الممالك من البرهان، والأسر والبرعر والصقالبة والخزر وغيرهم[٢] ومن علم هذا الأسير استمد ابن خرذابة قائمته لبنود الروم وذكر أن مسلم بن مسلم قال: أن أعمال الروم التي يوليا الملك عماله أربعة عشر عملاً.. الخ)). [٣]

وكان من الطبيعي بحكم ما كان للبزنطيين من سيطرة سابقة على بعض أقاليم البلاد الإسلامية أولاً، ثم الاحتكاك الحربي أحياناً، والسلمي أحياناً أخرى، أن يتعلم بعض من المسلمين اللغة اليونانية وأن يتحدث بعض من البيزنطيين العربية، فالأسرى البيزنطيون من رقيق وجوار في البيوت والقصور كانوا يتكلمون اليونانية بالضرورة، ثم العربية المحرفة. [٤]

كما فتحت الجواري حياة العرب المسلمين إما إماءً أو خدماً، وكثيراً ما اتخذت الجواري والرقيق بأمر البيوت في نظامها وطعامها وإدارتها يخالطون العرب

١ - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٩.
٢ - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٧.
٣ - المسعودي، التنبيه والإشراق، ص ١٦٢.
٤ - أمين، المرجع السابق، ج١، ص٢٨٠.

ويعيشون بينهم فاندمجوا بحياتهم وألسنتهم،[١] ويرى أنه كان للمأمون دوار بيزنطيات يلبسن لباساً بيزنطياً من زنار وما إليه.

وكان للجواري أثر كبير في الموسيقى والغناء، وقد تأثر المسلمون بغنائهن البيزنطي فمزحوا ألحانهن في غنائهم العربي، فاختلطت أنغامه واستخرجوا منه ألحاناً جديدة،[٢] واستبتع تعلم الغناء، تعلم الأدب والرقص ورقي في الذوق الفني، يروي أنه كان للرشيد جارية بيزنطية تدعى خرشى، وكان لها أخت أو بنت أخت، تفقدها الرشيد فلم يجدها فسأل خرشى بأداب البيزنطيين وقراءة كتبهم فتعلم اللسان اليوناني علماً، كانت له فيه الرياسة وكان يتصل به كثير من أهل العلم والأدب. [٣]

وبهذا انتشرت لغة الطرفين حدقاً وإجادة بالقدر الذي أمن من إندماجهم مما هيا لقاحاً واسعاً بين العناصر الثقافية البيزنطية والعربية وقد نشأ جيل أمهاته من البيزنطيين وطبيعي أن يحمل هذا الجيل عنهن شيئاً من ثقافتهن، وكثيراً من طباعهن وعاداتهن وبهذا يكونون قد مارسوا أنواعاً جديدة من الحياة تكاد تكون جديدة في كل مناحيها النقت بأنواع من التأثيرات وأفسحت مجالاً للتبادل العلمي بين الدولتين. [٤]

١ - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج٣، القاهرة، دار المعارف، د-ت، ت٥٨.
٢ - أبو الفرج علي بن حسين الأصفهاني، الأغاني، ج٣، ط١، القاهرة، مطبعة الحياة المصرية، ١٩٣٦، ص٧١.

٣ - المصدر نفسه، ج٥، ص٢٧٩-٢٨٠.
٤ - شوقي ضيف، المرجع السابق، ص٥٩-٦٠.

٢,٣- السفارات العلمية بين الدوليتين العباسية والبيزنطية في العصر العباسي الأول

أ- تبادل العلوم والعلماء:

يمثل القرنان الثاني والثالث الهجريات / الثامن والتاسع الميلاديان، عصر الحركة العلمية في الدولة الإسلامية، التي اتخذت مكانتها المهمة في تاريخ الحضارة الإسلامية وتعد الثمرة الطبيعية لجهود المسلمين الذين أمنوا بالعلم بكل فروعه وأياً كان مصدره: يونانياً، أو فارسياً، أو هندياً، وأصبحت بغداد مركزاً للحضارة العربية الإسلامية، واستطاعت بالرغم من حداثة عهدها، أن تقف على قدم المساواة مع أعظم مدنية آنذاك "القسطنطينية"، ورثت الدولة البيزنطية القدر الأكبر من مؤلفات اليونان وبلغ حرصها الشديد على الاحتفاظ بهذه المؤلفات، أنها كانت تدرس عن طريق التعليقات والشروح، وتجنب اي تغيير فيها[١] وقد أدرك الخلفاء العباسيون أهميتها ومركزها في الميدان الثقافي، فكانوا يرسلون في طلب الكتب النادرة، وبداية الحركة الفكرية في الدولة العباسية، وأهتم الخليفة المهدي بالأدب والموسيقى والفلسفة.[٢]

١ - بينز، مرجع سابق، ص٣٧٧.
٢ - ابن خلدون، المصدر السابق، مج ٤، ص ٨٦٥.

بالإضافة إلى اهتمامه بعلم الفلك والتنجيم، وكان ثيوفيل بن توما الزهاوي الذي خدم الخليفة المهدي وأخيه كثيراً من أشهر المنجمين في عصره، كتب "ثيوفيل" باللغة السريانية، ويذكر له كتاب في التاريخ،[١] كما أهدى الإمبراطور "ليو الرابع" الخليفة المهدي كتاب جات جامبرس "Book of Jannes and Jambers" عن السحر والشعوذة عند المصريين القدماء،[٢] وأهتم الخليفة "هارون الرشيد" بالعلوم اليونانية اهتماماً كبيراً، وقد كلف "جنين بن إسحاق" و"يوحنا بن ماسويه" بترجمة الكتب الطبية التي وجدها بأنقرة وعمورية،[٣] أثناء غاراته التي قام بها على الأراضي البيزنيطة وكان العرب المسلمون قد حصلوا على كثير من المخطوطات اليونانية عن طريق مثل تلك الغارات، وأرسل الإمبراطور لعله نقفور الأول إلى الخليفة هارون الرشيد يحمل رسالة يطلب فيها من الخليفة السماح للشاعر أبي العتاهية بالحضور إلى بيزنطة مقابل أخذ من أراد من الرهائن وألح في ذلك يبدو أن الإمبراطور شاقة شعر الزهد الذي سمعهمن رسول له كان عند الرشيد فمدحه له لكن الشاعر رفض دعوة الإمبراطور،[٤] ازدهرت حركة الترجمة في عصر الخليفة المأمون حتى أصبح بيت الحكمة أشبه بجامعة بها مكتبتها الخاصة، ولها مدير، ومساعدون، ومترجمون، ومجلدون للكتب، فهي تعد من أعظم خزائن الكتب في الإسلام.[٥]

وإذا كان المسلمون لم ينسوا خلال غاراتهم على البيزنطيين خاصة زمن الرشيد، أن يحاولوا الحصول على مخطوطات يونانية من مدائن العدو مثل عمورية ونقره،[٦] فإنهم كانوا كذلك يرسلون الرسل من قبلهم لشراء هذه المخطوطات اليونانية الموجودة في الإمبراطورية البيزنطية - زمن الرشيد أيضا وبتشيجع

١ - هنري جورج فارس، تاريخ الموسيقى العربي، ت: جرجيس فتح الله، بيروت، منشورات مكتبة دار الحياة، ١٩٧٢، ص١٥٦.
٢ - وديع فتحي عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٠، ص١٧٣.

٣ - ابن خلجل، المصدر السابق، ج٣، ص١٧٩.
٤ - الأصفهاني، المصدر السابق، ج٣، ص١٧٩.
٥ - القلقشندي، المصدر السابق، ج١، ص٢٣٧.
٦ - حتى، المرجع السابق، ج٢، ص٣٨٥.

البرامكة- ((وهي سياسة شخصية جاءت إلى بغداد بكثير من المؤلفات الهامة، وقد الحق هذا بكرم مماثل من جانب الأفراد الذين أنفقوا بسخاء على المخطوطات والمترجمين وكثير من المادة التي حصل عليها الطرقة كان طبيباً)).[١]

ويروي أن ابن النديم في الفهرست ((أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم: الحجاج بن مطر، وابن البطريق، و"سلما" صاحب بيت الحكمة إلى القسطنطينية، فاختار هؤلاء المبعوثون ما راق لهم من الكتب ورجعوا بها إلى بغداد وكلف "قسطا بن لوقا" بالإشراف على ترجمتها[٢] كما قام الخليفة المأمون بإرسال رسالة شخصية إلى "ليو الرياضي" مع أحد تلاميذه الذي كان أسيراً لدى المسلمين، يدعوه فيها للحضور إلى بلاطه ببغداد لكن "ليو" خاف أن يضبط من قبل دولته وفي حوزته وثيقة لذلك، فتنبه الإمبراطور ثيوفيل بعد سماعه هذه الدعوة لأهمية "ليو" وقدرته العلمية فأمر بتعيينه معلماً في كنيسة الأربعين شهيداً وحدد له مرتباً.[٣]

قام الخليفة بعد ذلك بمحاولة أخرى فأرسل هذه المرة إلى الإمبراطور ثوفيل نفسه يطلب منه السماح لليو بالحضور إلى بغداد لفترة قصيرة، وأنه بعد ذلك عملاً ودياً ويعرض مقابل ذلك صلحاً دائماً،[٤] هذا يؤكد لنا الانفتاح العجيب الذي شهده ذلك العصر، حتى بلغ من حرص هؤلاء الخلفاء على الاهتمام بالعلوم والآداب أن يعرضوا عروضاً مغرية تعويضاً عن أضرار الحرب مقابل الاستفادة من بعض العلماء البيزنطيين، وقد رفض الإمبراطور هذا العرض، ربما لأنه كان يرى أن هذا العلم سراً خاصاً بالبيزنطيين مثل سر النار اليونانية، وقد كان من نتائج هذا العرض

١ - أوليزي، المرجع السابق، ج٢، ص٣٨٥.

٢ - محمد بنب بإسحاق النديم، الفهرست، حققه: رضا، القاهرة، مطبعة الاستقامة، د-ت، ص ٣٠٤.
٣ - بينز، المرجع السابق، ج١، ص٢٢٠.
٤ - جمالة الدين بن بناته المصري، سرح العيون في شرح رسالة بن زيدون، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٤، ص٢٤٢.

المغري أن ترقى "ليو" إلى رئيس اساقفة "سالونيكا" ذلك المنصب الذي شغله ثلاث سنوان (٢٢٦-٢٢٩هـ/٨٤٠-٨٤٣م). [١]

كما أرسل المأمون إلى ملك جزيرة قبرص بعد أن عقد معه هدنة، يطلب منه أن يرسل إليه كتباً في الفلسفة، كانت هذه الكتب مخزنة لا يطلع عليها أحد فجمع الملك مستشاريه وشاورهم في إرسالها للخليفة المأمون لكنهم رفضوا ذلك إلا مطرانا واحداً قال: (الرأي أن تعجل بإنفاذها إليه فما دهلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها)،[٢] فأرسلها إليه ففرح بها المأمون وولى "سهل بن هارون"، الذي كان يعمل كاتباً في بيت الحكمة ومصنفاً للكتب أمرها.[٣]

انتشر الإسلام في أمصار وأقطار كثيرة وامتدت رقعة الدولة الإسلامية من بلاد ما وراء النهر وتركستان إلى المغرب والأندلس، فوجد العرب في هذه المناطق شعوباً وقواماً لهم ديانات مختلفة وثقافات متميزة، فأصبحت لديهم رغبة ملحة في مضاهاة الشعوب التي احتكوا بها وتفاعلوا مع حضارتها، مما أيقظ عقولهم وأعدهم لقبول اللقاح الجديد والتماس كتبه[٤] كما دفع الجدل الديني بين المسلمين والنصارى إلى البحث عن حجج وبراهين منطقية ليؤكد كل فريق صحة دينه فاستعان بعض الخلفاء وعلى رأسهم المأمون بمنطق اليونان وفلسفتهم ليتسلح بهما في الدفاع عن الدين الإسلامي، وقد رأب بعض المستشرقين أن المأمون أهتم بحركة الترجمة لأنه رأى أنها ستمده بوسائل ملائمة تعينه على أن يظهر الإسلام من بقايا زندقة التنويه.[٥]

جاء الإسلام مؤكداً عقيدة التوحيد غير متأثر بما كان سائداً قبله، من أفكار وثنية قديمة ولهذا نرى أنه ربما قصدوا الدولة الإسلامية من بقايا الزنادقة الذي تظاهروا

١ - ابن نباته المصري، المصدر السابق، ص٢٤٢-٢٤٣.

٢ - المصدر نفسه، ص٢٤٢-٢٤٣.
٣ - كارلونلينو، علم الفلك وتاريخه عند العرب، روما، مطابع روما، ١٩٩١، ص١٤١.
٤ - ابن نباته المصري، المصدر السابق، ص٢٤٤.
٥ - فيليب حتى، المرجع السابق، ص٩٣.

باعتناق الإسلام دون إيمان حقيقي وظلوا محتفظين في قرارة أنفسهم بعقائدهم القديمة كالمجوسية على سبيل المثال، مدفوعين في هذا التظاهر بالإسلام لرغبتهم في نيل جاه أو سلطان أو مال، واتخذ بعضهم الكتابة والنشاط الفكري وسيلتين لترويج أفكارهم القديمة كالمانويه نسبة إلى ماني مثلاً بصورة مستترة واستخدموا التأويل في تفسير النصوص الدينية تفسيرات تخرجها عن معانيها الحقيقية إلا مدلولات ومفاهيم مانويه، وتظاهروا بالرجوع إلى العقل أو إلى التفسير العقلي للإسلام ليخفوا حقيقتهم ويبثوا أرائهم،(١) وقد خاف الخليفة المأمون أن يتأثر المسلمون بهذه الأفكار لذلك سعى إلى مقاومتها مقاومة عنيفة وكان من الممكن أن تؤدي الزندقة إلى انهيار وتفكك الدولة الإسلامية لولا ما بذله العلماء من جهود للقضاء عليها واستئصالها لكن ذلك كله لا يقلل من شأن ما وصلت إليه حركة الترجمة من ازدهار في عصر المأمون بخاصة أن الترجمة لم تكن تقتصر على كتب الفلسفة فقط، بل شملت الكتب الطبية، والفلكية، والرياضية، وغيرها من العلوم، التي نالت عناية كبيرة من قبل المترجمين، والتي أفادت المسلمين إفادة كبيرة ومنحت الحركة الفكرية حيوية دائمة.

لقد كان الخليفة المأمون أعظم موجه علمي في تلك الفترة، إذ دعا الباحثين والمترجمين من شتى أنحاء البلاد إلى بلاطه، فتعاونت أيدي الفرس، والفساطرة، واليهود، مع أيدي العرب في مجالات العلم، ولقى النصارى واليهود ترحيباً كالمسلمين وعكف هؤلاء على ترجمة الكتب العلمية عن اللغة اليونانية وغيرها وبالرغم من تأثر العباسيين بالفرس فإنهم لم يغفلوا أهمية بيزنطة وتفوقها وأدركوا أنه ليس في استطاعتهم إشباع حاجتهم من التراث اليوناني دون الاستعانة من نشاطهم الثقافي، إذ ازدهرت الحياة الثقافية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فأحيا

١ - عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ط ق، بيروت، دار الطليعة للنشر، ١٩٨١، ص٥٧-٥٨.

"ترداس" حال الإمبراطور ميخائيل الثالث والوصي عليه، جامعة القسطنطينية القديمة وعين لها أساتذة في الهندسة والفلك واللغة. (١)

ب- الرحلات العليمة بين الدوليتين العباسية والبيزنطية في العصر العباسي الأول:

كانت الدولة الإسلامية دولة واسعة، مترامية الأطراف، فاحتاجت إلى جمع بيانات ومعلومات عن البلدان والشعوب التي اعتنقت الإسلام، وشكلت جزءاً من عالمها واقتضت ضرورة الحكم والإدارة، وتقدير الثروات وحجم الضرائب أن يكلف الخلفاء بعض الأشخاص ويمدوهم بالمال والعون لتحقيق مقاصدهم في الإطلاع على شؤون بلاد العالم، ولذا احتلت الرحلات حيزاً مهماً من التراث الثقافي العربي الإسلامي، وبالرغم من أن الرحالة لم يكتبوا أخبار رحلاتهم في مؤلفاتهم قائمة بذاتها إلا نادراً فإن تلك الأخبار مثلت المصادر الأساسية التي استقى منها الجغرافيون الأوائل مثل "ابن خرداذبه" وغيره من الجغرافيين المسلمين ماداتهم. (٢) وقد تعددت أهداف ودوافع الرحلات عند المسلمين، فإلى جانب حث الإسلام على لاسفر والرحلة ابتغاء العلم والاستفادة من العلماء، وهذا يؤكد تشجيعه الاتصال بالغير ودعوته للانفتاح مما ساعد على الانبعاث الحضاري وازدهاره، فقد كان الحج من العوامل التي دفعت المسلمين إلى الرحلة والانتقال، واقتضت التجارة في بعض الأحيان القيام بالرحلة ولعل من أشهر الرحلات التي تمت في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي رحلة التاجر "سليمان السيرافي" الذي تعد أخباره من أهم الآثار العربية الإسلامية عن الرحلات البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين إذ قدم فيها ووصفها وصفاً صادقاً للطرق التجارية، لبعض العادات والنظم الاجتماعية

١ - إبراهيم العدوي، المرجع السابق، ص١٤٦.
٢ - أحمد سوسة، الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية، ج١، بغداد نقابة المهندسين العراقية للنشر، ١٩٧٤، ص١٠٣.

والاقتصادية لذا يمكن القول أن التجار المسلمين أول من بدأ بالتجارة مع الشرق الأقصى.[١]

ويظهر الاتصال الثقافي بين المسلمين والبيزنطيين بوضوح في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، إذ قام المسلمون برحلات علمية إلى بيزنطة، فتوجهت الرحلة الأولى إلى آسيا الصغرى لرؤية أصحاب الكهف "الرقيم" فقد أرسل الخليفة الواثق بعثة عليمة يرأسها "محمد بن موسى" لاستطلاع أمر الكهف بإذن من الإمبراطور ميخائيل الثالث، الذي زود البعثة بدليل بيزنطي فسارت البعثة من بيزنطة إلى قرة، ولما وصل أعضاؤها إلى "أفسوس" مكان الكهف حال الموكل على حراسة الكهف بينهم وبين رؤية الشهداء فيه، وزعم أن لا يأمن أن يصيب من يلمسهم ضرر لكن أحد أعضاء البعثة ويحتمل أن يكون "محمد بن موسى" دخل لرؤتهم فوجد أجسامهم مطلية بالعبر والكافور لحفظها،[٢] وتذكر آيات من سورة الكهف قصة لجوئهم إلى أحد الكهوف فراراً من الاضطهاد فتوفى الله أرواحهم وفاة النوم استغرقت ٣٠٩ سنة ثم استيقظوا فوجدوا بلادهم قد دانت بدينهم وقد مات هؤلاء بعد اكتشاف أمرهم مباشرة فأقيم على أجسامهم بالكهف معبد قرب أفسوس،[٣] ومن المعروف أن الجغرافيين العرب اعتمدوا على ما تضمنته سورة الكهف من القرآن الكريم من إشارات إلى أصحاب الرقيم، وأنشاوا على أساسها قصصاً طويلاً فمنهم من رأى أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم، وزعموا أن الرقيم هو ما رقم به أسماء أهل الكهف في لوح من حجر على تلك المغارة، ومنهم من رأى أن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف، وكلا الموضعين بأراضي الدولة البيزنطية.[٤]

١ - حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، الكويت، عالم المعرفة للنشر ١٩٨٩، ص٢٠٦، أنظر أيضاً: أندريه ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية، ت: إبراهيم حوزي، ج١، دمشق منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨٣، ص٢١٥.

٢ - ابن خرداذبه، المصدر السابق، ص١٠٦-١٠٧. انظر أيضاً: محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار، حققه: إحسان عباس، بيروت، دار القلم، ١٩٧٥، ص٢٧١.

٣ - أحمد بن يوسف القرماني، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، حققه: أحمد حطيط وفهمي سعيد، ج٣، ط١، بيروت، دار عالم الكتاب ١٩٩٢، ص٢٠٢-٢٠٣.

٤ - المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٣١٤.

كما اختلفوا في عددهم، وطبقاً لما ورد في القرآن الكريم لا يمكن تحديدهم لقوله تعالى:- ((**سيقولون ثلثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل رب أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل**)).[١] كما كلف الخليفة الواثق سلام ترجمان على رأس بعثة للقيام برحلة إلى حصون القوقاز سنة (٢٢٧هـ/٨٤١م).[٢] ويرجع سبب الرحلة إلى أن الخليفة رأى في منامه كأن السد الذي بناه الإسكندر ذو القرنين بينه بين ياجوج وما جوج قد انفتح بينما يرى آخرون أن السبب في إرسال هذه البعثة هو الشائعات حول تحرك القبائل التركية في أواسط آسيا نتيجة لقضاء القرغيز على دولة الأويغور حوالي سنة (٢٢٥هـ/٨٤٠م)،[٣] وقد كان سبب اختيار الخليفة لسلام لأنه كان يتقن عدة لغات، فضم إليه خمسين رجلاً ووصله بما ورزق سنة، وقد استغرقت هذه الرحلة ١٨ شهراً، وعندما عاين سلام السد أخرج من خفه سكيناً وحك به موضع شق فيه فأخرج منه مقدار نصف درهم وشده في منديل ليريه للواثق، ثم سأل هل رأوا من ياجوج وماجوج أحداً، فذكروا أنهم رأوا ذات مرة عدداً منهم فوق الجبل فعصفت ريح سوداء فالقتهم إلى جانبهم وكان مقدار الرجال في رأي العين شبراً ونصفاً[٤] وورد ذكرهم في القرآن الكريم مرتين في قوله تعالى: ((**قالوا يذا القرنين إن ياجوج وما جوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن ت جعل بيننا وبينهم سداً**))[٥] وقوله تعالى: ((**حتى إذا فتحت ياجوج وما جوج وهم من كل حدب ينسلون**)).[٦] ومهما يكن من دوافع هذه الرحلات ونتائجها فهي توضح لنا أنه حتى في الوقت الذي كان من الممكن أن يقوم بينهما نوع من التعاون العلمي، كما أمدتنا هذه الرحلات بصورة عن عقلية العالم في العصور الوسطى سواء داخل الدولة الإسلامية أم

١ - سورة الكهف: الآية [٢٢].
٢ - أبو الحسن بن سعيد المغربي، الجغرافيا، حققه: إسماعيل العربي، ط١، بيروت، المكتب التجاري للنشر، ١٩٧٠، ص٧٥.
٣ - أغناطيوس بوليا نوفتش كراتنسكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ت: صلاح الدين عثمان هاشم، ط٢، بيروت، دار العرب الإسلامي، ١٩٨٧، ص١٥٨.
٤ - محمد عبد الله الإدريسي، نزهة المشتق في اختراق الآفاق، حققه: روبياتش وآخرون، ج٢، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٦١، ص٣٠٢-٣٠٣.
٥ - سورة الكهف: الآية [٩٤].
٦ - سورة الأنبياء: الآية [٩٦].

خارجها وهي من هذه الناحية، ذات قيمة علمية حيث وفق المسلمون فيها أعظم توفيق حتى أن بعض كتب رحلاتهم أصبحت من معالم الأدب العالمي.[١]

٣,٣- تأثير الصراع الحربي في الحياة الثقافية للدولتين

أ- التأثيرات الأدبية:

أثرت حروب المسلمين والبيزنطيين في أدب كلا الفريقين فقد حقق المسلمون انتصارات باهرة عاشوا على ذكراها طويلاً والأدب تسجيل للمشاعر والمفاخر، وقد كان الخطر الإسلامي ماثلاً في مخيلة كل بيزنطي، وقد عكس الأدب البيزنطي صورة جلية لذلك الخطر، بينما تركت الحرب أثارها فيما سطر العرب، فأشاد الشعراء بمعارك أدى فيها المسلمون دوراً مشرفاً وقد مثل القصص الشعبي، وما نحده منه في قصص ألف ليلة وليلة والشعر الحماسي لدى المسلمين، والملاحم الشعبية التي انعكست فيها أحداث القتال آثاراً من هذا الصراع ومظهراً من مظاهر ذلك الأدب.[٢]

١ - حسين مؤنس، الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس، ط٢، القاهرة، المنظمة العربية للتربية، د-ت، ص٩ ، ١١.
٢ - العدوي، الإمبراطورية البيزنطية، ص١٤٨.

فلقد كانت الحرب ضد البيزنطيين، مرآة تعكس حياة الناس على مختلف أجناسهم وطبقاتهم في مدة الثغور، فهؤلاء لم تكن لم أية حرفة إلا الجهاد في سبيل الله والتدريب المستمر على فنون القتال والاستعداد له وكانت السمة العامة لحياة هؤلاء المتطوعين هي الزهد، حتى غرفت مناطق الثغور بأنها أنسب موطن للزهاد، أولئك الذي صرحوا نفوسهم عن كل متع الحياة، وتهيأوا للجهاد في سبيل الله.[١]

وتعد شخصية أبي سيعد محمد بن يوسف المروزي "الثغري" خير مثال على ذلك وهو ممن اشترك في حرب عمورية، وفي سنة (٢٣٢-٢٣٧هـ/٨٤٦-٩٥١م) تولي ولاية أذربيجان وأرمينية ولقد لقب بالثغري، مما يدلنا على كثرة حروبه مع البيزنطيين ومن وقائعه المهمة التي مدحه فيها أبو تمام غارته التي حاول فيها حصار القسطنطينية ولم يفتحها، فوصف الشاعر توغل أبي سعيد في أراضي الدولة البيزنطية حتى بلغ البسفور، ونشر في أهالي درولية الرعب والخوف[٢] فقال:

لولا جلاد أبي سعيد لم يزل للثغر صدر ما عليه صدار

قدت الجياد كأنهن أجادل* بقرى (درولية) لها أوكار

حتى النوى من نقع قسطلها على حيطان قسطنطينية الإعصار[٣]

وفي قصيدة أخرى أحتفل أبو تمام بغارة كانت من أهم غارات أبي سعيد، هي موقعة وادي عقرقس وقد كانت هذه الغارة من أكثر الغارات ضراوة وأشدها وقعاً على البيزنطيين وصور الشاعر الجنود في هذه القصيدة متدرعين بالدروع السلوقية

---

١ - مصطفى علي الحياري، حياة الناس في مدن الثغور، مجلة الدراسات التاريخية، العدد الرابع، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٨١، ص٩٢-٩٣.

٢ - فاريليف، المرجع السابق، ص٣٤٧.

*- أجادل: جمع الأجدل: الصقر، أنظر: إيليا الحاوي، شرح ديوان أبي تمام، ط بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١، ص٢٧٤.

٣ - المرجع السابق نفسه، ص٢٧٤.

وكيف أنهم يستعذبون طعم الموت وهم يتوغلون في الثغور البيزنطية وهي جند الناضلوق "الأناضول" والبقلاري "اليوكيلاريوي" وكيف توغل أبو سعيد في جيش يثير الغبار من ورائه وهو يفتح المواقع والحصون الواحد بعد الآخر وما يقع بأهلها من التنكيل على يديه حتى وصل إلى عقرقس[1] التي قال فيها:-

وطئت هامة الضواحي إلى أن ... أخذت حقها من القبروق

أنهبتها السياط حتى إذا أستنت ... بإطلاقها على الناطلوق

سنها ثريا فلما استباحت ... بالقبلات كل سهب ونيق

سار مستقدما إلى اليأس يزجي ... رهجاً باسقاً إلى الأبسيق

وبوادي عقرقس لم تعرد عن ... رسيم إلى الوغى وعنيق[2]

تم عقد أبو تمام مقارنة فنية محكمة بين فيها أثر هذه الوقائع من جانب المسلمين من جهة، والبيزنطيين من كرب إنما كان عيداً لدى المسلمين مشبهاً انتصارهم بغزوة بدر فقال:

إن أيامك الحسان من الروم ... لحمر الصبوح حمر الغبوق

معلمات كأنها بالدم المهراق ... أيام للنحر والتشريق[3]

كما قرن أبو تمام في هذين البيتين بعض وقائع أبي سعيد التغري بوقعة بدر التي أحرز فيها الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم نصر للمسلمين على الكفار، أي أن وقعة أبي سعيد هذه لها ما لبدر يوم القيامة من مكانة، وهي في الوقت نفسه تعوض عن يوم وقعة أحد فقال:

١ - فازيليف، المرجع السابق، ص٣٤٨-٣٤٩.
٢ - إيليا الحاوي، المرجع السابق، ص١٤٩.

٣ - إسماعيل، المرجع السابق، ص١٤٩-١٥٠.

يوم به أخذ الإسلام زينته بأسرها وأكتسى فخرابه الأبد
يوم يجيئ إذا قام الحساب ولم يذممه بدر ولم يفضح به أحد[١]

كما أشاد أبو تمام بالقائد خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وإلى المأمون على الموصل وديار بيعة الذي قاد الجيش الإسلامي وسجل انتصاراً حربياً على "ثيوفيل" ومات في عصر الخليفة الواثق سنة (٢٣٠هـ/٨٤٥م) بأرمينية،[٢] وصور لنا أبو تمام في قصيدته كيف استولى الرعب على جنود ثيوفيل فقال:

ولما رأى ثيوفيل راياتك التي إذا ما اتلأيت لا يقاومها الصلب
تولى ولم يال الردى في اتباعه كان الردى في قصده هائم صب
كان بلاد الروم عمت بصيحة فضمت حشاها أورغا وسطها السقب[٣]

وقد أشارت المصادر البيزنطية ببطل قومي تصف بالبسالة والأقدام والكرم اسمه "ديجيتس أكريتاس" 'Digenis Akritsa' وهو بطل الملحمة البيزنطية التي حملت اسمه والتي تعد من أهم ملاحم أعمال الأبطال ووقائعهم المشهورة، فقد كتبت هذه الملحمة في عشرة أجزاء نتحدث عن سيرة شخص حقيقي قتل في أحدى معارك البيزنطيين مع المسلمين في آسيا الصغرى سنة "١٧٢هـ/٧٨٨م" ودفن بجوار سميساط،[٤] وكان قائد جيش المسلمين في هذه الحملة يزيد الحرشي، الذي رجع بالكثير من الغنائم بعد الانتصار الباهر الذي حققه.[٥]

١ - إسماعيل، المرجع السابق نفسه، ص١٥٠.
٢ - فازيليف المرجع السابق، ص٣١٥.
٣ - الحاوي، المرجع السابق، ص٧٩-٨٠.
٤ - ابن خلدون، المصدر السابق، مج٥، ص٤٦٧.
٥ - حداد، المرجع السابق، ص٢٥٨.

وكان موت القائد البيزنطي مصدراً لبعض قصص البطولة البيزنطية المشهورة التي دارت حول شخصيته، وارتبطت هذه الملحمة بالأغاني الشعبية المعروفة بالاكريتية نسبة إلى اكريتاس فصورت الحرب بين المسلمين والبيزنطيين تصويراً رائعاً ودقيقاً في حالات كثيرة، بخاصة حروب القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي عندما انتصرت الجيوش الإسلامية سنة (٢٢٣هـ/٨٣٧-٨٣٨م) على البيزنطيين انتصاراً عظيماً في عمورية، ولذا فهي تعد مصدراً غنياً بالمعلومات عن العلاقات بين الدولتين البيزنطية والإسلامية وعن حياة المحاربين في منطقة آسيا الصغرى،[١] كما لعب شعراء الزهد المسلمون دوراً كبيراً، إذ كانوا عند خروجهم مع الجيوش الإسلامية لقتال البيزنطيين، يجاهدون في سبيل الله بالسيف والكلمة، فبالإضافة إلى مشاركتهم الفعلية في القتال.[٢]

كانوا يحثون الجنود ويحمونهم ويلقون على الناس في الثغور المواعظ، وهم بذلك يعطون فكرة عن زهاد المسلمين أنهم لم يكونوا سلبيين لا يشاركون في الجهاد، فهذا عبد الله بن المبارك يفضل الجهاد على العبادة ويرفعه فوقها درجات فالناسك يقدم لربه دموعه والمجاهد يقدم دمه، متخذاً الخيل العاديات لا في اللهو، وإنما في الجهاد وطلباً للاستشهاد ورضوان الله، متطيباً بطيب أكثر شذى وعطراً من الطيب الحقيقي، طيب غبار الحرب وسنابك الخيل، وهي تقدح الأرض قدحاً وكان قد أملى رسالة شعرية أثناء وجوده "بطرسوس" أرسلها إلى الفضيل بن عياض سنة (١٧٧هـ/٧٩٣م) الذي كان زاهداً بمكة قال فيها:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب جيدة بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب[٣]

١ - رانسيمان، الحضارة، ص٣٠٧.
٢ - ابن خلدون، المصدر السابق، مج ٥، ص٤٦٢.
٣ - ضيف، المرجع السابق، ج٣، ص ٤٠٣-٤٠٤.

درج شعراء المسلمين على تسجيل أنباء حروبهم وانتصارتهم على البيزنطيين ففي عصر هارون الرشيد أشاد الشعراء بانتصاراته وبطشه وشدة انتقامه من الأعداء من ذلك قول أبي العتاهية في هارون حين ضرب هرقلة انتقاماً من نقفور الأول:

إلا نادت هرقلة بالخراب   من الملك الموفق للصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا   ويبرق بالمذكرة القضاب[١]

كما أشاد الشعراء بانتصارات المأمون سنة (٢١٧هـ/٨٣٢م) عندما أغار على أذنه وتقدم منها إلى حصن لؤلؤة فأناخ بها جيوشه تغدو وتروح في آسيا الصغرى منزله بالبيزنطيين الهزائم فتغنى أبو تمام بتلك الانتصارات غناء يصف فيه تلك الجيوش واستبسالها في القتال فقال:

مسترسلين إلى الحتوف كأنما   بين الحتوف وبينهم أرحام
آساد موت مخدرات مالها   إلا الصوارم والقنا أمام[٢]

وتذكر الروايات العربية إيقاع ثيوفيل بزيطره أيام المعتصم وتذكر أن امرأة عربية من زبطرة صاحت حين سباها الروم: وامعتصماه، فلما بلغ المعتصم خبر استغاثتها صرخ على سريره لبيك لبيك، فصاح في قصره: النفير النفير، وشاء المؤرخون البيزنطيون أن يصبغوا أثار المعتصم حين فتح عمورية بصيغة الانتقام، فزعموا أن زبطره بلد المعتصم التي ولد فيها وأنه قوض مدن عمورية لأنها كانت دارة الأباطرة البيزنطيين، وقد وصف أبو تمام وقعه عمورية وسخر من المنجمين الذي نصحوا بالعدول عن الحملة فلم يعبأ بذلك المعتصم:

١ - إسماعيل بن القاسم أبي العتاهية، ديوان أبي العتاهية، بيروت، دار صادر، ١٩٦٤، ص٦٥.
٢ - ضيف، المرجع السابق، ج٣، ص٢٧١.

والعلم في شهب الأرماح لامعه بين الخمسين لا في السبعة الشهب[١]

وخلد الشاعر أبو تمام انتصار الخليفة المعتصم في حملة عمورية بقصيدة جاء فيها:

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم عمورية انصرفت عنك
المنى حفلاً معولة الحلب
خليفة الله جازى الله سيعيك عن
جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
تنال إلا على حسر من التعب[٢]

وقد كانت عواطف المشاعر الدينية والقومية بارزة في الأبيات الأخيرة[٣] وعلى الجانب البيزنطي فقد تأثر الإمبراطور البيزنطي أثر حمله عمورية تأثراً كبيراً، حتى أنه مرض واشتد مرضه وإصابته حمى أدت إلى موته، وسيطرت قصة هذه الحملة على الخيال الشعبي، ليس في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي فحسب بل في القرون الثلاثة أيضا، وبقى ذكرها عند البيزنطيين باسم "الملحمة العربية" كما حفظ البيزنطيون قصص المدافعين باسم أخبار "شهداء عمورية".

وسجلت أسماء الذين سلموها باسم "الخونة الذين سلموا عمورية" أما أصداء النصر لدى العرب فقد كانت قوية لدرجة أصبح معها اسم المعتصم نموذجاً دائماً للمروءة والدفاع المشرف.[٤]

١ - ضيف، المرجع السابق، ص٤٠٣-٤٠٤.
٢ - حبيب الله بن أوس الطائي أبي التمام، ديوان أبي تمام، حققه: محمد عبده غرام، ج١، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤، ص٤٦.
٣ - ضيف، المرجع السابق، ج٣، ص٢٨٥.
٤ - مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص٥٧١.

لقد كان بعض من شعراء البلاط المقربين للخلفاء والولاة والقواد والوزراء العباسيين كثيراً ما يغنون في أشعارهم بأفعال أبطالهم الممدوحين في ضرب البيزنطيين وقد يحدث أن تجد في بعض أبياتهم ذكراً لأسم مكان في آسيا الصغرى لا تجده عند غيرهم، ولهذا رجع إليهم الجغرافيون ومع ذلك فإنه يصعب على المؤرخين أن يتخذوا منهم مصادر تاريخية لبعدهم عن الدقة في التوقيت وتجديد المكان في أشاراتهم إلى أحداث حرب البيزنطيين، فهم لم يكتبوا شعرهم ليدرسوا التاريخ ولكن ليمدحوا وكثيراً ما أحاطوا هذه المعارك بعبارات شعرية حتى ليتكلف الباحث الجهد قبل أن يستخلص منها المعلومة التاريخية التي ينشدها، وقد لا يخرج بعد العناء إلا بمجرد فروض، ومع ذلك فإن قراءة قد تدلنا في بعض الأحيان إلى أن المؤرخين أهملوا بعض المعارك وقدراً كبيراً من التفاصيل.[١]

وتعد الرسائل المتبادلة بين الخلفاء المسلمين والأباطرة البيزنطيين مظهراً من مظاهر الأدب، وكان لها دور كبير في تطور الكتابة وقد أكدت هذه الرسائل كرامة المسلمين في نظر البيزنطيين وغلب على مراسلات الطرفين الطابع العدائي بالرغم من أنها في جوهرها أمور دبلوماسية ومن أمثلة تلك الرسائل، رسالة الإمبراطور "نقفور" إلى الخليفة "هارون الرشيد" إذ شعر نقفور فيها بالقوة ولم يرض بشروط الصلح التي عقدت في فترة حكم الإمبراطورة إيرين، ورأى فيها ما ينال من قدر البيزنطيين فكتب إلى هارون الرشيد ينقض ذلك الصلح، ولم يكتف بذلك وإنما صاغ رسالته التي بعثها في أسلوب لم يخل من التهجم على مقام الخليفة،[٢] فجاء فيها: ((من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها لكنه ذاك ضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالهم وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا

١ - فازيليف، المرجع السابق، ص٢٤٦.
٢ - مصطفى الشكعة، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، ج٢، ط٢، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤، ص٤٢٦.

وبينك))،[١] لم يجد الرشيد صبراً على جرأة الإمبراطور نقفور فأرسل إليه رداً شديداً في عبارات قوية تعد بمثابة رأس الكتيبة التي تفتح الطريق للجيش المتقدم نحو عدوه،[٢] وجاء في رد الخليفة: ((بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه)).

لقد كان رد الرشيد على رسالة الإمبراطور مقتضياً وموجزاً وخالياً من الصور البلاغية وبعيداً عن زخرف الكلام، ولم يكن إعلاناً للحرب فحسب بل كان أشبه بمقدمة الجيوش التي كانت ستزحف عبر خطوط الحدود البيزنطية، وإذا اختلفت صيغة الرسالتين فإن روحهما واحدة، جرأة من نقفور وضرم وشدة وإصرار على رد الأمور إلى نصابها من الرشيد.

كما أدت رسالة الخليفة المأمون سنة (٢١٧هـ/٨٣٢م) إلى الإمبراطور ثيوفيل الغرض منها في هذا الميدان، وبعد ما جاء في تلك الرسالة مثالاً للغة الأقوياء الممتنعة جيوشهم عن الهزيمة المتسلحة بالشجاعة والإيمان، يسير النصر في ركابها وإلا فالاستشهاد في سبيل الله[٣] جاء في رده: ((أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة، وخلطت فيه من حال اللين بالشدة مما استعطف به من سرح التاجر، واتصال المرافق، وفك الأساري، ورفع القتل والقتال، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة، والأخذ بالحظ من تقليب الفكرة، وإلا اعتقد الرأي عن مستقبله إلا عن اصطلاح ما أوتره في معتقبة لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل اليأي والنجدة، والجد والنصر يقارعونكم عن شكلكم ويتقربون إلى الله عز

١ - الطبري، تاريخ الأمم، ج٢، ص٣٠٨.
٢ - الشكعة، نفس المرجع، ج٢، ص٢١٥.

٣ - الشكعة، المرجع السابق، ج٢، ص٤٢٨.

وجل بدمائكم ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شرككم، ثم أصل إليهم من الإمداد وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد، هم أضمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من فخوف معزتهم عليكم موعدهم..)).[١]

لقد كتبت رسالة الخليفة المأمون بعناية كاملة، وأظهرت مدى فهم الخليفة لموقف الإمبراطور البيزنطي عندما اعتقد أن القوة ما نعته من زحف المأمون عليه، وكان رد المأمون على رسالة ثيوفيل مزيجاً من التهديد بالحرب والدبلوماسية فمجمع بين طرفي اللين والشدة وبين الملانية والعنف.[٢]

كما كتب إبراهيم بن المهدي رسالة يهنئ فيها المعتصم بانتصاره على البيزنطيين في عمورية جاء فيها: ((الحمد لله الذي تم لأمير المؤمنين غزوته، فأذل بها رقاب المشركين وشفى بها صدور قوم مؤمنين، ثم سهل الله له الأوبة سالماً غانماً... وليهنئه ما كتب الله له مما أحصاه فلا يسناه، ليقفه به موقفاً يرضاه)).[٣]

لقد لعب الأدب العربي الإسلامي دوره بفعالية في مجالات الحروب والعلاقات الخارجية وسجل لنا صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضد أعدائها البيزنطيين، فأشاد الشعراء إشادة رائعة بكل معركة خاض المسلمون غمارها، وكل حصن اقتحموه حتى كادت لا تترك ذكراً لاية موقعه ولأي بطل، وكان كل شاعر يتفنن في مدحه قادة المسلمين ويتغنى ببطولاتهم وشجاعة جنودهم،[٤] وكانت الرسائل الدبلوماسية بين الطرفين على أحسن ما يمكن أن تؤلف الرسالة، فكراً ولباقة وأسلوباً وتعبيراً، ويمكن القول أن المسلمين قد تفوقوا على سبقهم في هذا المجال، ولقد أثرت حروب المسلمين والبيزنطيين في أدب كلا الفريقين ولم يبرح

---

١ - أبو الفضل أحمد بن طاهر طيفور، بغداد، حققه: محمد زاهد بن حسن الكوثري، القاهرة، مكتبة الخانجي للنشر، ١٩٤٩، ص١٥٣-١٥٤.
٢ - ضيف، المرجع السابق، ج٣، ص٥٠٠.
٣ - الشكعة، المرجع السابق، ج٢، ص٤٢٨.
٤ - الشكعة، المرجع السابق نفسه، ج٢، ص٤٢٩.

شعور العداء بينهما يشتد بين الحين وأخر، ونعم المسلمون بانتصارات باهرة عاشوا في ذكرياتها طويلاً، والأدب تسجيل للمشاعر والمفاخر.

أما البيزنطيون فقد كابدوا أهوال المخاطر و أوشكت أمبراطوريتهم أن تنتهي تماما على يد المسلمين ثلاث مرات على الأقل وكان الخطر الإسلامي ماثلاً على الدوام في مخيلة كل بيزنطي، والأدب البيزنطي يعكس إلينا صورة جلية لهذه الحالة ولا ريب أن حرب الثغور التي ينطفئ لها مع الروم قد تركت أثارها فيما سطر العرب ولم يقتصر الأمر على أن يشيد الشعراء بمعارك لعب فيها سادتهم دوراً مشرفاً، بل أن أحداثاً وشخصيات تتصل بهذا الكفاح الذي لم ينته قط إلى نتيجة حاسمة قد أدخلت في القصص الشعبي، والواقع أن الأدب العربي قد أخذ اتجاهه يتحول بمرور الزمن شيئاً فشيئاً ويصبح أدب عواصم..[1] وكان الشعر الحربي الإسلامي تسجيلاً تاريخياً للوقائع الحربية الهامة كما كان تسجيلاً جغرافياً للمعالم والأماكن البارزة وقد استشهد به ياقوت الحموي والبكري في مواضع كثيرة من تعريفها للبلدان، ومع ذلك فإنه يصعب على المؤرخين والجغرافيين أن يتخذوا الشعراء كمصادر تاريخية لبعدهم عن الدقة وتحديد المكان في أشاراتهم إلى أحداث حرب البيزنطيين، فإنهم لم يكتبوا شعرهم ليقصوا التاريخ لكن ليمدحوا فيحيطون ما يذكرون من الوقعات بعبارات شعرية حتى لنتكلف الجهد قبل أن نستخلص منها شيئاً يسيراً من التاريخ بعد العناء الإ بمجرد فروض، وهكذا كان شعر الحرب مصدراً لتسجيل المعالم الجغرافية والوقائع الحربية إلى حد ما وقد استند ياقوت إلى كثير من الأبيات الشعرية لأبي تمام أو البحتري في مادته الجغرافية التي سوقها في معجم البلدان.

ب- الجدل الدينى:

---

١ - فازيليف، المرجع السابق، ص٣٧٠.

لقد كان الإسلام أعظم رسالة سماوية تدعو إلى توحيد الله، توحيداً خالصاً لا تشوبه شائية، وامتاز الإسلام بأن دين عقل وفطرة وميزان صحة هذا الشرع نابعة من أن ما جاء به من الأحكام والقوانين وضروب المواعظ والإرشاد ليس فيها ما ينافي العقل الصحيح أو تأباه النفوس السلمية، وقدر المسلمون العقل حق قدره، وعرفوا له مكانته العظيمة في جميع أمورهم الدنيوية،(١) ولذلك شرع العقل يعمل عندهم يجد وفي حرية تامة منذ مجيئ الإسلام، حتى كان من نتاجه ذلك الرصيد الضخم من المفكرين والعلماء الذين لم يكتفوا بالعلوم الدنيوية، بل كان للعقل السيطرة على أمورهم حتى الدينية، إذ جعلوا لها قياسات منطقية، وقواعد خاصة تستند إلى العقل، أكثر من استنادها إلي النقل والرواية، واتخذوا من القرآن الكريم أساساً يستندون إليه في ذلك فما وافق القرآن عملوا به وما خالفه أوعارضه تركوه،(٢) كما استعانوا بالمنطق اليوناني يصوغون في قوالبه قضاياهم فعرفوا آداب الجدل والمناظرة ثم نظروا في كتب الديانات الأخرى، وتتجروا فيها ونازلوها ومن بينها الديانة المسيحية التي أخذت تعمل على تنقية عقيدتها من الأفكار والعقائد الوثنية حتى تصمد في مواجهة الإسلام، وتحد من تيار تحول المسيحيين إلى الإسلام وبذل كل فريق جهده في الدعوة إلى دينه ومقارعة خصمه والرد عليه،(٣) ووجدت الدولة البيزنطية بعد انتصار العرب المسلمين واستيلائهم على مصر والشام نفسها على اتصال دائم مع الدولة الإسلامية حربياً وفكرياً.

إذا بدأ كل من المسلمين والمسيحيين يؤكدون صحة دينهم وقد تطور هذا الحوار وأخذ أبعاداً واسعة، إذ زاد التأثر بين الفريقين في العصر العباسي فنشأ عن هذا جدل ديني ومن الظروف التي كان يحدث فيها مثل هذا الجدل أن بعض الخلفاء كانوا عند توليهم الخلافة يوجهون إلى معاصريهم من الأباطرة كتباً يدعوهم فيها إلى الدخول

١ ـ ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ط٣، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٥، ص٢٠٤ـ٢٠٨.
٢ ـ المرجع السابق نفسه، ص٢٠٨.
٣ ـ أمين، المرجع السابق، ص٣٦٩ـ٣٧٠.

في الإسلام فلم يكن لأولئك الأباطرة يد من الرد على هذه الكتب بالحجج والبراهين التي يؤكدون فيها على صحة دينهم،[١] كان نتاج ذلك الجدل كتابات دينية صيغ بعضها باللغة اليونانية التي ظلت اللغة المستعلمة بين المسيحيين بخاصة في الشام ومصر اللتين كانتا قبل الفتح الإسلامي تحت السيطرة البيزنطية فناقش يوحنا الدمشقي، في العصر الأموي بعض آيات القرآن الكريم وانتقد مسألة نزول القرآن والوحي والعبادات والأخلاق. [٢]

ومن مؤلفاته محاورة مع مسلم في موضوع الوهية المسيح وحرية الإرادة البشرية وهي بمثابة الدفاع عن المسيحية، كتبت هذه الرسائل في قالب حوار وتميزت بكثرة التكرار، فعلى سبيل المثال قوله: ((إذا سألك العربي "المسلم".. إذا قال لك العربي المسلم.. فأجبه)) وتبدو لك المحاورة تهدف إلى تزويد المسيحيين بإجابات حاضرة رداً على الاعتراضات المختلفة التي كان جيرانهم المسلمون يوجهونها إلى العقيدة المسيحية، وكتب تلميذه الأسقف "ثيودور أبو قرة" في أوائل العصر العباسي محاورات باللغة العربية تقوم على الجدل مع المسلمين، حيث رفض فيها بعثة محمد رسولاً، كما جادل بعض الأقوال الفلسفية جدلاً منطقياً مثل الخلق المستمر، ونصيل الله في أعمال المخلوقات وهي أقوال يجبر إليها الدخول في الإسلام وقد كان أبو قرة أول من احتج في الكلمة بحجتين لابد من الالتزام بإحداهما: إذ قلنا بخلق المسيح لزم أن يكون الله قد بقى زمنا دون كلمة وروح ولزم أن يكون القرآن الذي هو كلمه الله مخلوقاً، وفي عصر الخليفة المأمون ظهرت رسالة بحير الراهب "أبو كاليبس" وكتب عبد الله بن إسماعيل الهاشمي رسالة إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي يدعوه فيها إلى الإسلام فرد عليه عبد المسيح يدعوه إلى النصرانية وظهرت كتابات للجاحظ

١ ـ فازيلف، المرجع السابق، ص٣٦٩ـ٣٧٠.
٢ ـ عفاف سيد صبره، الإمبراطورية البيزنطية والرومانية الغربية في زمن شارلمان، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٢، ص٢٥٦ـ٢٥٧.

متمثلة في رسالة عنوانها "الرد على النصارى" يصور فيها ما كان يثيره النصارى واليهود من شبهات، وكيف كان المسلمون يدفعونها.[١]

وقد كان المأمون من أكثر الخلفاء حرصاً على مجالسه أهل الكلام وعلى رأسهم المعتزلة وهؤلاء هم الذين كانوا يبحثون في الإسلام ويعللون آراءه وتعاليمه عن طريق العقل وأيد المأمون قولهم في مسألة خلق القرآن.[٢] الأمر الذي جعل خصومه يمونه "أمير الكافرين" وقد تبنى بعض المستشرقين هذا الرأي حتى أن منهم من يجد صعوبة بالغة في عد المأمون نموذجاً للتقوى الإسلامية،[٣] ولكن لا يمكننا أن نوافقهم على هذا الرأي ذلك لأن الإسلام لا يمنع المسلم من التحرر العقلي والتطلع العلمي.

فقد دعا الناس إلى الإيمان عن طريقين: طريق النظر إلى العالم المحيط وطريق النظر إلى الأمم وتجاربها، وهو يرى أن نظر الإنسان إلى العالم يدعم إيمانه ويقوي يقينه، وهذا النظر يناسب الناس على اختلافهم، ولما ازداد الولع بالفلسفة اليونانية في العصر العباسي أخذ العلماء، اتجاهاً عقلياً مجرداً في تفسير القرآن الكريم كالاتجاه الذي يدرسون به الرياضيات وكانت النتيجة أن بعدت العقيدة عن بساطتها الأولى وصار المتكلمون هم الناطقون باسمها وأن كانت هذه النقطة نقطة ضعف في الفلسفة والعلوم من الناحية الدينية فإن فضلها كبير، فالدولة الإسلامية في العصر العباسي ورثت وواجهت مدنيات عظيمة وتأثرت ببعض عادات الأمم الأخرى في جميع جوانب الحياة، كالمعاملات التجارية ونظم الأحوال الشخصية، فكان على العلماء أن ينظروا بعين إلى قواعد الإسلام وتعاليمه، وبالعين الأخرى إلى المدينة العباسية وما تعرضت له من تأثيرات حضارية أجنبية، وذلك من أجل المواءمة بين الإسلام وتلك التأثيرات وإخضاعها له.[٤]

---

١ - فازيليف، المرجع السابق، ص٣٧٠-٣٧١
٢ - ابن طيفور، المصدر السابق، ص١٨١-١٨٣.
٣ - ستانوودكب، المسلمون في تاريخ الحضارة، ت: محمد فتحي عثمان: ط١، الرياض، دار الصورية للنشر، ١٩٨٥، ص٤١.

٤ - ما يرهوف، المرجع السابق، ص٣٧٠.

وقد أستأنف الخليفة الواثق عند توليه الخلافة الجدل في مسألة خلق القرآن وذلك بامتحـان الأسـرى الـذين ثـم فـداؤهم مـن الدولـة البيزنطيـة فـي فـداء سـنة (٢٣١هـ/٨٤٥م)،[١] فكان الأسير المسلم يسأل أثناء عملية الفداء عن خلق القرآن فإذا قـال بخلقـه ثـم فداؤه، وأن رفض تـرك فـي أيـدي البيـزنطيين ولـذلك اضـطر بعـض المسـلمين إلـى العـودة إلـى الدولـة البيزنطيـة علـى القـول بخلـق القـرآن وواجـه المعارضون الاضطهاد والمهانة البالغة.

وكان من بين المسلمين الذين رفضوا القول بخلق القرآن مسلم ابن أبـي مسلم الجرمي، وقد ألف أبو عيسى الوراق كتاباً انتقد فيه عقائد النصـارى بمذاهبهم الثلاثـة الارثوذكسـية، النسـطورية، المونوفسـتية، ورد المسـلمون علـى مقـالتين تنسـبان إلـى الإمبراطور "ميخائيل الثالث" أحتج في أحداهما بمدأ السببية، فرفض المسلمون فكرة وجود ابن الله مشارك في الخلود والصفات، ونقد أبو القاسم البلخي فكرة البنود.[٢]

ومـن مظـاهر التـأثير الثقـافي بـين الحضـارتين الحركـة اللايقونيـة، التـي بـدأت عندما أصـدر الإمبراطـور ليو الايسوري سـنة (١٠٨هـ/٧٢٦م) أمـراً بتحـريم تقديس الصور والتماثيل، ونـادى بتحرير العقيدة المسيحية من الأفكار الوثنية وكانـت الوجهة الفكريــة اللايقونيــة هــي العــودة بالمســيحية إلــى طبيعتهــا الأولــى، ويـرجح بعـض المؤرخين أن عداء "ليو" للايقونـات، إلى مؤثرات إسلامية إذ أمـر الخليفـة "يزيـد بـن عبـد الملـك" سـنة (١٠٤هـ/٧٢٣م) بإزالـة للايقونـات مـن جميـع الكنـائس المسـيحية الموجودة فـي الدولـة الإسـلامية،[٣] ولا يسـتبعد أن يكـون للتعـاليم الإسـلامية أثرهـا فـي الدولـة البيزنطيـة إذ حـرم الإسـلام التماثيـل والصـور تحريمـاً قاطعـاً فتحـت الحركـة اللايقوانيـة مجـالاً كبيـراً للمجـادلات الدينيـة، فمنـت الفكـر وشـرحت وجهـات النظـر

١ ـ أبو الفرج عبد الرحمن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، حققه: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، ج١، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢، ص١٦٤.
٢ ـ صبره، المرجع السابق، ص٢٦٦.

3 - Theophanous, op, cit, pp 188, 189.

وبرز أنصارها للدفاع عنها وعلى رأسهم يوحنا الدمشقي ومن أهم أثاره كتاب ينبوع المعرفة وهو يشمل تفسيراً حقيقاً للارثوذكسية،[١] كما كتب ثلاث مقالات رد فيها على الذين يحطون من شأن الصور المقدسة، فأصبحت مقالاته سلاحاً حاداً يدافع بها الايقونات عن عقديتهم ضد اللايقونيين.[٢]

وألف ينقفورس المعترف سنة (١٤٢-٢١١هـ/٧٥٩-٨٢٦م) من أشد المتحمسين للدفاع عن عبادة الصور المقدسة ومن أهم أثارة مجموعة من الخطابات كتبها لمعاصريه لمهاجمة اللايقوانية،[٣] ومع ذلك فقد كان هناك تماثل في الجو الخلقي السائد لدى المسلمين والبيزنطيين ((ولأمراء أن العبادات المرعبة والمحظورات كانت تختلف اختلافاً بعيداً غير المعايير الخلقية كما تتجلى في وصايا الآباء وفي النصائح الموجهة لغير دوي الخبرة من الناس وأراء القادة الروحيين كانت في الأغلب الأعم تلقى القبول بدرجة سواء على جانبي خط الحدود الفاصل بين العقيدتين، وكان كل من الطرفين في العصر الوسيط مولعاً باستخلاص العظات الأخلاقية وكانوا في كل من المكانين ينتجون مجموعات ضخمة من مؤلفات تتسم بطابع التهذيب والإرشاد كما أنه في كل من القطرين كانت تقلبات القدر والتعقدات في الطبيعة البشرية تلاقي إلى حد ما رد الفعل نفسه غير الحاسم عند الأفراد.[٤]

وألف نيقفورس المعترف سنة (١٤١-٢١٣هـ/٧٥٨-٨٢٨م) كتباً للرد على محاربي الايقونات، ويعد ثيودورس الاستديوتي (١٤١-٢١٣هـ/٧٥٨-٨٢٨م) من أشد المتحمسين للدفاع عن عبادة الصور المقدسة ومن أهم أثارة مجموعة من الخطايات كتبها لمعاصريه لمهاجمة اللايقوانية،[٥] ويرى المؤرخ اليوناني بابار بجويولو "أن محاربي الصور كانوا دعاة إصلاح سياسي اجتماعي ويريدون تحرير التعليم

١ - العدوى، الإمبراطورية البيزنطية، ص١٥١.
٢ - صبره، المرجع السابق، ص٢٦٩.
٣ - العدوي، الإمبراطورية البيزنطية، ص١٥١.
٤ - بينز، المرجع السابق، ص٣٧٦.
٥ - صبره، المرجع السابق، ص٢٦٩.

والتربية من سيطرة الاكليروس أن موضوع الأيقونات يثير البحث في محاولة تصويرها ما هو إلهي في صورة بشرية وتصوير أسرار الروح تصويراً مادياً، ولكن فازيليف يرى تشابها بين الحركة اللايقوانية الرومية وبين الميل لتغليب العقل في الإسلام في القرنين الثامن والتاسع الميلادي ويرى أوسبنسكي أن الدافع الأول لحرب الايقونات هو خوف الإمبراطورية من تزايد شراء الرهبان ونفوذهم، وقد شعر صناع الصور المجيدون في افسوس أن الخطر يهدد زرقهم وكان الدافع الحار عن الصورة المقدسة أنها أنجيل الجاهل وهي تذكر بالله وأن من الطبيعي أن يتجه العقل الإنساني إلى التماس المعاونة من قوى وراء الصورة المتجسدة وأن المسيح قد قدس المادة حين استحال إلى جسد بشري،[1] غير أن معركة الاصورية اكتسب في مرحلتها التالية طابعاً سياسياً ولم يكن الرهبان مجرد مدافعين عن الصور يظودون عن تقليد كنيسي فحسب بل كانوا يكافحون عن حرية جديدة ويجاهدون في سبيل تحطيم العلاقة بين الكتيبة والدولة، تلك العلاقة التي توطدت منذ زمن طويل في العالم البيزنطي لأن إمبراطور روما الشرقية لم يكن حامي الدين فحسب بل كان رئيس الكنيسة وكان في مقدوره وحده أن يدعو المجمع الكنيسي برلمان الإمبراطور الديني.[2] وهذه النظرية عن علاقة الكنيسة بالدولة هي التي هاجمها ثيودور أحد أنصار الصور المتأخرين، ويوضح القديس يوحنا الدمشقي وجهة نظر هؤلاء الرهبان في قوله ((نحن نطيع الإمبراطور فما يتعلق بحياتنا اليومية، أي في الولاء والغريبة وما يحق له علينا من الجبايات. أما في الحكومة الكنسية فإن القسيسون والمبشرون بالكتاب المقدسي وسارحوا القوانين الكنسية، فالتقدم السياسي من اختصاص الإمبراطور أم التنظيم الكنيسي فهو من اختصاص القيسين والمعلمين، وليس تجريدهم منه إلا من قبيل اللصوصية،[3] وإذ كانت مصر والشام والعراق قد انفصلت عن جسد الدولة البيزنطية ولم يبق فيها إلا الولايات الارثوذكسية فإن لم يعد

١ - بينز، المرجع السابق، ص٣٧٦.
٢ - العدوي، الحدود الإسلامية، ج٣، ص٣٤٧.
٣ - بينز، المرجع السابق، ص٣٧٥.

هناك مجالاً لأن يتدخل الأباطرة تدخلاً مستمراً عنيفاً كما كان الحال في القرنين الخامس والسادس الميلاديين حين كان في الدولة ارتذوكسية وغيرهم.

وقد نهض النزاع حول الصور بالتفكير اللاهواتي البيزنطي حتى يقول بينز "أن الكنيسة الارثوذكسية خرجت من نزاع اللايقوانية ارثذوكسية أكثر من يوم مضى"،[1] ويحكي ثيوفاينس أن يهودياً عرافاً من اللاذقية قال ليزيد بن عبد الملك أن خلافته ستمتد أربعين عاماً أن هو كسر الصور التي في الكنائس النصرانية بمملكته ويقول ثيوفاينس أن هذا كان سبباً في إصدار يزيد أمره بذلك ولكن هذا الأمر لم ينفذ بسبب موت يزيد بعد ذلك بقليل بل بلم يبلغ الأمر سوى في أضيق نطاق ولكن ليو كان على هذا الرأي (الشنيع المخالف للدين) وقد أعانه على نصراني اسمه بشر على أسماء العرب وكان وهو أسير حرب في الشام قد اعتنق الإسلام ثم ارتد بعد أخلاقه وقد بقيت في نفسه أثار منه،[2] ويشك فلهوزان في هذا الأمر من الخليفة إذ لم يعرفه إلا الأقل من الناس أما مجرد نبوة يهودي للخليفة بامتداد حكمة أربعين عاماً فنجدها عند الطبري أيضاً ولكن النبوة لم تتحقق ولم يحكم يزيد إلا أربع سنوات ويرى فازيليف أن التشابه بين الحركة الايقوانية والحركة العقلية في الإسلام في القرنين الثامن والتاسع واضح جلي، وعليه ((فإن دراسة هاتين الحركتين من ناحية أثر إحداهما على الأخرى قد يؤدي إلى نتائج تزعه تغليب العقل في الإسلام القول بخلق القرآن وحين اعتنق بعض خلفاء بني العباس هذا الرأي كانت إحدى البعثات التي توجه إلى مناطق الثغور لفداء الأسرى تشترط إقرار الأسير بخلق القرآن لافتدائه.[3]

وقد تعددت صور العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين، وكانت الثقافة أحد جوانبها وكان أمام الفريقين مورد الثقافة اليونانية وقد أكب على تراثه البيزنطيون من قبل وتمثلوه وعلموه، والتقى المسلمون بهذه الثقافة في الولايات البيزنطية وبعض

---

١ - فازيليف، المرجع السابق، ص١٣.
٢ - فلهوزان، تاريخ الدولة، ترجمة: د. أبي ريده، ص٣١٤.

٣ - فازيليف، المرجع السابق، ص٢٧٨.

الأراضـــي الفارســـية التـــي بســـطوا ســـلطانهم عليهـــا، ويقـــول ديمـــومبين "أن الإمبراطـوريتين الإسـلامية والبيزنطيـة، علـى تنافسـها بحكـم الموقـع الجغرافـي والتقاليد الجغرافية والتقاليد التاريخيـة، نظراً للخلاف الديني، كانت كلتاهما ممثلين للفكر الإغريقي،[١] على أن الدولتين الإسلامية والبيزنطية كانتا تشتركان في مظاهر أخرى، فالوحدات الثلاثة التي قائمة في العصور الوسطى وقتذاك الإسلام، المسيحية اليونانية، والمسيحية اللاتينيـة، كان لكل منهـا رابطـة قويـة من الوحدة الثقافيـة داخل أراضي كل كتلة "وكان الدين في غالب الأمر العامل الأكبر في تحديد تخوم تلك الكتل غير أن هذه الكتل الثلاثة جميعاً كانت وارثة الإمبراطورية الرومانية قد صارت إلى المسلمين في الأراضي التي ورثوها عن الروم تقاليد في القانون والإدارة والمالية بل حتى في الفلسفة والأدب والعمارة"،[٢] وقد كان على المسلمين أن يمضوا في عملية اختيار وانتقاء، ثم إدماج وصهر، حتى يبدعوا ثقافتهم المتميزة.[٣]

رأينا في هذا الفصل أن العلاقات بين الدولتين تميزت بالتبادل الثقافي، حيث تمكن المسلمون من الحصول على المخطوطات اليونانية، وقامت الدولتان بمحاولات لتبادل العلماء وتكوين بعثات علمية مشتركة، كل ذلك كان له تأثيره الواضح في خلق اتصالات ثقافية واسعة، كما ساهمت الحروب التي دارت رحاها على أراضي كلتا الدولتين في إثراء الحياة الثقافية التي تمثلت في ظهور الشعراء والأدباء الذين تحدثوا عنها. كما أدت أيضاً إلى ظهور المجادلات الدينية والفلسفية، إلى جانب الحياة الثقافية كانت هناك صلات تجارية فرضتها الأوضاع القائمة التي قوت إحساس الدولتين الإسلامية والبيزنطية بضرورة وجود اتصالات بينهما تخفق من حدة العداء والصراع الحربي وهذا ما سنتناوله في الفصل الرابع من هذه الأطروحة.

١ - العدوي، الحدود، ج٣، ص٢٥٧.
٢ - جرونياوم، حضارة الإسلام، ص٤٠٦.
٣ - فازيليف، المرجع السابق، ص٢٨٢.

الفصل الرابع

٤,١- تمهيد

٤,٢- العلاقات التجارية بين الدولتين العباسية والبيزنطية

<u>٤,٢,١- مراكز التبادل التجاري</u>

أ- مراكز التبادل التجاري في الدولة العباسية.
ب- المراكز التجارية في الدولة البيزنطية.
ج- وسطاء التجارة.

<u>٤,٢,٢- مظاهر التبادل التجاري</u>

أ- السلع المصدرة.
ب- السلع الواردة.
ج- المكوس.

<u>٤,٢,٣- الطرق التجارية</u>

أ- الطرق البرية.
ب- الطرق البحرية.

<u>٤,٢,٤- العقبات التى أثرت على الصلات التجارية بين الدولتين</u>

أ- الثورات الداخلية.
ب- تأثير الحروب الخارجية.

الفصل الرابع

١,٤ـ تمهيد

أصبحت الدولة الإسلامية باستيلائها على فارس وريثه النشاط التجاري الفارسي في الهند والصين وغيرها من بلاد الشرق، كما أصبحت باستيلائها على الشام ومصر المسيطرة على حوض البحر المتوسط الشرقي فقام المسلمون بالدور التجاري الجديد الذي بنت فيه الدولتان الإسلامية والبيزنطية علاقاتهما على أساس المصلحة المشتركة والتبادل التجاري، بما يكفل لهما تصريف منتجاتها.[١]

لكن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين، وما ترتب على ذلك من نقل عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد البعيدة عن شواطئ البحر المتوسط قلل الاهتمام بشؤون البحر، بعكس الدولة الأموية، إذ نظر العباسيون إلى بعض الموانئ البحرية على أنها حدود ونهايات يقفون عندها لا مجال لنشاط تجاري وسياسي في سيادة البحر،[٢] مما سهل عليهم أن يوجهوا التجارة البحرية إلى مراكزهم التجارية[٣] ولكي يسهل علينا فهم طبيعة الصلات التجارية وخصائصها بين الدولتين العباسية والبيزنطية فلا بد لنا من دراسة أهم مراكز التبادل التجاري بين هاتين الدولتين.

١ - العدوي، الإمبراطورية البيزنطية، ص١١١.
٢ - مؤنس، تاريخ المسلمين، ص٥٥-٥٦.
٣ - لويس، المرجع السابق، ص١٨٥.

٢,٤- العلاقات التجارية بين الدولتين العباسية والبيزنطية

١,٢,٤- مراكز التبادل التجاري

أ- مراكز التبادل التجاري في الدولة العباسية:

كان العامل الجغرافي المتمثل في الموقع الذي امتازت به عاصمة الخلافة العباسية "بغداد" وهو قوعها على ضفتي دجلة والفرات/ دور مهم في دعم مركزها التجاري إذ سهل اتصالها بآسيا الصغرى، سوريا، والجزيرة العربية، ومصر بينما كانت القوافل آسيا الوسطى تصل بغداد عن طريقي بخارى وإيران،[١] وقد عبر الخليفة المنصور عن ذلك قائلاً: ((.. مشروعة للدنيا كل ما يأتي في دجلة من واسط، والبصرة، والايلة، والأهواز، وفارس، وعمان، واليمامة، والبحرين، وما يتصل بذلك فإليها ترقى، وبها ترسو، وكذلك ما يأتي من الموصل، وديار ربيعة، وأذربيجان، وأرمينية، مما يحمل في السفن في دجلة وما يأتي من ديار مصر، والرقة، والشاك، والثغور، ومصر، والمغرب، مما يحمل في السفن في الفرات فيها يحتط وينزل ومدرجة أهل الجبل وأصبهان وكور وخراسان)).[٢]

وفي مقام آخر ينهه بعض مستشاريه إلى أهمية موقعها قائلين: ((... ثم أن الميرة تأتيك في دجلة من ديار بكر تارة ومن البحر، والهند، والصين، والبصرة، وفي الفرات، من الرقة والشام، وتجيئك الميرة أيضاً من خراسان وبلاد العجم في شرق تامراء.[*] وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهار لا يصل عدوك إليك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر أو أخربت القنطرة لم يصل إليك عدوك، وأنت متوسط للبصرة، والكوفة، و واسط، والموصل، والسواد، وأنت قريب من البر والبحر والجبل))،[٤] وسواء أصبحت هاتان الروايتان، أم كانتا من ابتكار

---

١ - فازيليف، المرجع السابق، ص١٧.
٢ - اليعقوبي، البلدان، ص ٢٣٧-٢٣٨.
* - تامرا اسم سرياني: هو أحد فروع نهر دجلة الرئيسي ويعرف بالفارسي حوروان فعرب فقيل نهروان، انظر: جمال بايان، أصول أسماء المدن والموقع الجغرافي، ج١، بغداد، مطبعة المجمع الكردي، ١٩٧٦، ص١٧٩، ٣٣٥.
٤ - محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقي، الضفري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، القاهرة، دار السعاد، ١٩٦٠، ص١٦٢.

الرواة، فهما دليلان على ما كان لموقع بغداد الجغرافي من أهمية من الناحيتين، الإستراتيجية والاقتصادية.

حظيت بغداد بشبكة من الطرق التجارية سهلت الاتصال بينها وبين الهند والصين وغيرها من بلاد الشرق من جهة، وبينها وبين أوربا من جهة أخرى، وهذا ما جعل لها أهمية دولية كبيرة إذ كانت الدولة في العصر العباسي تشرف على عدة بحار: البحر المتوسط والبحر الأحمر، والبحر الأسود، والخليج العربي.

ومن خلال هذا الموقع سيطرت الدولة العباسية على أغلب المناطق الحيوية مما جعلها تدخل في صراع مع الدولة البيزنطية حول الساحل الشرقي للبحر المتوسط والمداخل المباشرة إلى أوربا،[١] لقد أدى هذا الموقع إلى أن أصبحت بغداد سوقاً تجارياً للسلع الآتية من الهند والصين.[٢] فازدهرت بأنواع الأمتعة والسلع، حتى أصبح ميناؤها يعج بحركة السفن النهرية، وقصدها التجار من أجراف بعيدة لممارسة التجارة،[٣] حتى أن الذي يمر بأسواق بغداد في ذلك الوقت، يسمع لغات ولهجات أجنبية مختلفة بين الباعة والصناع،[٤] وقد كانت اللغة العربية بين كل تلك اللغات لغة التجار الأجانب، وقد عرفت بهذا الاسم لأنها كانت معسكراً للقائد حرب بن عبد الله البلخي مولى أبي جعفر المنصور.[٥]

وهذا يؤكد أن عدد التجار البيزنطيين في الدولة العباسية كان كبيراً بحيث خصص لهم حي خاص، بعكس باقي الأجانب، وسهل موقع بغداد الاتصال بالخليج العربي، الطريق التجاري المهم لتجارة الهند والصين الآتية من المحيط الهندي، وأدى هذا الاتصال إلى انحطاط أهمية البحر الأحمر في التجارة، وازدهار مواني الخليج العربي، فكانت سيراف تمثل نقطة الانطلاق للوصول للملاحة الخارجية،

١ - موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ت: إسماعيل العربي، ط٥، الرباط، دار الأفاق الجديدة، ص٢٠-٢١.
٢ - ريجاردكوك، بغداد مدينة السلام، ت: فؤاد جميل ومصطفى جواد، ج١، ط١، بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٦٢، ص٦٩.
٣ - حسين علي المسري، تجارة العراق في العصر العباسي، الكويت، منشورات ذات السلاسل، ١٩٨٢، ص٢٣٣.
٤ - الجو مرد، المرجع السابق، ج١، ص١٩٧-١٩٨.
٥ - كوك، المرجع السابق، ج١، ص٦٩، أنظر أيضاً البلاذري، مصدر سابق، ج٢، ص٣٩٢.

وهي بفضل موقعها على الشاطئ الشرقي للخليج العربي، تعد مخزناً تجارياً كبيراً، لمختلف السلع والبضائع،[١] فهي فرصة لفارسي والهند والصين تتجمع في مينائها السلع فتنقل من ذلك الميناء إلى عدن على البحر الأحمر ثم إلى الصين.[٢]

وأحياناً إلى البحر المتوسط والأسواق البيزنطية، وتعد البصرة مرفأ استيراد للتجارة الشرقية، وأهم ميناء لتصدير السلع الزراعية المنتجة في سواد العراق، والمطلوبة على امتداد سواحل الجزيرة العربية، وبالرغم من الشك في أن تكون البصرة قد أثرت تأثيراً مباشراً في حركة التجارة العالمية، إذ كانت قائمة قناة اصطناعية يستحيل على سفن البحار العالمية عبورها، فقد حظيت بنصيب كبير من تلك التجارة، إذ كانت مستودعاً كبيراً لتجارة المحيط الهندي.[٣]

وازدهرت حلب مركزاً تجارياً مهما يقصده التجارة من الشرق والغرب،[٤] واشتهرت أسواقها بأنواع السلع والأمتعة حتى عرفت بالهند الصغيرة[٥] ومن أهم أسواقها "سوق القماش" الذي يقول عنه ياقوت الحموي: ((ومن عجايب "عجائب" حلب أن في قيسارية البتر عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار..))[٦]، ومن أسواقها أيضاً "سوق الزجاج"[٧]، وتميزت طرابلس الشام بأهمية تجارية عظيمة بخاصة ما يتعلق بالمتاجرة مع البيزنطيين وباقي دول أوربا، إذ يحيط بها البحر من ثلاث جهات، فاشتهرت بكثرة فواكهها بخاصة البرتقال والليمون والسفرجل – وتعيش القدس – المركز الديني – أساساً على وفود المسيحيين الذين يحضرون من أجل زيارة الأماكن المقدسة، واستفاد من ذلك المسلمون، والمسيحيون، واليهود.[٨] من المراكز التجارية المهمة أيضا "ميناء

١ - الجو مرد، المرجع السابق، ج١، ص١٩٨.
٢ -
٣ - شارل بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ت، إبراهيم الكيلاني، دمشق دار النهضة العربية، ١٩٦١، ص٣٣٠.
٤ - ابن هوقل، المصدر السابق، ص٣٣٠.
٥ - شارل بلات، المرجع السابق، ص٣٣٠.
٦ - ناصر فرو، سفر يامه، ت، يحي خشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م، ث ٤٥.
5- R. B. Sergeant, Islamic Textiles, Clebenon, 1972, P 118.
٨ - ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٤٨.

القلزم" Clysma (قرب السويس الحالية) الذي تتجمع فيه المتاجر الواردة من الشرق عن طريق البحر الأحمر ومن الغرب عن طريق البحر المتوسط.

وقد أشار المسعودي إلى السلع التي تدخل إلى هذه المدينة قائلاً: ((... يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين "المتوسط والأحمر" من أنواع الأمتعة والطرائف، والتحف، والطيب، والعقاقير، والجوهر، والرقيق، وغير ذلك من ضيوف المآكل، والمشارب، والملابس، فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها... تحمل السفينة الواحدة مائة بعير))[١] ومنها تنقل البضائع في السفن إلى البحر المتوسط على ظهور الجمال.[٢]

كما مثلت الإسكندرية أكبر المراكز توزيعاً للمنتجات الأسيوية في حوض البحر المتوسط،[٣] أنشئ بها ميناء مجهز بأحواض، وأرصفة، وفنارات، ومصانع لصناعة السفن، ترسو بها السفن الكبيرة وتفرغ فيها حمولتها فازدحم ميناؤها بتجارات الشرق والغرب،[٤] لقد كان العالم التجاري متمثلاً في الإسكندرية خير تمثيل، لذا أطلق عليها عروس البحر المتوسط، إذ يتفرع ميناؤها إلى فرعين شرقي وغربي، عرف الميناء الشرقي باسم ميناء السلسة بسبب السلسلة التي كانت تعترض بمداخله أثناء الليل، وخصص هذا الفرع للسفن المسيحية، أما الميناء الغربي فقد خصص لسفن المسلمين القادمة من المغرب والأندلس،[٥] واكتسبت المرية شهرة منذ إنشائها ميناءً للتجارة العالمية وقد وصفها ياقوت الحموي بأنها: ((باب الشرق منها يركب التجار وفيها تحل مراكب التجار وفيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب))[٦] وعنها قال الإدريسي: ((لم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالا

١ - المسعودي، التنبيه، ص١٩-٢٠.
٢ - هايد، المرجع السابق، ج١، ص٢٣.
٣ - بينز، المرجع السابق، ص ٢٨٢.
٤ - لوميار، المرجع السابق، ص ٩٥.
٥ - موريال، المرجع السابق، ص١٦٩.
٦ - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٨، ص٤٢.

ولا أتجر منهم في الصناعات وأضاف التجارات تعريفاً وادخارا...)). [١] وتعد ((جزيرة ابن عمر)) من المراكز التجارية المهمة التي تجمع بها السلع التجارية بخاصة الآتية من بيزنطة وأرمينية، وقد وصفها ابن حوقل بأنها: ((فرضه أرمينية وبلاد الروم ونواحي ميارقين "Martyropoils"[*] و أرزن،[*] وتصل منها إلى الموصل المراكب مشحونة بالتجارة، كالعسل، والسمن، والجبن، والجوز، والبندق، والزبيب، والتين، إلى غير ذلك من الأنواع))[٢] وكانت المنقطة الحدودية التي عرفت باسم الثغور من المراكز التجارية كبيرة الاستهلاك، لأن أسواقها التي تمون الجيوش في حاجة دائمة إلى الخيل، والمواد الغذائية، والملابس، والأسلحة، ومواد البناء، مما جعل هذه المنطقة في حاجة لجهد دائم لأن حصونها كانت تهدم ثم تبنى، ويتم إجلاء سكانها عنها، ثم تعمر مجدداً.[٣]

وبلغ النشاط التجاري بين الدولتين الإسلامية والبيزنطيين في العصر العباسي الأول أوجه أيان القرن العاشر الميلادي، وغدا مألوفاً ارتياد التجار المسلمين والبيزنطيين أراضي الدولتين والإقامة في المدن الهامة بها.

ومن تلك المدن التي ازدهرت وأضحت نموذجاً لمراكز التبادل التجاري مدينة طرابيزون، فكانت هذه المدينة من أهم الأسواق التي وقد منها التجار المسلمون منذ العصر العباسي الأول وعادوا منها محملين بالمتاجر البيزنطية مخترقين الممرات الجبلية في طريقهم إلى ملطية وغيرها من المدن الواقعة على الفرات الأعلى وضمت طرابيزون كذلك أكبر جالية إسلامية أقامت في أرض البيزنطيين، وكانت حركة التبادل فيها قائمة على قدم وساق، فترد إليها من القسطنطينية المنسوجات الصوفية والكتانية التي استوردها المسلمون بكثرة، فضلاً عن الثياب والأكسية

١ - ر. بلاشر، منتجات الجغرافيين في العصور الوسطى، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٢، ص١٩٩.
*- ميارقين: تقع في أعلى الفرات، أنظر: العريني، المرجع السابق، ص ٣٠٣.
*- أرزن: مدينة أرميينة بالقرب من مدينة قارص وهي أرخروم الحالية، كانت مزدهرة بالتجارة التي تبحر في مياه البحر الأسود، أنظر: ابن حوقل المصدر السابق، ص٣٠٠-٣٠٢.
٢ - ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٢٠٢-٢٠٣.
٣ - لومبار، المرجع السابق، ص٢٠٢.

البيزنطية ولاسيما الديباج البيزنطي الذي اشتهر بجودته وتفوقه على غيره من المنسوجات وحمل إليها التجار المسلمون، مقابل ذلك، المتاجر الشرقية ومنتجات بلادهم.[١]

ب- المراكز التجارية في الدولة البيزنطية:

قدر للدولة البيزنطية أن تتمتع بازدهار اقتصادي عظيم، بسبب موقعها الجغرافي، إذ كللت القسطنطينية حلقة الوصل بين قارتي آسيا وأوربا،[٢] وفيها التقت جميع الطرق التجارية من الشمال، والجنوب والشرق والغرب، وعبر القلقشندي عن أهمية موقعها وازدهار تجارتها فقال: ((واكتناف البحر لها من كل جانب بحيث يحمل إليها على ظهره كل مما لا يوجد فيها، فبلاد الروم إذا غلبت وأقحطت كانت كسعر الشام إذا أقبل وأرخص)).[٣]

وقد قامت القسطنطينية بدور الوسيط التجاري بين الدولة العباسية والغرب المسيحي، فكانت موزعاً للمواد الأولية،[٤] وسوقاً تجارية مزدهرة، ومن أسواقها سوق "بيله" الذي يقام مرة في أول الربيع من كل عام ويستمر مدة أربعين يوماً وهو من أشهر الأسواق، تأتيه الناس من المناطق البعيدة، ويبذل التاجر غاية جهده كي يدركه،[٥] وكان سوق "ثيودسيوس" من أهم الأسواق في تجارة المعادن الثمينة، وقد فرضت الدولة على تجار الذهب والفضة أن يقيموا متاجرهم فيه،[٦] وقد وصف "بنيامين الطليطي" الحركة التجارية في أسواق القسطنطينية وكثرة من يتردد عليها من تجار: العراق، والشام، ومصر، وبلاد فارس، ومن الروس، والبلغار، والخزر، وإسبانيا، فامتلاك أسواقها بالسلع الفاخرة فهي في ازدهارها وثرائها لا يمكن أن

---

١ - ابن خراذبه، المصدر السابق، ص١٥٣.

2- Charles Diehl. Byzantium: greatness and Declines, TR. By N, Welford New Brun swick Nj. 1957, P70.

٣- لويس المرجع السابق، ص ٢٦.

٤- القلقشندي، المصدر السابق، ص٣٣٩.

٥- القزويني، المصدر السابق، ص٥٣١.

٦- صبره، المرجع السابق، ص٢٠٣.

تقارن بأي مدينة أخرى باستثناء بغداد،[١] وأثنى المقدسي على جمال أسواقها وكثرة فواكهها، ورخص أسعارها وشبهها بمدينة البصرة، وإن كانت البصرة أصغر منها، واشتهرت "سالونيك" بنشاطها التجاري، حيث كان يقام فيها سوق يعرف بسوق القديس "سانت ديمتريوس" وهو سوق موسمي يعرض فيه التجار بضائعهم في محلات أقيمت من خشب وقماش سميك، تباع فيه الأقمشة الحريرية المصنوعة من بوؤتيا وكورنت، والجلود والملح الآتية من كارباثيا،[٢] وتمتعت طرابيزون الواقعة على ساحل البحر الأسود بميناء تجاري[٣] يتجمع به التجار ومنه تعبر السلع التجارية كالديباج وثياب الكتان الرومي، وثياب الصوفي، والأكسية الرومية إلى الدولة العباسية،[٤] وحصلت بيزنطة على أموال طائلة من ذلك الميناء على شكل مكوس وضرائب مثلث مصدراً مهماً من مصادر دخل الدولة، وتشبه معارض وأسواق "طرابيزون" معارض وأسواق "اللامس" على الحدود الإسلامية البيزنطية التي كانت توفر فرصاً عظيمة الفائدة، يلتقي فيها ممثلو الدولتين العباسية والبيزنطية بخاصة أثناء تبادل الأسرى بينهما،[٥] لقد جعل البيزنطيون طرابيزون الميناء الوحيد، الذي تدخل منه التجارة العربية إلى أراضي دولتهم، وهذا يعني تحويلهم لتجارة الحرير والتوابل التي يحتاجون إليها، إلى طريق العراق الذي لا يهددهم منه الدرجة الثانية.[٦]

وانتقلت السلع التجارية من "طرابيزون" إلى القسطنطينية التي كانت أكبر مراكز تصدير التجارة في حوض البحر المتوسط،[٧] ومن ثم قام التجار بجلب هذه البضائع إلى الدولة العباسية واشتهرت سيواس "سبطية" بكثرة خيراتها وثمارها، وكانت الملتقى الرئيسي لمعظم التجار من المسلمين والمسيحيين، وكانت هناك أيضاً

١- المقدسي، المصدر السابق، ص ١٤٢.

2 - Diehl, Byzantium: greamess, P71.

٣- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٨، ص٤٢.
٤- ابن حوقل، المصدر السابق، ص٢٩٥.
٥- لومبار، المرجع السابق، ص٣٣٩.
٦- لويس المرجع السابق، ص ١٤٠-١٤١.
٧- المرجع السابق نفسه، ص١٨٩.

موانئ طرسوس والأناضول وافسوس.[١] كانت الدولة البيزنطية على قدر كبير من الرخاء، فاعتاد التجار المسلمون الذهاب إليها الممارسة التجارة، ونتيجة لنشاطهم التجاري الكثيف كونوا جالية إسلامية وحددت مدة إقامتهم بثلاثة أشهر، وكانت تلك الإقامة في مكان واحد يسمى الخان "الفندق".[٢]

واشتق اسم الفندق من الكلمة اليونانية "Pandakaion" التي تفيد المعنى نفسه، وهذا يدل على كثرة التعامل والاتصال مما جعل بعض كلمات من لغة تتنقل إلى اللغة الأخرى، يتكون الفندق من طابقين، تعرض في طابقه الأرضي السلع، وفي أعلاه غرق لمبيت التجار،[٣] وكان التجار في هذا الفندق يخضعون لمراقبة شديدة من قبل موظفي الدولة في النقابات التجارية وكان عليهم أن يبادروا ببيع ما لديهم من السلع في سرعة وشراء متاجر أخرى، أما ما لم يبع من البضاعة، فينبغي على التاجر المسلم أن يخبر به والي المدينة لإجراء ما يلزم للتخلص من الفائض.[٤]

لقد دفع التشابه بين الدور الذي لعبه "والي المدينة" في الأسواق البيزنطية، وبين مهام "المحتسب" في الدولة الإسلامية بعض المستشرقين إلى محاولة ربط وظيفة المحتسب وكتب الحسبة عند المسلمين بما يقابلها عند البيزنطيين، ففي الدولة العباسية كان المحتسب يتولى الإشراف على الأسواق التي تعددت أنواعها فاشتملت على سوق البزازين لبيع الأقمشة والمنسوجات، سوق الجواهر، سوق الغنم، سوق الصيارفة، سوق الخبازين، سوق العطارين، وغيرها من الأسواق.[٥]

ومن واجبات المحتسب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراقبة الباعة، ومنعهم من التلاعب بالأسعار، والموازين، والمكاييل، والمقاييس، فهو بذلك يعمل

١- القزويني، المصدر السابق، ص٥٣٧.

2 - Diehl, Byzantium: greamess, P71.

٣- ادم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ت، محمد عبد الهادي أبوريدة، ج٢، ط٤، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، ص٣٨٧.

٤- الشيزري، المصدر السابق، الملحق الرابع من كتاب الحسبة في بيزنطة، ص ١٥٥.

٥- محمد بن محمد القرشي، المعروف بابن الأخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة، نقله روبن ليوي، كمبردج، دار القنون، ١٩٣٧، ص٩٩، ١٠١، ١٣١، ١٤٣.

على منع التجار من الغش، الغبن، والفحش، والخيانة، بين الناس في معاملاتهم، ومبايعاتهم، والتنبيه عليها.[١] وإذا أراد المحتسب أن يكون عمله أكثر دقة في ضبط المخالفين، عين على كل صنعة عريفاً، على أن يكون هذا العريف على اتصال دائم بالمحتسب يوافيه بأخبار ما يجلب إلى السوق من المتاجر، وأسعارها،[٢] ويقدم هذه المعلومات في تقارير إلى المحتسب الذي من واجباته أيضاً منه الاحتكار أي تخزين الطعام حتى يأتي وقت غلاء سعره فيضطر الناس لشرائه لحاجاتهم له.[٣]

وكان ذلك هو شأن الأوضاع التجارية في الدولة البيزنطية، فتعددت أسواقها وانتظمت فيما يعرف بالنقابات التجارية التي تتمثل في نوعين: نوع يعمل على سد حاجات الأسواق المحلية، وتوفير أسباب الحياة للناس مثل نقابة الخبازين، الجزارين، الخياطين، الحدادين وغيرها، ونوع أخر تعد صناعته للتصدير، ويخضع هذا النوع لسلطة الحكومة وسيطرتها مثل صناعة الأقمشة الحريرية، والأسلحة والمتاجرة في الرقيق.

وقد اشتمل تشريع النقابات على مبادئ تؤدي إلى الاستقرار التجاري، والرقابة على السلع التجارية، وتهيئة الفرص لاتساع التجارة، مثلما اتخذ المحتسب في الدولة العباسية عريفاً عين والي المدينة مندوباً للإشراف الدقيق على ما تمارسه النقابات التجارية من أعمال، والتفتيش على الموازين، والمكاييل، وفحص السلع، وعلى والي المدينة منع مزاولة النشاط التجاري أيام الأعياد والآحاد كما كان يمنع التجار من تخزين السلع لأوقات الشدة، كي يجنبوا من وراء ذلك ربحاً فاحشاً.[٤]

١- أبو الحسن علي الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، المطبعة المحمودية التجارية، ١٩٦٠، ص ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٩.

٢- ابن الأخوة، المصدر السابق، ص٢١٩، انظر أيضاً: ابن بسام المحتسب، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، حققه حسام الدين السامرائي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٨، ص١٨.

٣- المصدر السابق نفسه، ص ١٨، ٢٠.

٤- الشيزري، المصدر السابق، الملحق الرابع من كتاب الحسبة في بيزنطة، ط١٤١، ١٤٣، ١٦٢.

وهو ما يعرف في التاريخ الاقتصادي الإسلامي بالتاجر الخزان[١] كما ينهي عن رفع الأسعار، حتى لا تتجاوز الحد المناسب، ويتعرض من يخالف هذه القوانين لعقوبات مختلفة، كالجلد، وقص الشعر، ومصادرة ما اخترته من السلع.[٢]

ج- وسطاء التجارة:

كان للمسحيين نشاط ملحوظ في التجارة بين الشرق والغرب، وكان أغلبهم من السوريين الذين تقوم تجارتهم على استيراد السلع وتوزيعها في الغرب الأوربي، كانت مراكزهم التجارية في الشرق، لكن اليهود – بسبب حيادهم في الصراع بين المسلمين والبيزنطيين – أبعدوهم تدريجياً عن التجارة البحرية، ((البحر المتوسط، المحيط الهندي)) فلم تبق لهم أهمية إلا في التجارة البرية في كل من مصر وسوريا، بلاد ما بين النهرين، أرمينية، إيران، آسيا الوسطى،[٣] وزادت أهمية دور اليهود في تجارة العصور الوسطى، لأن الكنسية أدانت ممارسة التجارة للأفراد الذين لم تجد لهم مكاناً في النظام الاجتماعي في مجتمع زراعي إقطاعي ولما كان اليهودي ممن لم يكن من حقه أن يمتلك أرضاً ركز حل نشاطه في التجارة، فكان يتنقل من بلد إلى آخر ببضائعه،[٤] هذا إلى جانب ما اشتهر به اليهود كصاغه.[٥]

وفي الدولة البيزنطية كانت فلسطين، ومصر، وبلاد ما بين النهرين، من المراكز المهمة التي تركزت، فيها جماعات كبيرة من اليهود كما انتشروا في إيطاليا وإسبانيا وقد تعرضت أغلب الجماعات اليهودية في هذه المناطق للاضطهاد مما اضطرها إلى الهجرة إلى البلاد الإسلامية وعملت الدولة البيزنطية على نفي الكثير منهم من القدس على وجه الخصوص، وعمدت إلى حمل آخرين على اعتناق

١- أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، حققه البشري الشوريجي، ط١، القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية للنشر، ١٩٧٧، ص٧٠.
٢- الشيزري، المصدر السابق، المحلق الرابع من كتاب الحسبة في بيزنطة، ص ١٣٥.
٣- لومبار، المرجع السابق، ص٣٠٥.
٤- سوريال، المرجع السابق، ص ١٨٥-١٨٦.
٥- الشيزري، المصدر السابق، المحلق الرابع من كتاب الحسبة في بيزنطة، ص ١٤٢.

المسيحية بالقوة، وفر اليهود المقيمون في صقلية من سيطرة بيزنطة،[١] وفرضت قيود على من بقى منهم، حيث منعوا من شراء الحرير الخام حتى لا يقوموا بتهريبه، وبسبب التعصب الديني منع اليهود في بيزنطة، وغرب أوربا من الالتحاق بالنقابات التجارية بينما جاز لهم ذلك في الدولة الإسلامية.

وأقام اليهود في بيزنطة في أحياء خاصة على أنهم جاليات أجنبية،[٢] وبالرغم من تناثر تلك الجماعات في بقاع مختلفة، إلا أن شعورها بالاضطهاد والأقلية، قوى من إحساسها بضرورة تقوية سبل الاتصال، وخلق روابط متينة بينها، الأمر الذي ساعد على تكوين طبقة من التجار دفعتهم روح تأكيد الذات وحب الكسب إلى العمل على تطوير وتحسين أساليبهم التجارية وكانت تلك الجماعات بعد الفتح الإسلامي مهيأة لتلعب دوراً مهماً في التجارة العالمية واتخذت من بغداد مركزاً لممارسة ذلك النشاط وأقامت في حي "الكرخ".[٣]

كما خصصت لهم أحياء في باقي مدن الدولة الإسلامية وذلك من أجل سهولة مراقبتهم، كما كان لهم رسل ينبهونهم إلى وصول القوافل التجارية، ونوعية السلع التي تنقلها، وسهلت مراكز اليهود التجارية القديمة وخبرتهم، مهمتهم للقيام بدور تجاري مهم في العصر الإسلامي فحلوا محل منافسيهم من المسيحيين السوريين في التجارة،[٤] لقد كانت التجارتان البرية والبحرية من اختصاص اليهود الراذانية، الذين كانوا يشكلون عدة جماعات موزعة على ضفاف أنهار، الموز، والرون، من فردان، وليون حتى أرك، وتبرونه الميناء الكبيرة،[٥] وشمال أفريقيا ومناطق معينة من آسيا وبيزنطة واعتمدوا في تجارتهم على بضائع الترف "الكماليات" مثل الأحجار الكريمة، والأدوات الفضية، والحرائر، والمنسوجات الفاخرة، والسجاجيد،

١- لومبار، المرجع السابق، ص ٣٠٧-٣٠٨.
٢- الشيزري، نهاية الرتبة، المحلق الرابع من كتاب الحسبة البيزنطية، ص١٤٢.
٣- لومبار، المرجع السابق، ص ٣٠٩-٣١٠.
٤- المرجع السابق نفسه، ص ٣١٣، ٣٠٩.
٥- المرجع السابق نفسه، ص ٣٠٩.

وكذلك تجارة الحبوب، والسكر، وتجارة التوابل، والعقاقير الطبية، والذهب، والمتاجرة بالرقيق من بلاد الصقالبة، ود المشايا عن طريق تجار إيطاليين، أو صقالبة، من بلدان أوربا الوسطى، أو من أواسط آسيا.[١]

واشتهر هؤلاء اليهود بمعرفتهم الطرق التجارية فهم من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق براً وبحراً كما اشتهروا بإتقانهم عدة لغات كالعربية، والفارسية، والرومية، الفرنجية، والأندلسية، والصقلية،[٢] وكثيراً ما حصل التجار اليهود على إعفاءات ضريبية بالكتابة وتقديم التماس بالخوص إلى الخليفة العباسي.[٣]

لعب الخزر - الذي قامت دولتهم جنوب روسيا عند حوض نهر الفولجا- دور الوسيط التجاري على طول طريق وسط آسيا، فقد كان هؤلاء الخزر حلفاء مخلصين للدولة البيزنطية منذ عصر الإمبراطور "جستيان الأول ــ ٥٢٧-٥٦٥م" الذي حاول إبعاد التجارة عن طريق بلاد فارس، بتوجيهها نحو الشمال، وفتح طريق شمالية لبضائع الصين وفي مقدمتها الحرير، وتزوج الإمبراطور جستيان "٨٦-٩٣هـ/ ٧٠٥-٧١١م" إحدى أميرات الخزر، ولجأ إلى تلك المملكة عقب طرده من العاصمة سنة "٧٦هـ-٦٩٥م"[٤] وربما كان زواج الإمبراطور قسطنطين الخامس وابنه خاقان الخزر بالإضافة إلى ضمان تحالفهم السياسي والحربي،[٥] تعزيز العلاقات التجارية بينهم فقد أتاحت كل هذه التحالفات للبيزنطيين أن يجدوا طرقاً أخرى بخاصة أن دولة الخزر تقوم أساساً على التجارة،[٦] فيجلبون من أرثا(*)

١- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام "القرون الوسطى" ت: أسعد وفريد داغر، ط١، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٦٥، ص١٩٢.
٢- ابن خرداذبه، المصدر السابق، ص ١٥٣.
٣- لومبار المرجع السابق، ص٣١٥، للمزيد من التفاصيل انظر:
C- Verlinden ((les Radaniya: diaires commeriaux enter les mondes germane-slave ET cre'xo-Arabe)) in graeco – Arabica yol V1 "Arhens, 1995", PP 112:119.
٤- لويس، المرجع السابق، ص٥٢.
٥- رستم، المرجع السابق، ج١، ص٢٩١.
٦- لويس، المرجع السابق، ص٦٤.

السمور الأسود والرصاص، وتنقل هذه السلع إلى البيزنطيين، أي أن الخزر كانوا وسطاء التجارة بين الروس والبيزنطيين وبين الدولة العباسية وشرق أوربا، وبلغ من قوتهم أنهم فرضوا ضريبة العشر على جميع الواردات التي يصدرونها للبيزنطيين.(١)

قسمت عاصمة أتل **"Atl"** إلى قسمين: يسكن الملك وحاشيته القسم الغربي، وخصص القسم الشرقي للمسلمين ومتاجرهم،(٢) ووصف المسعودي الحركة التجارية في عاصمتهم التي تشرف على نهر الحزر قائلاً: ((وتجري في هذا النهر العظام بالتجارات وأنواع الأمتعة من بلاد الخوارزم وغيرها، ومن بلاد برطاس(*) تحمل جلود الثعالب السود وهي أفضل الأوبار وأكثرها ثمناً، ومنها الأحمر والأبيض الذي لا يفضل بينه وبين الفنك الخلنجي(*) وشرها المعروف بلا عرابي وليس يوجد الأسود منها في العالم إلا في هذا الصقع ويتباهى ملوك الأمم من الأعاجم بلبس هذه الجلود ويتخذ منها القلانس والفراء ويبلغ الأسود منها الثمن الكثير وربما يحمل إلى أرض الصقالبة ثم إلى بلاد الفرنجة والأندلس ويصادر بهذه الجلود من السود والأحمر إلى بلاد المغرب..)).(٣)

ومن خرسون قام الخزر بتصدير السلع البيزنطية مثل الحرير والتوابل إلى روسيا وممتلكاتها، وظل ثغر خرسون أكبر منفذ لتجارة الفراء، الرقيق، وسائر المنتجات الروسية، التي خضعت لإشراف الخزر وتحكمهم وسطاء ونتيجة لأهمية هذه التجارة ازدادت أهمية المراكز التجارية الروسية مثل نفجورود(٤) وكيف

---

*- ارثا: مدينة في روسيا يحي أهلها الأثارينة، ويقيم ملكها بأرثا، أنظر: د.م دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ت: سهيل زكار، ط٢، دمشق، دار حسان للنشر، ١٩٩٠، ص١٤٦.
١- ابن حوقل، المصدر السابق، ص٣٣٢، ٣٣٦.
٢- أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الاصطغري، مسالم الممالك، ليدن، مطابع أبريل، ١٩٦٧، ص١٣٠.
*- بلاد البرطاس: أمه متاخمة للخزر، وهم قوم يقطنون وادي اتل Atl وبرطاس اسم الناحية، أنظر: دنلوب، المرجع السابق، ص١٤٣.
*- الخلنجي: المقصود به الفراء البني الذي يشبه لونه خشب الخلينج وهو نوع من الشجر، أنظر: أبو عمر عثمان بن بحر الجاحظ، التبصر بالتجارة، حققه حسني عبد الوهاب، ط٢، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣، ص٢٨.
٣- المسعودي، التنبه، ص٥٥.
٤- لويس، المرجع السابق، ص ١٨٥، ٢٦٥.

"كوباية"، التي تكمن أهميتها في تحكمها في حوض نهر الدنيبر، مما جعلها تتحكم أيضاً في الطريق المؤدي إلى البحر الأسود وبيزنطة.[١] ويوجد نص مشهور لابن خرداذبه أحد الجغرافيين العرب يتضح منه أن البقية الباقية من تجار غرب أوربا كانت في أيدي اليهود، الذين كانوا بحكم مركزهم الاجتماعي خير وسيط لنقل هذه المتاجر إلى شرق أوربا وإلى القسطنطينية[٢] وأطلق المسلمون على أولئك التجار اليهود اسم "تجار البحر"، إذ كانوا يخرجون من مقاطعة بروفاش بفرنسا "أو فرنجة" ومعهم الجواري والغلمات والديباج الخز والفراء والسمور والسيوف ثم يسافرون بحراً إلى الفرما، حيث ينقلون متاجرهم على ظهور الدواب إلى القلزم، ومن هناك يستأنفون رحلتهم بحراً إلى الهند والسند والصين،[٣] ((فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي أي البحر المتوسط فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها إلى الروم)).[٤]

وبلغ النشاط التجاري بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية أوجه إبان القرن العاشر الميلادي، وغدا مألوفاً ارتياد التجار المسلمين والبيزنطيين أراضي الدولتين والإقامة في المدن الهامة بها، ومن تلك المدن التي ازدهرت وأضحت نموذجاً لمراكز التبادل التجاري مدينة طرابيزون، فكانت هذه المدينة من أهم الأسواق التي وفد إليها التجار المسلمون منذ العصر العباسي الأول وعادوا منها محملين بالمتاجر البيزنطية مخترقين الممرات الجبلية في طريقهم إلى ملطية وغيرها من المدن الواقعة على الفرات الأعلى، وضمت طرابيزون كذلك أكبر جالية إسلامية أقامت في أرض البيزنطيين. [٥]

١- عبد العزيز الدوري (الجغرافيون العرب وروسيا) مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ١٣، بغداد، ١٩٦٦.
٢- العدوى، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص١٢٦.
٣- ابن خرداذبه المصدر السابق، ص١٥٣.
٤- المصدر نفسه، ص١٥٤.
٥- ابن خرداذبه، المصدر السابق، ص

وكانت حركة التبادل فيها قائمة على قدم وساق، فترد إليها من القسطنطينية المنسوجات الصوفية والكتانية التي استوردها المسلمون بكثرة، فضلاً عن الثياب والأكسية البيزنطية ولاسيما الديباج البيزنطي، وحمل إليها المسلمون مقابل ذلك المتاجر الشرقية ومنتجات بلادهم،[١] وبدأ تنظيم الأسواق الإسلامية والبيزنطية، والإشراف على نشاط التجار بها والقوانين التي وضعت لها، على ازدهار التبادل التجاري ومحاولة كل دولة أن ترعي مصالحها الاقتصادية ولم يقتصر المسلمون والبيزنطيون على التبادل التجاري بينهما فحسب، وإنما تسابقوا كذلك إلى إدخال أسواق جديدة في دوائر نفوذهم يعرفون فيها متاجرهم ويجلبون منها ما بها من منتجات طبيعية ففي القرن العاشر الميلادي، اشتد التنافس بين المسلمين والبيزنطيين على السيطرة على أسواق بلاد الروس (الصقالبة) وكان المسلمون على اتصال سابق بهؤلاء الأقوام قبل ذلك بقرن تقريباً،[٢] في الوقت الذي راجت فيه المتاجر البيزنطية والإسلامية في بلاد الروس ظهرت قوى جديدة على المسرح التجاري، وأخذت تعمل عملها حتى أودت في النهاية بالموضع التجاري الذي كان سائداً بين المسلمين والبيزنطيين في العصر العباسي الأول.

١- آدم منز، المرجع السابق، ج٢، ص٣١٢.
٢- المرجع السابق نفسه، ج٢، ص٣١٤.

٢,٢,٤- مظاهر التبادل التجاري

أ- السلع المصدرة:

كان أول شي وضعه المسلمون والبيزنطيون نصب أعينهم المحافظة على الأوضاع الاقتصادية في مناطق الشرق الأدنى المطلة على حوض البحر الأبيض الشرقي، لما تقوم به تلك المنطقة من دور فعال في حركة التبادل التجاري بينهما، فكانت هذه المنطقة تتحكم في أطراف الطرق التجارية الآتية من بلاد الشرق الأقصى سواء البحرية منها أو البرية.[١]

وكان لموقع الدولة العباسية الجغرافي الذي أشار إليه والذي يمثل وجود الأنهار وخصوبة التربة، الأثر الواضح في ازدهار الزراعة بالدولة فأصبحت تتمتع بخيرات وفيرة أدت إلى تطور أسياقها فتنوعت فيها السلع التجارية سواءً أكانت زراعية، أم صناعية، كما وصلت إليها العديد من منتجات الهند، والصين، وكذلك سواحل أفريقيا الشرقية، وتأتي التوابل، والبخور، والعطور،[٢] على رأس قائمة السلع المطلوبة في العصور الوسطى، بل إن شدة الطلب عليها، كثيراً ما حركت الأساطيل وتسببت في قيام الحروب من أجل السيطرة على مصادرها وتأمين الطرق التي تمر بها، وضمان وصولها في العصور الوسطى، بل إن شدة الطلب عليها، كثيراً ما حركت الأساطيل وتسببت في قيام الحروب من أجل السيطرة على مصادرها وتأمين الطرق التي تمر بها، وضمان وصولها إلى الأسواق، وقد زاد الإلحاح على طلب التوابل، ولم يعد استعمالها مقتصراً على حفظ الأطعمة وتحسين مذاقها، بل دخلت في صناعة العقاقير الطبية، كما استعملت في الكنائس وأصبحت ضرورية، فقد رق ذوق البيزنطيين، حتى أصبح من العسير عليهم الحياة من دونها.[٣]

١- لويس، المرجع السابق، ص٢٦٦.
٢- الخلنجي، المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩.
٣- سونياهو، في طلب التوابل، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧، ص ١٨.

وتشمل التوابل: الفلفل، الزنجبيل، الدار الصيني "القرفة" وكان الفلفل أكثر التوابل طلباً وارتفع ثمنه ارتفاعاً كبيراً، فضلاً عن قلته لشدة إقبال الأوربيين عليه، حتى صاروا في العصور الوسطى يشبهون الشيء النادر الغالي الثمن بالفلفل فيقولون: "غالي كالفلفل"، ونتيجة لندرته، وارتفاع ثمنه أصبحت له قوة شرائية يتعامل بها في أحوال معينة، فالرقيق يشتري حريته مقابل أحمال من الفلفل ويتقاضى رؤساء الكنيسة العثور توابل، ويدفع اليهود ضريبة من الفلفل والزنجبيل ليسمح لهم بحيازة مدافن ومدارس،[١] واشتهرت مصر بأنها السوق الرئيسية للتوابل، والمصدر للأسواق الأوربية بأسعار عالية، وخصص شارع رئيس للتوابل أطلق عليه اسم شارع الفلافل،[٢] وعن السلع التجارية المهمة التي تصدرها الدولة العباسية إلى بيزنطة الحرير الذي يقوم إنتاجه على زراعة التوت، وتربية دودة الحرير، فقد كان للحرير أهمية خاصة في الدولة البيزنطية إذ أن ملابس الإمبراطور والطبقة الارستقراطية تصنع منه،[٣] واعتمد نشاط مصانع نسيج الحرير البيزنطية اعتمادً كلياً علة المادة الخام التي تزودها بها الدولة العباسية.[٤]

وما احتكار الحكومة لهذه السلعة إلا دليل على أهميتها، بالإضافة إلى ما كان لها من أهمية في طقوس الكنيسة،[٥] لقد كان التجار المسلمون يتجاوبون مع الحاجات الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها من السلع التجارية الثقيلة الوزن، مثل التوابل، الملح، السكر، وسائر المنتجات الشرقية،[٦] فمن بغداد صدرت الثياب بأنواعها القطنية، والحريرية، والمناديل،[٧] والأقمشة الجرجانية، والأصفهانية، والديبقية، نسبة إلى ديبق المدينة المصرية التي تصنع بها المنسوجات،[٨] والعتابية،

١- سويناهو، المرجع السابق، ص٢٢-٢٣.
٢- عبد القادر اليوسفي، العلاقات بين الشرق والغرب، بيروت، المكتبة المصرية، ١٩٦٩، ص٢٦٢.
٣- الشيرزي، المصدر السابق، المحلق الرابع من كتاب الحسبة في بيزنطة، ص١٣٥.
٤- لومبار، المرجع السابق، ص٢٧٢.
٥- الشيزري، المصدر السابق، الملحق الرابع من كتاب الحسبة في بيزنطة، ص١٣٥.
٦- لومبار، المرجع السابق، ص٢٧٢.
٧- الشيزري، المصدر السابق، المحلق الرابع من كتاب الحسبة في بيزنطة، ص١٣٥.
٨- سوريال، المرجع السابق، ص١٨٧.

كما صدرت المنسوجات السورية مثل ملابس حيفاء القطنية، والأردية، والسجاد والصوف، والحقائب.[١] ومن مصر والشام تأخذ كميات كبيرة من السكر طريقها إلى بيزنطة ومنها إلى الغرب الأوربي، كما صدر أيضاً من مصر وسوريا الزجاج والورق،[٢] وصدرت الملابس الداخلية، والعباءات المخططة والأثواب ذات الأكمام والأثواب البغدادية،[٣] والطنافس الفارسية والسجاجيد والحبوب من مصر والنبيذ الفاخر من سوريا. [٤]

على أن الدولة البيزنطية انفردت بتصريف بعض منتجاتها المحلية وأشهرها النبيذ إلى سكان الأراضي المتاخمة لحدودها الشمالية، واستوردت منها منتجاتها الطبيعية التي ساعدتها على اتصالاتها التجارية بالدولة الإسلامية وترجع الأسس الأولى التي استندت إليها بيزنطة في نشر نفوذها في الطريق البحري إلى المدن البيزنطية القائمة على الساحل الشمالي للبحر الأسود، فكان الفراء والسمك الجاف يأتي من مناطق الاستبس إلى مدينة خرسون حيث ينقل إلى القسطنطينية، ويعود التجار إلى تلك المناطق محملين بما يحتاجون إليه من منتجات الدولة البيزنطية. [٥]

انعكست آثار هذا النشاط التجاري الإسلامي البيزنطي، فتدفقت عليها المنتجات الشرقية وتولت تصريفها بقدر للمالك التابعة لهم في أوربا وغيرها مستوجبة في ذلك الدفاع عن كيانها التجاري وعدم إتاحة أي منافس لها يشاركها في هذا الميدان، فكانت الواردات التي تصل إلى القسطنطينية، تجد طريقها إلى أوربا في سفن التجار البيزنطيين وغيرهم من الشعوب الموالية لهم، وغدا هذا الطريق البحري أهم المسالك التجارية التي اعتمدت عليها الدولة البيزنطية في تحصيل مكوسها على المتاجر الصادرة منها والواردة إليها، ووجهت الدولة البيزنطية عنايتها إلى إكمال

١- المقدسي، المصدر السابق، ص١٢٩.
٢- لومبار، المرجع السابق، ص٢٧٤، ٢٧٩.
3- serjeant, op, cit, P 118.
٤- لومبار، المرجع السابق، ص٢٧٩.
٥- المرجع السابق نفسه، ص٢٧٩.

سيطرتها التجارية على دول غرب أوربا باحتكار الصناعات التي يمكن أن تقوم علي الواردات الشرقية فكان من أهم هذه الصناعات التي حملت اسم بيزنطة عالياً لدى الدول الغربية صناعة الحرير والمجوهرات والعاج والأحجار الثمينة فكانت المصنوعات الحريرية، جزءاً من سياسة الدولة.[١]

ب- السلع الواردة:

تعد المنسوجات الحريرية رمزاً للسلطة السياسية في الدولة البيزنطية فالسيطرة عليها من الأسلحة القوية التي استخدمها الأباطرة حسبما تقتضي خططهم السياسية فأجازوا أو منعوا كيف ما شاءوا تصدير المنسوجات الحريرية المصبوغة باللون الأرجواني،[٢] واحتفظ البيزنطيون بسر صناعة هذه الأقمشة التي تتغير ألوانها بانعكاس الضوء والتي تسمى عند المسلمين "أبو قلمون"[*]، بخاصة أنهم يرون أن ارتداء هذه الأقمشة لا يسمح به إلا للدولة البيزنطية،[٣] كما صدرت بيزنطة الديباج الرومي القرمزي الملون بخطوط مختلفة مثل البنفسجي في الأحمر، والأخضر، وكذلك الثياب الكتانية والبسط ومن السلع الأساسية في التجارة بين الدولتين المتاجرة في الرقيق، الذي شكل دوراً خطيراً في الحياة السياسية والحربية في الدولة العباسية، فالخليفة المعتصم كان لديه حرس تكون من عدة آلاف من الرقيق التركي، جعلهم جنودا وقواداً،[٤] ومثل أسرى الحرب عنصراً مهماً من عناصر تلك التجارة، وهم من الغنائم، تأخذ الدولة خمسهم لبيت المال، ثم توزع الأربعة أخماس الباقية على الجنود الذين اشتركوا في القتال، وقد سمي هذا النوع من الرقيق "رقيق الخمس"[٥] واستخدمتهم الدولة في جيوشها المقاتلة، لأن هؤلاء الأسرى كانوا عادة من الجنود المدربين على فنون القتال، واستخدمت البعض الآخر

1 - Baynes op, cit, 217.

٢- الشيزري، المصدر السابق، الملحق الرابع من كتاب الحسبة في بيزنطة، ص١٥٥.
*- أبو قلمون، لفظ يوناني معرب، ثوب رومي بتلون ألواناً للعيون، أنظر: الحاجظ، المصدر السابق، ص٣٠.
٣- وسام عبد العزيز فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، القاهرة، الهيئة المصرية للنشر، ١٩٨١، ص٢٧٨.
٤- لومبار، المرجع السابق، ص ٢٧٣، ٢٧٥، ٩٦.
٥- أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، حققه محمد خليل هراس، ط٣، القاهرة، دار الفكر، ١٩٨١، ص٢٣٧.

إدلاء أو مراسلين، كما استخدمتهم أيضاً في حراسة المدينة وحضارتها، وحراسة بعض المؤسسات الحكومية العامة "كالسجون، بيت المال" وأيضاً في حضر النزع وشق القنوات، كما كانت فرق المغنيين والموسيقيين في قصور الخلفاء ومنازل الأثرياء من الرقيق.[١]

ومن أهم أسواق تجارة الرقيق سوق النخاسة في براغ[٢] وفردان التي كانت سوقاً كبيراً لتجارة الرقيق ومركزاً للخصاء، كما كانت أرمينية، وسمرقند، وبخارى، مراكز للخصاء ويدخل الرقيق إلى مناطق فرغاته، والشاش، وبلاد ما وراء النهر، ومن هذه المناطق يعاد توزيعه على أسواق بغداد وغيرها في الدولة الإسلامية،[٣] وكان طلب الدولة الإسلامية قوياً على الأخشاب، بخاصة في بغداد ومصر وبعض دول شمال أفريقيا الأخرى.

فبالإضافة إلى الحاجة للأخشاب في بناء المنازل في المدن ولاستعماله في آلات الري، كانت تلك السلعة ضرورية في بناء السفن التجارية والحربية، وكثيراً ما قامت السفن المصرية والسورية بالإغارة على شواطئ الأناضول التابعة للدولة البيزنطية للحصول على الخشب،[٤] لقد كان الخشب من السلع التجارية التي منعت الدولة البيزنطية تصديرها بخاصة أنها كانت في صراع شبه دائم مع الدولة العباسية، من أجل السيطرة على حوض البحر المتوسط الشرقي كما حظر الأباطرة على التجار تصدير الأسلحة، لكن التجار البنادقة لم يحرموا قرارات المنع أو الحظر في التجارة، بل إن التجارة في هذه السلع صارت مصدراً للأرباح الطائلة كما هو حال التهريب في جميع العصور أوفر مكسباً من التجارة المشروعة.[٥]

١- لومبار، المرجع السابق، ص٢٨٩، ٢٩٠.
٢- بروي، المرجع السابق، ص١٩٢.
٣- لومبار، المرجع السابق، ص٢٩٤-٢٩٥.
٤- المرجع السابق نفسه، ص٢٥٨-٢٥٩.
٥- لويس، المرجع السابق، ص١٧٩.

ومن السلع التي ترد إلى الدولة العباسية من بيزنطة أنواع معينة من الأقمشة الرفيعة الكتانية التي تستورد من تراقيا ومقدونيا، والمواشي التي تستورد من أرمينية وبيزنطة إلى سوريا،[١] كما استورد المسلمون من الدولة البيزنطية التي لعبت دور الوسيط التجاري بين الشمال والجنوب السلع التي تأتي من روسيا ثم تعيد بيزنطة تصديرها إلى المسلمين وتتمثل في فرو الثعالب السود وجلود الخز (الذكر من الأرانب) والبر والعسل والرقيق.[٢]

ج- المكوس:

هي ضريبة عن كل تجارة واردة في البر أو البحر، ولا تؤخذ إلا إذا انتقل التاجر من بلاده إلى بلاد أخرى، وعرفت ضريبة السفن بـ(أعشار السفن) وهي ضريبة على السفن التي تمر ببعض الثغور فيؤخذ منها العشر عينا، أما العشور فهي ضرائب على بضائع التجار الغرباء، إذ قدموا بها من بلادهم إلى ديار المسلمين وقيمتها عشر بضائعهم على أن هذه الرسوم غير ثابتة على حال دائم حسب أهواء المسئولين،[٣] ففرضت على التجار المسيحيين الخمس وعلى المسلمين ربع العشر، وتسمى هذه الضريبة بالمكوس،[٤] وتسمى أيضاً بالمال الهلالي لأنها تجني مع هلال كل شهر عربي،[٥] بالإضافة إلى اهتمام الدولة بتحصيل هذه الرسوم على الطرق البرية والبحرية، حرصت أيضاً على تحصيلها في بعض المراكز التجارية المهمة مثل مدينة البصر وبغداد، وتؤخذ الضرائب التي تبلغ عادة عشر قيمة البضائع التي تمر بها، بعد أن يجرى عليها تفتيش دقيق، وقد أشار المقدسي إلى ذلك بقوله: ((وأما الضرائب فثقيلة كثيرة محدثة في النهر والبر وفي البصر تفتش "تفتيش" صعب وشوكات منكرة وكذلك بالبطائح تقوم الأمتعة وتفتش))[٦] ووجدت

١- لومبار، المرجع السابق، ص٣٤٠.
٢- ابن حوقل، المصدر السابق، ص٣٣٢.
٣- شوقي أبو خليل، الحضارة العربية الإسلامية، ط١، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ١٩٨٧، ص٢٠٠.
٤- ابن سلام، المرجع السابق، ص٢٧١-٢٧٢.
٥- المقريزي، الخطط، ج١، ص١١١.
٦- المقدسي، المصدر السابق، ١٣٣.

الواردات التي تصل إلى القسطنطينية طريقها إلى أوربا في سفن التجار البيزنطيين وأصبح هذا البحر أهم المسالك التجارية التي اعتمدت عليها الدولة البيزنطية في تحصيل مكوسها على المتاجر الصادرة منها والواردة إليها، حيث كانت تجبى في القسطنطينية نفسها الضرائب على الصادرات، في حين تجمع المكوس على السلع الواردة غرب مدينة أبيدوس "Abydos" على الدردنيل، أو في مدينة هيرون "hieron" على البسفور[١] وأعفت الإمبراطورة إيرين الواردات من دفع الرسوم، لكن الإمبراطور نقفور الذي خلفها على العرش، أعاد الضرائب إلى سابق عهدها، بل زاد عليها وأكد أن البضائع خاصة الرقيق الذي يبيعه تجار الغرب في أسواق غرب أبيدوس، لا تفلت من الضريبة المفروضة عليها. [٢] بذلت الدولة البيزنطية جهوداً كبيرة لمنع الاتجار في السلع المحرمة، وذلك بأن جزءات العطاء لمن يقدم أي معلومات عن المخالفين ومن السلع التجارية التي تدفع عليها الضرائب: التوابل، القطن الخام، الجلود، العاج، الأحجار الكريمة، الأصبغة، الأصواف وأخيراً المتاجرة في الرقيق،[٣] وهذا ضاعفت الدولة من مواردها بتحصيل بعض السلع، وبخاصة الحرير الذي عدته من السلع الخاصة بالإمبراطور نفسه، كما ضاعفت الرسوم على الأسواق، وكان على النقابات التجارية عند فتح السوق دفع عربون أو تأمين، حسب قدرة كل تاجر، ويتولى والي المدينة تقسيم السلع بينهم حسبما أسهم به كل منهم،[٤] واعتاد الطرفان في كلتا الدولتين، عند القيام بجباية المكوس من السفن، إن يربطوا حبلاً أو سلسلة في سفينتين عند كل جانب من جوانب النهر أو البر حتى لا تتمكن السفن من اجتياز ذلك الوضع، إلا بعد أن ندفع الضريبة للمكاس وهذا ما يسمى المآجر: "جمع مأجر" التي هي سلاسل أو حبال توضع على النهر أو البحر خشية تعريب السلع التجارية إلى خارج الدولة كما استخدمت أيضاً لغرض جمع

١- العدوي، الإمبراطورية البيزنطية، ص١١٧-١١٨.
٢- رانيمان، الحضارة، ص ٢٠٥.
٣- بينز، المرجع السابق، ص١٦٥-١٦٦.
٤- الشيزري، المصدر السابق، الملحق الرابع من كتاب الحسبة في بيزنطة، ص١٥٤.

المكوس. [١] وعرف الميناء الشرقي في الإسكندرية باسم ميناء السلسلة، بسبب السلسلة التي كانت تعترض بمدخله أثناء الليل، حيث خصص للسفن المسيحية،[٢] وكانت قناة منانش بإفريقيا مرفأ لسفن الإسكندرية، والشام، وصقلية، والأندلس، يتسع مرفأها لثلاثين مركباً وعلى جانبي المرفأ برجان بينهما سلسلة من حديد، فإذا أرادوا إدخال سفينة فيه أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم مدوها كما كانت قبل ذلك،[٣] وكان على خليج القسطنطينية "بحر مرمره" سلسلة ممتدة تحول دون عبور البحر إلا بإذن المكاس،[٤] وعرفت الأماكن التي تجبي عندها هذه الضريبة باسم المراصد وهي أماكن المراقبة.[٥]

١- ابن رسته، المصدر السابق، مج ٧، ص١٨٥-١٨٦.
٢- سوريال، المرجع السابق، ص١٦٩.
٣- أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، بغداد، مكتبة المثنى، د-ت، ص٣٠.
٤- الاصطخري، المصدر السابق، ص٥٠.
٥- ج، ف، ب، هوبكار، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ت: أمين توفيق الطيب، طرابلس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠، ص ٩٣.

٣,٢,٤- الطرق التجارية:

أدى اتساع الدولة العباسية، وتطورها الحضاري إلى مساهمتها في قيام تجارة عالمية، كان من سماتها أن أصبحت بغداد إحدى المدن العالمية الكبرى، وقد سلكت هذه التجارة طرقاً برية وبحرية نقلت عن طريقها توابل الشرق وحريره وسائر منتجاته إلى القسطنطينية ودول البحر المتوسط، فالطرق البرية ارتبطت بوادي الفرات، والدولة البيزنطية، أما الطرق البحرية فقد كانت آتية من الخليج العربي حيث تنتقل منتجات سيلان، والهند والصين، وأخيراً الإسكندرية، وموانئ البحر الأحمر، التي تمثل نهايات الطرق البحرية الآتية من إثيوبيا والميناء الكبير أدوليس[١]: وهي من موانئ البحر الأحمر تقع في الجنوب على الشاطئ الإفريقي،[٢] الإفريقي،[٢] تحفظ فيها القوافل القادمة من أكسوم "الحبشة" أحمالها التي جاءت بها من دواخل أفريقيا، والطريق الآخر الذي يمر بواحات الجزيرة العربية إلى سيلان نقطة تجميع المتاجر الآتية من الهند وأقاصي الشرق،[٣] وبهذا نجد أن معظم الطرق التجارية كانت تمر بأراضي الدولة العباسية وكان على القوافل أن تدفع مكوساً للخليفة العباسي قبل أن تصل إلى القسطنطينية التي كانت مركزاً للأسواق التجارية في أوربا الشرقية،

فكان من الطبيعي أن تكون الرغبة في السيطرة على طرق التجارة سبباً في الصراع بين الدولتين، ذلك الصراع الذي غلب على العلاقات العباسية البيزنطية، وجعلها تتسم بعدم الاستقرار والتأرجح بين الحرب والسلم، وإن كان الطابع المميز والغالب عليها هو امتداد فترات العداء والخصومة بين الدولتين.[٤]

---

1 -Diehl, Byzantium: greatness, P 70.

٢- نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، الدار الأهلية للنشر، ١٩٨٠، ص٢٠٤-٢٠٥.

3 -Diehl, Byzantium: greatness, P 70.

٤- لويس، المرجع السابق، ص١٨٧، انظر: الخريطة رقم ٥ ، ص١٣٢.

وهذا الموضع يهيئ لتلك المنطقة دوراً هاماً بالنسبة لتجارة الشرق مع الغرب، وقد أبرز المنصور من بين أسباب اختياره موقع بغداد سهولة مواصلاتها مع الجزيرة وأرمينية والشام وما جاور ذلك بجانب اتصالها عن طريق الخليج الفارسي بتجارة الشرق الأقصى ((هذه دجله ليس بيننا وبين الصين شيئاً يأتينا فيها كل ما في البحر، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذا الفرات يجبى منه كل شيء من الشمال والزقة وما حول ذلك)). [١]

وكان الصلات التجارية بين الدولة العباسية وجيرانها من الأمم الشرقية كالصين والهند والروم منتعشة في فترات السلم، لتسيير المواصلات البرية والبحرية، أما أوربا فكانت تتاجر معها الأقاليم الواقعة على ساحل بحر الروم وبخاصة الشام ومصر، وفكر الرشيد في فتح قناة بين البحريين الأبيض والأحمر، لتصل سواحل شمال أفريقيا والأندلس وصقلية والفرنجة، بسواحل جزيرة العرب وفارس والعراق عير أن بعض خاصته ومنهم يحي البرمكي ثناه عن ذلك مخوفاً إياه من خطر الروم على مقدسات المسلمين في الحجاز بعد أن يفتح أمامهم الطريق، وقال البعض بطغيان مياه البحر المتوسط على الأحمر مما يسبب غرق سواحل مصر واليمن والحجاز. [٢]

ولقد ظلت القسطنطينية مركز التقاء جميع الطرق التجارة من الشمال والجنوب والشرق والغرب ولكنها لم تتولى إلا القليل من علميات الاستيراد والتصدير، ولذا انتقلت الأهمية التجارية أكثر وتاجرت مع الموانئ الإسلامية ونشط التجار المسلمون في مياه الشرق حتى وصلوا إلى الصين عن طرق الشرق. [٣]

١- المقدسي، المصدر السابق، ص١٣٦.
٢- المصدر السابق نفسه، ص١٣٦- ١٤١.
٣- لويس، المرجع السابق، ص١٩٣.

أ- الطرق البرية:

سلكت التجارة في العصر العباسي الأول الطريق البري، فسارت من الرقة إلى دمشق واقتربت من الساحل فقط عند جنوب فلسطين، وحدث هذا أيضاً في معظم الطريق بين مصر وشمال إفريقيا، إذ لم تتبع التجارة الطريق الرومانية الساحلية في ذلك الوقت، لكنها سارت إلى الداخل حيث الواحات الصحراوية.

وربما سارت التجارة في هذه الطرق الداخلية، لأن قوة الدولة البيزنطية البحرية مثلت خطراً على استخدام الطرق الساحلية لنقل التجارة من إفريقية إلى مصر، ومما يؤكد هذا الأمر السفارات التي قامت بين الدولة العباسية والدولة الكارولنجية، إذ سلكت معظم هذه السفارات طريقاً ملتوية من الإسكندرية إلى شمال أفريقيا، ثم إلى الموانئ الواقعة تحت سيادة الكارولنجيين في إيطاليا، ومما يؤكد صعوبة الانتقال البحري أنه في سنة "١٩٥هـ/٨٠١م" أدى الخليفة هارون الرشيد فيلاً لشارلمان، وسلك هذا الفيل طريقه براً من مصر إلى شمال أفريقيا، ومن هناك وضع في سفينة أبحرت به إلى ثغر لوني[١] "Luni" على خليج سبيزيا "Spezzia" في إقليم إترورياً بإيطاليا،[٢] ويقال: أنها أفلتت وهي في طريق عودتها إلى إلي إيطاليا من الوقوع في أسر بعض الأساطيل البيزنطية.[٣]

وربما عبرت التجارة من فرنسا أو إسبانيا مروراً بالمغرب الأقصى عن طريق طنجة ومنها إلى إفريقية ثم إلى مصر، والرملة[٤] التي تعد فخرناً لبضائع مصر حيث يلتقي البحران الأحمر والمتوسط،[٥] ثم إلى دمشق والكوفة، فبغداد ثم إلى البصرة، وفارس، وكرمان، ثم السند، والهند، ومنها إلى الصين، وقد يسلك التجار طريق شمال الدولة البيزنطية إلى الأراضي الروسية، ومنها إلى عاصمة

١- لويس، المرجع السابق، ص١٧٨.
٢- مؤنس، تاريخ المسلمين، ص٩٠.
٣- لويس، المرجع السابق، ص١٧٩.
٤- ابن خرداذبه، المصدر السابق، ص١٥٤-١٥٥.
5- seryeant, op, cit, p 119.

الخزر "اتل"، ثم خورستان وأخيراً الصين واكتسب هذا الطريق أهمية كبيرة لوصوله إلى شمال أوربا، يبدأ هذا الطريق من مقاطعة "بروفانس" جنوب بلاد الفرنجة "فرنسا"، فيعبرون بسفنهم البحر المتوسط إلى أوربا أو كانوا يتجهون بتجاراتهم إلى القسطنطينية ليبيعوا بضائعهم هناك. [١]

وأحياناً لا يتجهون إلى الفرما عند مجيئهم من أوربا بل إلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط، فيتوقفون عند إنطاكية، ثم يحملون بضائعهم على الإبل إلى الجابية، فيعبرون منها إلى الفرات ثم يدخلون قناة نهر عيسى التي تصل نهر الفرات بدجلة، ويصلون مباشرة عن طريق هذه القناة إلى أرصفة بغداد. [٢]

وقد سلك يعود ناريونه طريق الأندلس إلى الممرات الجبلية التي تقطع جبال البيرنية، أو عن طريق البحر حتى طرطوشة، ومن هناك يتجهون إلى إفريقية، لكنهم قد يقصدون بغداد مباشرة عن طريق موانئ الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وأخيراً هناك طريق المحيط الأطلسي الذي تنطلق منه إلى إنجلترا وتصل الارموريك[*] "Armoric" وخليج بسكونية ثم إلى الموانئ الإسلامية الواقعة على المحيط الأطلسي، لشبون وقصر أبي دانس،[*] حيث ينزل الرقيق وشحنات القصدير والفراء والسبوق[٣] واتجهت الطرق التجارية الكبرى في ذلك الوقت حسبما اقتضت مصالح بيزنطة في منطقتي البحرين الأسود والمتوسط، فكانت مدينة القسطنطينية نقطة التقائها جميعاً.

ويبدو أن أكثر توابل الشرق وحريره وسائر منتجاته وردت إلى القسطنطينية وعالم البحر المتوسط عن طريق الطرق الساسانية القديمة، وهذه الطرق كانت إما برية تسلك بلاد فارس، وإما بحرية إلى الخليج وإما بحرية إلى الخليج الفارسي ومنه

١- ابن خرداذبه، المصدر السابق، ص١٥٣.
٢- المصدر السابق نفسه، ص١٥٤ انظر: الخريطة رقم ٧ ، ص .
*- الارموريك: تشمل فرنسا ومقاطعة بريطانيا.
*-قصر أبي دانس: يقع في جنوب البرتغال.
٣- لومبار، المرجع السابق، ص٣٤٧-٣٤٨.

إلى البصرة ثم بغداد،[١] وغدت بغداد بفضل تلك التجارة مدينة عالمية كبرى والمدينة الثانية بالنسبة للقسطنطينية من حيث الثروة وعدد السكان.[٢] إذ يسلك أنهار روسيا إلى البحر البلطيق والبحار الشمالية، وربما كان هذا الطريق بديلاً للطريق الذي يصل إلى إيطاليا وكان التجار يحملون بضائعهم من هناك على ظهور الإبل إلى بغداد، وهناك يدعون أنهم نصارى ليتمكنوا من دفع الجزية المفروضة على أهل الذمة إذ جاروا بلاد الإسلام وكانوا يستعينون بخدم من الصقالبة ليترجموا عنهم،[٣] وهناك طريق بري أخر يعبر إلى بلاد الشام ومصر حتى الأندلس، ويبدأ هذا الطريق من بغداد ويمر بالأنبار ثم إلى هيت على نهر دجلة ومنها إلى الرقة، ثم إلى دمشق، طبرية، فالرملة ومنها إلى غزة، ورفح، والعريش، وبليبس، وأخيراً إلى الفسطاط، ومن هناك يتجه شمالاً إلى مدينة الإسكندرية ويستمر منها إلى المغرب الأقصى مروراً بمراكز التجارة المهمة في برقة ثم إلى أفريقية ومنها إلى الأندلس بعد عبور المضيق ويمتد الطريق بعد ذلك إلى بلاد الفرنجة وقد يتجه هذا الطريق من الرقة إلى حلب، ثم إلى قنسرين ومنها إلى إنطاكية ثم بيزنطة.[٤]

ب- الطرق البحرية:

يبدأ الطريق البحري إلى سواحل الشمال الإفريقي والبحر المتوسط من البصرة، فيعبر الخليج العربي، وينتهي عند عمان، ثم يدور حول سواحل الجزيرة العربية ماراً بفرق وحاسك، وهي أول مرافئ اليمن، ثم مرباط وهي فرضة لظفار الواقعة بين حضرموت، وعمان، ثم يمر بالشحر،[٥] مرفأ حضرموت، وأكبر موانئ في جنوب الجزيرة العربية،[٦] ثم بشرمه ولسعا، على ساحل بلاد حضرموت ثم

١- الدوي، الإمبراطورية البيزنطية، ص١٨٨.
٢- المصدر السابق نفسه، ص١٨٩.
٣- ابن خرداذبه، المصدر السابق، ص١٥٤-١٥٥.
٤- المصدر السابق نفسه، ص١٥٥.
٥- المصدر السابق نفسه، ص١٤٧، انظر أيضاً: النويري، المصدر السابق، ج١، ص٢٤١.
٦- صلاح البكري، في جنوب الجزيرة العربية، ط١، القاهرة، مطبعة الحسين، ١٩٤٩، ص٥٣.

بأبين في عدن، وتواصل بعض السفن رحلتها عند وصولها عدن إلى مصر[١] وهناك طريق آخر اعتاد التجار اليهود أن يسلكوه، ويصل هذا الطريق بين الدولة الإسكندرية وأوربا عبر البحر المتوسط إلى بلاد الفرنجة.

بسبب حرصهم على زيادة رخاء العراق مثلما فعل الساسانيون لكن الرأي الأكثر وجاهة هو أن بيزنطة لم تشجع ورود هذه التجارة عن طريق البحر المتوسط وبصرف النظر عن مسئولية أحد الطرفين عن ذلك فالملاحظ عامة تدهور تجارة البحر الأحمر وقتذاك إذا ما قورنت بالازدهار الذي بلغته زمن البيزنطيين وحوالي عام ٨٠٠م اختصت هذه التجارة كلية إلا من أيدي اليهود وحدهم، وكانوا آخر من بقى ممن يمثلون النظام القديم، فكانوا يسلكون هذا الطريق ويعبرون برزخ السويس إلى البحر الأحمر وعدن إلى بلاد الصين. [٢]

وما يقال عن نهايات طرق تجارة البحر المتوسط في سوريا ومصر، يقال مثله عن نهايات هذه الطرق القديمة في غرسه، فعلى الفم من بقاء بعض الأهمية لكل لوني ومرسيليا في التجارة المحلية مع شمال أفريقية والأندلس بصفة خاصة[٣] فإن التجارة بين الشرق والغرب لم تعد تقصد طريق جنوب فرنسا وتكملته في وادي الرون، وحلت إيطاليا على الأخص وادي البومجل فرنسا، وأخذت تنضب بعد عام ٨٢٨م التجارة المحلية الذاهبة إلى الشواطئ الكارولنجية، واقتصر استخدام الطريق القديم بين مرسيليا والموانئ الأندلسية وبين مصر على التجار اليهود،[٤] ونجم من تغيير طرق التجارة وتغيير الوسطاء التجاريين في حوض البحر المتوسط نكبات أصابت اقتصاديات كثير من البلاد المطلة على سواحله والواقع أن هذه الارتباكات بلغت من الخطورة بحيث عمت الشرق والغرب وكانت إيطاليا وبيزنطة لم تصيبها كل آثار ذلك الارتباك ومع ذلك فإنه بقاء مستوى الرخاء فيهما مرتفعاً فإنه كان دون

١- ابن خرداذبه، المصدر السابق، ص٦١.
٢- لويس، المرجع السابق، ص١٩٦.
٣- فتحي عثمان، الحدود الإسلامية، ص٢٣١.
٤- العدوي، الإمبراطورية البيزنطية، ص١٢١.

ما كان عليه أمام جستيان،[١] وما يقال عن نهايات طرق تجارة البحر المتوسط في الشام ومصر يقال مثله من نهايات الطرق في غربي هذا البحر، ولم يفلت من هذا الركود الاقتصادي الذي أصاب بلاد البحر المتوسط سوى الإمبراطورية البيزنطية ذاتها.[٢]

١- المرجع السابق نفسه، ص١٢٢.
٢- لويس، المرجع السابق، ص١٤٥.

٤,٢,٤- العقبات التي أثرت على الصلات التجارية بين الدولتين

أ- الثورات الداخلية:

أثرت الثورات والفتن الداخلية تأثيراً سلبياً على النشاط التجاري، وأدت إلى فقدان الأمن والطمأنينة في البلاد، وقد كان عدم تأمين الطرق التجارية سبباً في تعيل وكساد التجارة، وحال في بعض الأحيان دون وصول المؤن والبضائع إلى بغداد وغيرها من مدن الدولة العباسية، كانت ثورة بايك الخرمي سنة "١٩١هـ/٨٠٧م" من أخطر الثورات التي قامت في عصر الخليفة المأمون سنة "٢٠١هـ/٨١٦"،[١] تركزت هذه الثورة في خراسان، واتخذت من قلعة جبلية مركزاً لها، وامتدت إلى أرمينية وأذربيجان، وكثيراً ما ليس بايك وأتباعه لباس التجار وقاموا بقطع الطرق ومهاجمة القوافل مما عطل حركة التجارة،[٢] وربما فعل ذلك كي لا يمل التعرف عليه من عيون الخليفة أو مخبريه، استمرت هذه الثورة حتى عصر الخليفة قبل أن يخمد هذه الثورة، ولم يتم ذلك حتى عصر الخليفة المعتصم.

وقد أثرت الفتنة التي قامت بين الأخوين الأمين والمأمون سنة "١٩٣هـ/٨٠٩م" على نشاط التجارة، فقلت الأسعار، سرقت الأموال، وسيطر ضرب الأمين الذي يمثله الفضل بن الربيع على المنقطة التي تلي النهروان بالقرب من خراسان، وسيطر ضرب المأمون الذي يمثله طاهر بن الحسين على الناشرية وباب المحول والكناسة فضرب طاهر حصاراً شديداً عليهم، ومنه وصول القوات إلى البصرة و واسط وغيرها من المدن، وبلغ به الأمر أن أخذ ضريبة العشر على ما في السفن من أموال التجار الواردة، يقول الطبري في ذلك: ((وكان المأمون قد وجه حارسه إلى الحد فلا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمناء ولا يدعه يستعلم خيراً، ولا يؤثر أثراً، ولا يستتج بالرغبة ولا بالرهبة أحداً،

١- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص١٠٩.
٢- المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص ٥٥-٥٦.

ولا يبلغ أحد قولاً وكتاباً، محصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة، أو أن تودع صدورهم رهبة... ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الفنة في أمره ممن أتى بجواز، أو تاجر معروف مأمون في نفسه ودينه ومنع الاشتاتات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول في البلدات في هيئة الطارئة والسابقة وفتشت الكتب..)).[١]

وقام الزط في فترة خلافة المأمون بثورة عنيفة "٢٠١هـ/٨١٦م" في إقليم البصرة، واشتد خطرهم لدرجة أنهم صاروا قطاعاً للطرق وعاشوا في البلاد فساداً، وبلغ تحديهم للدولة أنهم فرضوا مكوساً على السفن التجارية الداخلة إلى بغداد، وحالوا دون وصول الأقوات والمؤن إليها، وهؤلاء الزط قوم من الهنود اشتهروا بالنهب والاختطاف والصوصية وعرفوا عند العرب بالزط العشرية، وفي مصر بالغجر[٢] وقد وجه الخليفة المأمون عدة حملات في سنتي "٢٠٥-٢٠٦هـ/٨٢٠-٨٢١م"، لكنه لم يتمكن من القضاء عليهم واستمرت ثورتهم حتى عصر الخليفة المعتصم الذي وجه إليهم جيشاً بقيادة عجيف بن عينة فقضى عليهم سنة "٢٢٠هـ/٨٣٢م".[٣]

كانت هذه الثورات سبباً في عناية الخلفاء العباسيين بتمهيد الطرق وتعبيدها وتزويدها بالخيول والرجال، لضمان أمنها وسرعة وصول الأخبار، بالإضافة إلى أنهم سعوا من وراء كل ذلك إلى ازدهار التجارة.

فقد اهتم الخلفاء العباسيون بالتجارة اهتماماً كبيراً فأنشئوا شبكة من الطرق الرئيسية جعلت من بغداد مركزاً تجارياً عالمياً، وزودها بمحطات للراحة يقيم فيها التجار وقسمت الطرق أميالاً ومراحل، وعملت الدولة على نشر الأمن والنظام،

١- الطبري، تاريخ الأمم، ج١١، ص١٣٣.
٢- المصدر نفسه، ص١٣٤.
٣- المسعودي، المروج، ص٤١٥.

وقامت بحراسة الطرق ومراقبتها والقضاء علي قطاع الطرق واللصوص، وكان لقوة الدولة وسيطرتها أثر كبير في ازدهار التجارة. واهتم الأغالبة في المغرب الأدنى بالطرق التجارية، فكانت قوافل التجار تسير في طرق آمنة، وبنى المسلمون الحصون والمحارس على ساحل البحر المتوسط، حتى كانت توقد النار في مدينة سبته، فيصل خبرها إلى الإسكندرية في ليلة واحدة.[١]

أما في الدولة البيزنطية فقد كانت ثورة توماس الصقلبي فيما بين سنتي "٢٠٦-٢٠٨هـ/٨٢١-٨٢٣م" من أهم الثورات التي أثرت على حركة التجارة في بيزنطة، وأضعفت من قوة أسطولها البحري فقد تحولت هذه الثورة إلى ثورة شعبية يساندها الفلاحون كما أيدتها أساطيل ولايات بحر إيجه. [٢]

لكنها تعرض للفشل سواء في البر أم البحر، إذ هاجم البلغار قواته على الشاطئ الأوروبي، وأوقعوا به هزيمة ساحقة سنة "٢٠٨هـ/٨٢٣م"، ثم القضاء على هذه الثورة التي انتهت بمقتل قائدها توماس.

بفضل قوة الأسطول البيزنطي في القسطنطينية، الذي عمل على تشتيت شمل الأساطيل الإقليمية بالاستعمال الجيد للنار اليونانية وطردها من البحر الأسود[٣] خرجت الدولة البيزنطية من هذه الثورة مرهقة، إذ تشتت شمل أساطيلها في الولايات، واتت عليها الحرب الأهلية، ففي الوقت الذي اشتدت فيه حاجة بيزنطة لمؤازرة أسطولها كانت أساطيل المسلمين تستجمع قواها،[٤] وبدأ عهد جديد في تاريخ البحر المتوسط بإغارة المسلمين على صقلية ثم باستيلائهم على كريت عام ٨٢٧م وانتهى بهذين الحارثين أيضاً عهد العجز عن تحدي الإمبراطورية البيزنطية، وأخذت السيطرة على البحر المتوسط تنتقل إلى المسلمين الذين سيطروا

١- نظير حسان سعداوي، نظام البريد في الدولة الإسلامية، القاهرة، دار مصر للطباعة، ١٩٥٣، ص٨٩.
٢- المقريزي، الخطط، ج١، ص١٧٤.
3- Vasilive, op – cit vol, pp 273, 276.
٤- لويس، المرجع السابق، ص١٨٩.

على الشواطئ الجنوبية لذلك البحر، ومن جبال طوروس حتى جبال البرنس، ولم يتم هذا التغيير كله مرة واحدة بل ظلت لحكام القسطنطينية سيطرة على بعض القوات البحرية الهامة، كما أنهم ظلوا يكافحون ببسالة ضد المسلمين فاستطاعوا أن يؤخروا إتمام فتح الأغالبة لجزيرة صقلية وحاولوا استعادة كريت وعلى هذا لم يأت القرن العاشر إلا وقد انتقلت السيادة الكاملة للبحر المتوسط للمسلمين.[١]

ب- تأثير الحروب الخارجية:

مثلت الدولة البيزنطية قوة بحرية فعالة، واحتفظت بسيادتها البحرية التي تميزت بها منذ سنة "١٣٠هـ/٧٤٧م" وذلك يعود إلى الجهود التي بذلها أباطرة الأسرة الأيسورية الأوائل في إعادة بناء أسطولها،[٢] فشددت الرقابة على السفن الداخلة إلى القسطنطينية أثناء مرورها بين جبلي بحر مرمرة وقد وصف المسعودي ذلك بقوله: ((وكان على هذين الجبلين حرس على كل جبل عشرون رجلا يحرسون المراكب إذا دخلت ويفتشونها وكانت فيه سلسلة تفتح وتغلق في عمودي حديد من هذا الجانب إلى ذلك الجانب هو باب الخليج الذي يحاصر به القسطنطينية)).[٣]

كما ساعد الدولة على الاحتفاظ بسيادتها البحرية موقعها الجغرافي الممتاز والقواعد البحرية المهمة التي كانت في حوزتها، فبحر ايجه حتى مضيق الدردنيل بما فيه من جزر وخلجان مثل نطاقاً يقيها هجمات العدو، كما كان لها في بحر مرمرة حاجز مائي منيع آخر، ثم يأتي البحر الأسود وهو منطقة بعيدة عن تهديد المسلمين. [٤]

وبهذا تحكمت الدولة البيزنطية في المضايق المهمة التي تسيطر على طرق التجارة بين الشرق والغرب، الأمر الذي كان له أثره البعيد على حركة التجارة

١- المرجع السابق نفسه، ص٢١١.
٢- لويس، المرجع السابق، ص١٦٩.
٣- المسعودي، التنبيه، ص١٢٢.
٤- لويس، المرجع السابق، ص١١٠.

فكانت الطرق التجارية الكبرى في ذلك الوقت تتجه حسبما تريد بيزنطة في البحرين الأسود والمتوسط وهذا يعني أن البيزنطيين استغلوا سيادتهم البحرية في توجيه التجارة إلى المدن التابعة لهم، وقد اتضح مدى تلك السيطرة في الرقابة الشديدة التي فرضها البيزنطيون على التجارة لدرجة أنهم احتكروا بعض السلع مثل المنسوجات الحريرية والأخشاب والأسلحة،[١] ولعل نظام الرقابة على التجارة ذاك، هو خير ما يضر الصراع الطويل بين شارلمان وبيزنطة حتى عام ٨١٣م وفي أول الأمر تردد شارلمان فيما يبدو في مجاراة سياسة ابيه وهي التدخل في شئون إيطاليا وأخذ يدرك الأهمية الاقتصادية التجارية بالنسبة لإمبراطوريته.[٢]

مع أن العلاقات ظلت وثيقة بين الدولتين حتى عام ٨٢٨م ولم يظفر رعايا الإمبراطورية الكارولنجية بالحرية التجارية التي سعى إليها شارلمان، واستمر الوسطاء الخاضعون لرقابة أباطرة الدولة الشرقية هم وحدهم القائمون بتوزيع تجارة الشرق الهامة في بلاد الغرب الخاضعة للفرنجة، وكانت نتيجة السياسة البيزنطية بداية تحول التجار الإيطاليين من أصحاب ثغور تتمتع بامتيازات خاصة إلى وسطاء في التبادل التجاري بين الشرق والغرب، ذلك التبادل الذي كانت تسيطر عليه بيزنطة.[٣]

لم تؤثر الغارات الحربية في موقف كلا الدولتين من نشاطهما التجاري، وظلت الحدود بينهما ثابتة بالرغم من تفاوت الحرب ونتائجها وتعد جبال طوروس فاصلاً بين الدولتين بالرغم من توغل القوات الإسلامية في بعض الأحيان بعيداً داخل آسيا الصغرى، مثلما حدث في حصارها لهرقلة وعمورية، إلا أن نظام الثغور في الدولة البيزنطية استطاع أن يحمي الأراضي الداخلية للدولة على أحسن وجه.[٤]

١- المرجع السابق نفسه، ص١٧٩.
٢- الشيزري، نهاية الرتبة، الملحق الرابع من كتاب الحسبة في بيزنطة، ص١٣٦.
٣- لويس، المرجع السابق، ص١٨٨.
٤- المسعودي، التنبيه، ص١٢٤.

وسمحت فترات السلم بين الدولتين بتكوين علاقات تجارية نشيطة فوفدت أعداد كبيرة من المسلمين على القسطنطينية، مما دعا المسلمين إلى إنشاء مقر لهم يجتمعون فيه،[١] ولذلك خصصت بيزنطة وكالتين للتجارة مع المسلمين إحداهما لتجارة الحرير الفاخر، والأخرى لتجار التوابل والعطور، التي يرجع الفضل فيهما إلى التجارة الإسلامية، فالسلع الشرقية التي يقوم المسلمون في تجارتها بدور الوسيط، هي السلع التي ساهمت في قوة الاقتصاد البيزنطي،[٢] وكان للسفارات أثر طيب في إنعاش العلاقات التجارية، ومن هذه السفارات تلك التي أرسلها الإمبراطور البيزنطي ليو الرابع "١٥٨-١٦٤هـ/٧٧٥-٧٨٠م" إلى الخليفة العباسي المهدي فقد حضر السفير البيزنطي إلى بغداد، وكان اسمه البطريق طافات بن الليث بن الغيرار بن توق بن مورق، وقد قدم هذا السفير من أجل تهنئة الخليفة المهدي على توليه الخلافة سنة "١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م" فأمر الخليفة وزيره.

الفضل بن الربيع بإكرامه والتجول معه في أرجاء عاصمة الخلافة، فمر السفير أثناء تنزهه بموضع يسمى "الإرحاء"(*) فطلب من الوزير أن يقرضه خمسمائة ألف درهم، حتى يبني بها مستغلاً لأمير المؤمنين يعود عليه بربح قدره خمسمائة ألف درهم في السنة، فأعلم الوزير الخليفة بما دار بينه وبين السفير، فأمره بمنح ما يريد فبنى السفير الإرحاء المعروف بإرجاء البطريق، فكان الخليفة يرسل إليه أرباح ذلك المستغل، إلى أن مات سنة "١٦٣هـ/٧٨٠م" حيث ضمها الخليفة إلى حيازته،[٣] وكان من نتائج تبادل السفارات أيضاً توقيع الهدنة بين الدولتين كما حدث في عهد كل من الخلفاء المهدي، والهادي، والرشيد، ومعاصرتهم الإمبراطورية أيرين، حيث تمت المهادنة بينهم وبينها،[٤] وبلغ الأمر بعد خلعها وتولى الإمبراطور

١- المقدسي، المصدر السابق، ص١٤٧.
٢- لويس، المرجع السابق، ص١٤٠.
*- الإرجاء: قطع من الأرض غلاظ دون الجبال تستدير عما حولها، والرحى من الأرض مكان مستدير غليظ يكون بين الرمال، انظر: أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، ج١٩، بيروت – دار الصاعد، ١٩٦٦، ص ٧٢.
٣- الهمذاني، بغداد مدينة السلام، ص٥٤، أنظر أيضاً: ابن الخطيب، المصدر السابق، ج١، ص٩١-٩٢.
٤- الطبري، تاريخ الأمم، ج٩، ص٣٤٧.

نقفور عرش الدولة البيزنطية أن فرض الخليفة هارون الرشيد عليه غرامة مالية، نقش اسم الرشيد على أحد وجهيها، وعلى الوجه الآخر اسم الأمين والمأمون،[١] وفي سنة "٢١٧هـ/٨٣١م" أرسل الإمبراطور ثيوفيل كتاباً إلى الخليفة المأمون، يطلب فيه المصالحة وفك الأسرى وإعادة الحياة الاقتصادية والتبادل التجاري بين الدولتين، وجاء فيه: ((... وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة، راغباً في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، وتكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر، وفك المستأنس وأمن الطرق)) [٢] نفهم من النص أن هذه الرسالة لم تكن الأولى، بل سبقتها رسائل أخرى، يطلب فيها الإمبراطور توثيق الصلات التجارية مع المسلمين، مما يؤكد الأهمية الكبرى لمثل هذا التبادل، وأن العداء السياسي بين الدولتين قلت أمام ضرورات الاتصال التجاري، وقد استجاب الخليفة لطلب الإمبراطور برسالة جاء فيها: ((أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليه من الموادعه، وخلطت فيه من اللين والشدة، مما استعطفت به من شرح المتاجر، واتصال المرافق، وفك الأساري، ورفع القتل والقتال..))، [٣] فقد استجاب الخليفة لهذا العرض الرائع، حتى تتوسع العلاقات التجارية بين الدولتين، ويضمن الأمن والأمان في الطرقات، فلا سطو ولا قطاع طرق، إنما هي الطرق الآمنة البعيدة عن الاضطراب والمكارة للسائرين فيها، وهكذا درجت الدولتان العباسية والبيزنطية على تبادل السفارات، مما يدل على أن الاتصال السياسي والتجاري بينهما كان واسعاً ولعل السبب في ذلك يعود إلى ما تمتعت به الدولة البيزنطية من ازدهار وثراء علاوة على أنها لم تكن تستطيع الاستغناء عن المنتجات الشرقية التي كان المسلمون يأتون بها من الهند والصين بالإضافة إلى أن المسلمين كانت لديهم الرغبة الشديدة في وجود مثل ذلك الاتصال مع البيزنطيين لحاجتهم إلى التبادل التجاري معهم، وقد لاحظ المقدسي ذلك وتحدث

١- المقريزي، النقود الإسلامية، ص٩٣.
٢- الطبري، تاريخ الأمم، ج٩، ص٩٨-٩٩.
٣- الطبري، تاريخ الأمم، ج١٠، ص٢٨٣.

عن أهمية القسطنطينية التي كان المسلمين بهار دار، يجتمعون فيها ويظهرون الإسلام بها وأكد أهمية الصلات التجارية مع القسطنطينية فقال: ((...فرأيت أن أصور ذلك للعيون، وأوضحه للقلوب وأذكر الطرق إليها لحاجة المسلمين إلى ذلك وقصدهم في شراء الأساري والرسالات والغزو والتجارات...)).[١]

وعلى هذا لا يمكننا أن نتوقع وجود رقابة تجارية تنفذ تنفيذاً كاملاً وبالرغم من أن الإمبراطور ليو الخامس حذر رعاياه البنادقة في أوائل "القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي" من الاتجار مع المسلمين، لكنهم لم يذعنوا لهذا المرسوم ومما يؤكد استمرار العلاقات بين البنادقة والعباسيين، أن سفن البنادقة تمكنت سنة "٢١٢ أو ٢١٣هـ/٨٢٧ أو ٨٢٨م" من أن تنقل عظام القديس مرقص من مدينة الإسكندرية.[٢] بل إن الإمبراطور ليو الخامس نفسه أهدى راهباً من أصدقائه نباتات عطرية قال عنها أنها مثل تلك التي تأتينا من الهند، وهذا يدل على استمرار ورود السلع الشرقية إلى القسطنطينية، وإن كنا لا نعرف من كان يجلبها التجار المسلمون أم غيرهم. [٣]

لقد كانت القسطنطينية مركز التقاء جميع الطرق التجارية من الشمال والجنوب والشرق والغرب، ولكنها لم تتول بنفسها إلا القليل من عمليات الاستيراد والتصدير ذلك، لأنها لم تدرك فائدة انتهاج سياسة تجارية واسعة النطاق، وتركت للدول الأخرى مشاق ومخاطر الرحلات التجارية الطويلة وكان بحلولها أن تشاهد السفن التجارية لمختلف هذه الدول تدخل ميناء القسطنطينية، ولا يهمها كثيراً أن تفقد تبعا لها أفضل الفرص لإنماء ثروتها وكان من السهل عليها أن تلقي كميات هائلة من بضائع الشرق الأدنى في أسواق جنوب إيطاليا، حيث بقيت باري، ونابلي وغيرها،

١- المقدسي، المصدر السابق، ص١٤٧.
٢- لويس، المرجع السابق، ص١٧٩.
٣- هايد، المرجع السابق، ج١، ص٧٠.

قروناً طويلة تحت سيادة البيزنطيين،[١] كانت بيزنطة قد ضيقت الخناق على نفسها وعلى منافسيها، عندما حددت عدداً معيناً من المنافذ التجارية، واشترطت ألا تسلك التجارة غيرها، فمن خرسون قام الخزر بتصدير السلع البيزنطية إلى روسيا، ومن طربيزون عاد التجار المسلمون والأرمن بالسلع إلى بلادهم، ومن صقلية قام تجار شمال أفريقيا "تونس" بتوزيع سلع القسطنطينية على المغرب الأقصى.[٢]

وبهذا نستنتج أنه مهما يكن من أثر التقلبات السياسية وتعقدها، فإن التجارة استمرت وازدهرت وكان نموها في اطراد، فهي منشأ العلاقات بين الدول، وإليها يرجع الفضل في إيجاد الاتصال بين الشرق والغرب بصورة مستمرة فالغرب استمر في طلب الحرير، والتوابل، والعاج من الشرق، بالإضافة إلى حجر الشب الضروري للجلود، والدباغة، ومن بيزنطة كان يأتي العنبر والغراء.[٣]

ولذلك فإن الحروب التي اندلعت بين العباسيين والبيزنطيين في آسيا الصغرى، لم تكن عائقاً أمام استمرار المتاجرة بينهما، فقد كان التجار يجتازون الحدود حتى يصلوا إلى العاصمة البيزنطية، وقد أفادتهم هذا الاتصال فأطلعوا على الحياة السياسية والثقافية هناك، وكذلك كان الأمر بالنسبة للبيزنطيين إلى حد ما.

بما تقدم اتضحت حاجة الدولتين لمنتجات كليهما، الأمر الذي فرض عليهما علاقات تجارية، حتى أثناء فترة الصراع، وقد كان لهذه العلاقات دورها في تخفيف حدة هذا الصراع، ورغم بعض العقبات التي تمثلت في الثورات الداخلية إلا أن ذلك لم يقف حائلاً دون استمرار التبادل التجاري.

١- المرجع السابق نفسه، ج١، ص٧١-٧٢.
٢- لويس، المرجع السابق، ص١٨٥، ١٨٩.
٣- جورج لوفران، تاريخ التجارة، ت: هاشم الحسيني، بيروت، دار مكتب الحياة، د-ت، ص٤٣.



الخاتمة والتوصيات

الخاتمة والتوصيات

من خلال دراستنا وبحثنا الحضارية بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية في جوانبها السياسية والحربية والثقافية والتجارية، يمكننا أن نحدد السمات العامة لهذه المرحلة المهمة وذلك من خلال ما توصلنا إليه من نتائج حيث نستطيع أن نميز هذه المرحلة بأنها اتسمت بطابعها العدائي، وتمثل ذلك في اشتباكات فصلية تخللتها هجمات متفاوتة التأثير على طرفي الصراع.

ولعل اختلاف المجهود الحربي للدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول عنه خلال العصر الأموي يرجع إلى أن الدولة في العصر العباسي أصبحت ذات وجهة شرقية وأهملت شؤون البحر وتحصين شواطئه، وقل اهتمامها بالأسطول البحري، في الوقت الذي كان عليها أحكام سيطرتها على مياه البحر والاستفادة منه كطريق للمواصلات والتجارة الدولية، فحررت زمن العباسيين لم تكن تهدف إلى التوسع والفتوح حتى في فترات القوة، بل غزوات متبادلة بين الطرفين لتثبيت المراكز ولم تكن نتاجها كسب الأراضي أو الحصون التي يتبادل الطرفان احتلالها وتخريبها ثم بناءها بشكل دوري واعتمدت هذه الحروب على المناوشة لا الفتح، وقد نظرت الدولة العباسية إلى المناطق الحدودية والموانئ البحرية كقواعد دفاعية لا هجومية وكحدود لدولتها يسعى حمايتها والدفاع عنها، لقد استنزفت هامات من الوقت والجهد والدماء الكثير، وتأثرت علاقتها بتعاقب الخلفاء والأباطرة، وبالتالي فإن هذه الغارات لم ينجم عنها أي تغير يذكر في حدود الدولتين ولعل مما يؤكد هدفهما الوقائي أن الخليفة في تلك الفترة وبالتحديد حين كان الجيش العباسي يحرز انتصارات، كان يكتفي بأخذ مبلغ من المال، ثم يعود بأمر الخليفة ليبني الحصون، وبالتالي فإن هذه الحروب على الرغم من أنها أثبتت تفوق المسلمين الحربي من جهة، ألا أنها أثبتت أيضاً قصر نظر قوادهم في عدم متابعة الضغط على بيزنطة وعدم استغلال الظروف الحرجة التي

كانت تمر بها من جهة أخرى ذلك لأن الدولة الإسلامية امتدت في عصر العباسيين حتى حدود الصين شرقاً، فسياسة التوسع هي سياسة الدولة الإسلامية في فترة الفتوحات الأولى حتى عصر الدولة الأموية، أما وقد وصلت حدود الدولة العباسية إلى أقصى اتساعها فقد تغيرت إستراتيجيتها إذ أصبح عليها بذل الجهود للسيطرة على مساحتها وتأمين حدودها خاصة بعد أن انفصلت عنها الأندلس والمغرب الأقصى ومنحت أفريقية "تونس" استقلالاً ذاتياً مقابل مبلغ معين من المال، إلا يمكننا إضافة أسباب أخرى تكمن في أن الدولة كانت في هذه المرحلة قد تعرضت للعديد من الثورات الداخلية مما دفعها إلى العمل على توطيد أركانها والقضاء على الخارجين عليها وهذا بطبيعة الحال حال دون توسيع رقعة الدولة من ناحية، وعدم الزج بالجيش في مناطق بعيدة وهو العنصر الفعال لدعم أركان الدولة ومن ناحية أخرى ومن ذلك نستنتج أن حملات العباسيين ضد بيزنطة كانت من أحل الترهيب وإثبات القوة، يفت أي من الدولتين استغلال الثورات الداخلية التي تقوم في الدولة الأخرى.

نتج عن تلك الحروب والمناوشات، برية أم بحرية نظام خاص يتعلق بالفداء حيث كانت الدولة البيزنطية تلجأ إلى طلب الهدنة وعقد الصلح مع المسلمين، وكان اهتمام الدولتين بهذا الفداء كبيراً إذ حدد له زماناً ومكاناً يتم فيه بشكل رسمي، وأقيمت له الاحتفالات الكبيرة بحضور الآلاف من جنود الطرفين في شكل استعراض للقوة.

أما عن السفارات المتبادلة فقد رأينا كيف أنها كانت عاملاً مهماً في إنهاء حالة الحرب وترتيب أمر تبادل الأسرى بين الدولتين كما كان لها المكانة الأولى في العلاقات الدبلوماسية بينهما، وكثيراً ما خرجت هذه السفارات مع الدولة البيزنطية إلى الدولة العباسية لأغراض أخرى ثقافية وتجارية أو لتبادل المجاملات السياسية كالتعزية والتهنئة وإلى جانب هذه الأغراض الظاهرة، فإن الاتصال السياسي استهدف أيضاً خدمة أغراض تتعلق بالتجسس مثل معرفة مدى الاستعداد الحربي

والمادي للعدو، وقد استهدفت هذه السفارات سواء كانت مكتوبة أم شخصية إرسال سفراء لتبادل وجهات النظر، وغالباً ما أدت نتيجتها الموجودة بعقد الهدنة لفترات محددة، وتعتبر الرسائل التي تبادلها الطرفان من أبرز الصور الدبلوماسية في ذلك الوقت، حيث أكدت قوة المسلمين في هذه الحروب وكانت الوسيلة الأسهل والأكثر شيوعاً في ضبط العلاقات السياسية وكان بعضها يقود إلى معاهدات مما يحمل من شروط وعهود، وعادة ما تصاغ بأساليب ودية تهدف إلى إزالة ما في النفوس من حقد، وإن كان البعض منها كما رأينا قد كتب بلهجة شديدة أدت إلى تعكير صفو العلاقات.

وقد لاحظنا من خلال هذه المراسلات أن البيزنطيين كانوا هم الذين يبادرون دائماً يطلب الصلح وعقد الهدنة، ليس رغبة في السلام ولكن لتقوية جيوشهم والاستعداد للمواجهة من جديد في حين يكتفي الخلفاء العباسيون بأخذ الإتاوة منهم، وعلى الرغم من أن هذه العداء يبدو كأنه عداء ديني، إلا أن الجانب السياسي بظهر فيه بصورة واضحة حيث ارتبط بدفع الخطر عن الدولتين، وبضمان الأمن كما تعلق الجانب السياسي بمحاولة كلتا الدولتين على تأكيد قوتها وهيبتها في نظر الدولة الأخرى تمتعت الخلافة العباسية بمركز سياسي بارز وسمعة دولية عظيمة جعلت دولة الفرنجة المسيحية تسعى لإقامة علاقات طيبة معها في مواجهة الدولة البيزنطية، وكذا الأمر بالنسبة للبيزنطيين الذين اتخذوا من الأمويين في الأندلس وهم خصوم العباسيين حليفاً لهم، ليصبح العالم مكوناً من أربع قوى حتمت المصالح المشتركة "السياسية والثقافية والتجارية" بينهم القيام بالعديد من السفارات وعقد المحالفات الودية والدخول في معاهدات لمجابهة الأوضاع الدولية والداخلية على السواء إن القول بوجود تعاون أو تحالف حربي بين الدولتين العباسية والكارولنجية هو في رأينا أما بعيد الاحتمال وهذا التحالف وجد فإنه لا يعدو أن يكون تحالفاً سياسياً وتجارياً ولم يأخذ أي شكل من أشكال التحالف الحربي، أما فكرة حماية بيت المقدس

من الأماكن المقدسة لدى المسلمين حتى وقتنا الحاضر فما بالك في عصر الخليفة هارون الرشيد وهو عصر قوة وازدهار الدولة الإسلامية العباسية، وقد طرحت لكي تصبح مأخذاً على المسلمين في أنهم تنازلوا في أوج قوتهم وسمحوا للمسيحيين بحماية بيت المقدس، وبذلك يمكن أن تتخذ حجة يستغلها الاستعمار الحديث لتثبيت أقدامه في المنطقة العربية الإسلامية عامة وفلسطين خاصة، ويبدو لأول وهلة أن الصراع الحربي بين المسلمين والبيزنطيين قد حال دون قيام أي اتصال ثقافي، لكن الأمر لم يكن كذلك، إذ ساعدت فترات السلم على التعاون الثقافي، وقد كان التراث الهلينيستي قاسماً ثقافياً مشتركاً بين الجانب خاصة بعد الفتح الإسلامي للشام ومصر وغيرها من الأقاليم التي كانت تحت السيطرة البيزنطية، فقد مثل ذلك التراث معيناً اغترف منه العرب المسلمون المتعطشون للمعرفة.

وكما كان الفكر البيزنطي وثيق الصلة بالأصول اليونانية القديمة بدأت أثار الفكر اليوناني على الفكر العربي الإسلامي خاصة بعد فتح تلك الأقاليم، وأصبح المسلمون بفضل حركة الترجمة التي كانت بمثابة حلقة الوصل الرئيسة بين المسلمين من جهة واليونان والهنود والسريان من جهة أخرى مالكين لعلوم ومعارف الحضارات الأخرى فأقبلوا على دراستها وفحصها ونقدها والوقوف على مزاياها ليأخذوا منها ما يتفق وغاياتهم ومبادئهم، ثم جاء دورهم الذي أثبتوا فيه أن إسهامهم في خلق حضارة جديدة خاصة بهم لا يقل عن إسهام أولئك الذين اعتمد عليهم المسلمون أول الأمر، وساعد التسامح الديني الذي تميز به المسلمون في معاملتهم لرعاياهم من مسيحيين وغيرهم على التقدم العلمي، فكما تركوا لهم الكنائس والمعابد، وسمحوا لهم بإقامة شعائرهم الدينية، تركوا المدارس الكبرى من مسيحية ويهودية وصابئة قائمة في الإسكندرية وبيروت وإنطاكية وحران والرها ونصيبين وجند يسابور، ولم يمسوها بأذى ولم يطلبوا منهم سوى الولاء السياسي الثابت للدولة الإسلامية.

كان هذا الجو الذي هيأه الخلفاء لرجال العلم والفرص التي أتاحوها لأصحاب المواهب وهذا الانفتاح الواسع على حضارات العالم القديم، والاستعداد الذي لا يقف في سبيله أي تزمت أو تعصب كان العامل الأكبر في نشاط الحركة العلمية في الدولة الإسلامية وازدهارها، ذلك الازدهار الذي أضاء العالم في العصر الوسيط، وأنه لأمر ذو مغزى عظيم في ذلك العصر أن يطالب الخليفة هارون الرشيد أثناء غاراته على أنقرة وعمورية بتسليم مخطوطات قديمة مقابل الفدية، وأن يمنح المأمون المترقمين وزن ما ترجموه ذهباً، كما شجعوا السفارات العلمية بين الدولتين خاصة في عصر الخلفاء هارون الرشيد والمأمون والواثق.

لقد كانت حركة تحطيم الصور في الدولة البيزنطية "أو ما يعرف بالصراع اللايقوني" مظهر لأثر الإسلام في بيزنطة، إذ كان لكراهيته عند المسلمين صداها في المسيحية حيث كان القاتمون بحركة تحطيم الصور في القرن الثاني للهجرة / الثامن الميلادي متأثرين بالتعاليم الإسلامية، ولا نستغرب ذلك خاصة إذا عرفنا أن المؤرخ البيزنطي "يثوفانس" قد وصف الإمبراطور ليو الايسوري بأنه "ذو عقلية عربية" كما تشير المصادر الإسلامية إلى أن الإمبراطور نقفور الأول من أولاد حفصة من غسان أي أنه من أصل عربي، لقد كان الصراع العباسي البيزنطي بالإضافة إلى أنه صراع ديني وسياسي، تنافساً تجارياً يدور حول التحكم في ممرات جبال طوروس والمعابر المؤدية إلى آسيا الصغرى فمن يسيطر على هذه المعابر يأمن خطر الدولة الأخرى بالإضافة إلى تأمين الطرق التجارية من الشرق والغرب.

لقد كان نقل العاصمة الإسلامية من دمشق إلى بغداد سبباً في اهتمام البيزنطيين ببناء أسطول حربي وتجاري للسيطرة على طرق التجارة في البحر المتوسط في القرن "الثاني للهجرة / الثامن الميلادي" وكانت الرقابة شديدة على السفن الداخلة إلى ميناء القسطنطينية، كلما بلغ النفوذ البيزنطي حداً كبيراً على معظم جزر البحر المتوسط مثل صقلية وكريت وسردينياً وقبرص وجزء البلقان، وتحكمت بيزنطة في

المضايق ذات القيمة الإستراتيجية المهمة والواقعة على طرق التجارة والتي كانت تتجه حسبما تريد في البحرين الأسود والمتوسط.

أما الطرق التجارية لتصريف وجلب بضائع الشرق الأقصى فكانت معظمها خاصة للنفوذ الإسلامي مما اضطر بيزنطة إلى طلب الصلح والمهادنة من الخلفاء العباسيين حتى تضمن سلامة طرق مواصلاتها إلى الشرق الأقصى، ساعدت كل هذه الاعتبارات على تحسين العلاقات بين الدولتين وزادت التبادل التجاري، الأمر الذي دفع بيزنطة إلى إقامة وكالتين في القسطنطينية للتجارة العربية أحدهما لتجارة الحرير الفاخر والأخرى لتجارة التوابل والعطور، لقد كانت العلاقات التجارية مع المسلمين في غاية الأهمية بالنسبة للدولة البيزنطية، إذ لم تكن تقتصر أهميتها على الناحية التجارية فحسب، بل كانت تعزز مكانتها الدولية كوسيط تجاري فكان أكثر تجارة الشرق الإسلامي تنقل إلى أوربا عن طريق بيزنطة التي تجني من وراء ذلك دخلاً عظيماً تفضل قيامها بدور الوسيط بين الشرق والغرب.

كما لا يفوتنا التنويه إلى الدور الذي قامت به الثغور الجزرية والشامية في هذا المجال فبالإضافة إلى أهميتها الحربية والسياسية، لعبت دوراً مهماً في مجال التبادل التجاري وتسهيل حركة الاتصال، حيث أنها كانت ملتقى لكافة الناس على مختلف أجناسهم وطبقاتهم، لقد كانت هذه الثغور تدمر فيجلو عنها السكان، ثم يعاد بناؤها وإعادة التعمير هذه جعلتها مركزاً للاستهلاك حيث أصبحت في حاجة لليد العاملة "الرقيق" ومواد البناء، والمواد الغذائية، والملابس، والأسلحة، والميزة الأخرى التي ميزت هذه الثغور اختلاط العناصر فيها حيث يتعايش فيها جنباً إلى جنب زنوج وصقالبة وأرمن وعرب وغيرهم، وهذا جعل منها سوقاً تجارية على الحدود يلتقي فيها تجار الطرفين خاصة أثناء تبادل الأسرى.

<u>والله الموفق...</u>



قائمة المصادر والمراجع

المصادر
والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأولية:

القرآن الكريم.

- **ابن أبي أصيبعة:**
- موف الدين أبو العباس أحمد الخزرجي "ت= ٦٦٨هــ-١٢٧٠م" عيون الأنباء في طبقات الأطباء؛ الجزء الأول، الطبعة الأولى، بيروت، دار الفكر العربي، ١٩٥٧م.
- ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي "ت= ٥٩٧هــ-١٢٠١م" المنتظم في تاريخ الملوك والأمم حققه محمد ومصطفى عبد القادر عطا، الجزء الحادي عشر، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.
- ابن العبري: أبو الفرج غريغور يوس بن أهرون الملطي "ت= ٦٨٥هــ-١٢٨٦م" تاريخ الزمان، ترجمة الأب إسحاق أرملة، بيروت، دار المشرق للنشر، ١٩٨٦م.
- ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب "ت=٣٨٥هــ-٩٩٥م" الفهرست، حققه رضا- تجدد بن علي المازندراني، بيروت، مكتبة خياطا، ١٩٧٢م.
- ابن الوردي: أبو حفص زين الدين عمر "ت= ٧٤٩هــ-١٣٤٩م" تتمة المختصر في أخبار البشر، حققه أحمد رفعت البدراوي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٠م.
- ابن جلجل: أبو داود سليمان بن الأندلسي "ت= ٣٨٥هــ-٩٩٥م، طبقات الأطباء والحكماء، حققه فؤاد السيد، بغداد، مكتبة المثنى، ب ت.
- ابن خرداذبة: أبو القاسم بن أحمد بن عبد الله "ت: ٣٠٠هــ-٩١٢م" المسالك والممالك، باعتناء ذي خوية، ليدن، مطابع إبريل، ١٨٨٩م.

- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد "ت=٨٠٨هـ–١٤٠٥م" تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من السلطان الأكبر، المجلد الرابع والخامس، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٧م.
- ابن رسته: أبو علي أحمد بن علي "ت= ٢٩٠هـ–٩٠٣م الأعلاق النفسية، المجلد السابع، ليدن، مطابع إبريل، ١٨٩١م.
- ابن سعيد المغربي: أبو الحسن علي بن موسى "ت= ٦٨٣هـ–١٢٨٤م" الجغرافيا، حققه إسماعيل العربي، الطبعة الأولى، بيروت، المكتب التجاري للنشر، ١٩٧٠م.
- ابن طيفور: أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب "ت= ٢٨٠هـ–٨٩٤م" بغداد في تاريخ الخلافة العباسية، حققه عزت العطار الحسني، القاهرة، الخانجي، ١٩٤٩م.
- ابن عذاري المراكشي: البيان المغربي في أخبار المغرب والأندلس حققه ج، س. كولات و أ. ليفي بروفسال، ج٢، بيروت دار القلم.
- ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق صلاح المنجز، م١.
- ابن نباتة المصري: جمال الدين محمد "ت=٧٦٨هـ–١٣٦٦م. سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٤م.
- أبو الحسن علي محمد الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، المطبعة المحمودية التجارية، ١٩٦٠م.
- أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم "ت=٢١٠هـ–٨٢٦م" ديوان أبي العتاهية، بيروت، دار صادر، ١٩٦٤م.
- أبو تمام: حبيب بن أوس الطائي "ت=٢٢٨هـ–٨٤٢م" ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، حققه محمد عبده عزام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥م.

- أبو عبد الله محمد فتوح الحميدي: جزوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس حققه محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة الثقافة الإسلامية للنشر، ١٩٥١م.
- أبو عبد الله ياقوت الحمدي: معجم البلدان ج٥، بيروت، دار صادر ١٩٦٩م.
- أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه إحسان عباس، ج١، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م.
- أحمد بن يحي جابر البلادرني: فتوح البلدان حققه صلاح المنجد، ج١، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦م.
- أحمد بن يعقوب بن جعفر اليعقوبي، تاريخ، ج٣، بيروت، دار العراق للنشر، ١٩٥٥م.
- الإدريسي: أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الشريف "ت=٥٦٠هـ-١١٦٤م" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، حققه ر.ر بينا تشي وآخرون، الجزء الثاني، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٦٠م.
- الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين "ت=٣٥٦هـ-٩٦٦م الأغاني، الجزء الثالث والخامس، الطبعة الأولى، القاهرة مطبعة الهيئة المصرية، ١٩٤٦م.
- جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء حققه محمد محي الدين وعبد الحميد، ط٤، القاهرة، ١٩٦٩م.
- الحميري: محمد بن عبد المنعم "ت=٨٦٦هـ-١٤٦١هـ" الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، بيروت، دار القلم للنشر، ١٩٧٥م.
- الخطيب الغدادي: تاريخ بغداد، ج١١.
- الدمشقي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد "ت=٧٤٨هـ-١٣٤٧م" الأمصار ذوات الآثار، حققه قاسم علي سعد، الطبعة الأولى، بيروت، درا البشائر الإسلامية، ١٩٨٦م.
- زكريا بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخطاء العباد، بيروت،

دار صادر، ١٩٦٩م.

- شهاب الدين أحمد النويري: نهاية الحرب في فنون الأدب، ج٢٢، دار الكتب المصرية، ١٩٢٣م.
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير "ت=٣١٠هـ-٩٢٢م" تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثامن والحادي عشر، بيروت، دار القاموس الحديث، ب ت.
- عز الدين أبو الحسن علي ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٦، بيروت، دار صادر.
- القرماني: أحمد بن يوسف "ت=١٠١٩هـ-١٦١٠م" أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، حققه أحمد حطيط وفهمي سعد، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، بيروت، دار عالم الكتب، ١٩٩٢م.
- القفطي: جمال الدين أبو الحسن "ت=٦٤٦هـ-١٢٤٨م" تاريخ الحكماء أو أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، مؤسسة الخانجي، ب ت.
- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري "ت=٨٢١هـ-١٤١٨م" صبح الأعشى في كتابة الإنشا، حققه عبد القادر زكاء، الجزء الأول، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية، ١٩٨٣م.
- محمد أحمد بن محمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الأولى، ليدن، مطابع أبريل، ١٩٠٦م.
- محمد بن علي بن طبطبا بن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، القاهرة، دار السعادة، ١٩٦٠م.
- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين "ت=٣٤٦هـ-٩٥٦م" -مروج الذهب ومعادن الجوهر، حقق محمد محي الدين عبد المجيد، الجزء الأول، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٦٤م. - التنبيه والإشراف، حققه عبد الله إسماعيل الصاوي، بيروت، مكتبة خياط، ١٩٦٥م.

ثانياً: المراجع الثانوية:

- **إبراهيم بيضون:** الدولة العربية في اسبانيا- الطبعة ٣- بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٦م.
- **إبراهيم علي طرحان:** المسلمون في أوروبا – القاهرة مطبعة سجل العرب، ١٩٦٦م. أنهار، سيرة شرلمان، حققه عادل زيتون، طبعة ١، دمشق، دار حسان.
- **ابن بسام المحتسب:** نهاية الرتبة في طلب الحسبة، حققه، حسام الدين السمرائي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٨٦٨م.
- **أبو اسحق إبراهيم محمد الاصطخري:** مسالك الممالك، ليدن، مطابع ابريل، ١٩٦٧م.
- **أبو الخطاب عمر بن الشيخ بن دوحية:** النبراس في تاريخ خلفاء بن العباس، حققه عباس الغزراوي، بغداد، مطبعة المعارف.
- **أبو الفاضل الله العمري:** مسالك الإبصار في ممالك الأبصار، ج٦، استانبول، سلسة عيون الزاد، ١٩٨٨م.
- **أبو الفرج قدامة بن جعفر:** نبذة من كتاب لخراج وصنعة الكتابة، ضمن كتاب المسالك والممالكلابن خرادذبة، نشرة دبي غوية، ليدن، مطابع أبريل١٩٨٩م، ص٢٢٩. انظر الملحق رقم (٢)، ص١١٧.
- **أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي:** الإشارة إلى محاسن التجارة، حققه البشري الشوريجي، ط٢، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٧م.
- **أبو بكر أحمد إبراهيم الفقية الهزاني:** ليدن مطابع أبريل ١٨٨٩م، الفصل الثاني.
- **أبو حنيفة الدينوري:** الأخبار الطوال حققه عبد المنعم عامر وجمال الدين سيال، ط١، القاهرة، دار الكتب العربية، ١٩٦٠م.
- أبو عبد الله القاسم بن سلام: الأموال، حققه محمد خليل هراس، ط٣، القاهرة، دار

الفكر، ١٩٨١م.

- **أبو عبدالله البكري:** المغرب في ذكر أفريقيا والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، بغداد، مكتبة المثنى.
- **أبو علي أحمد بن محمد بن مسكوي:** تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج٦، وزارة الثقافة ، ١٩٦٨م.
- **أبوبكر أحمد ثابت الخطيب،** تاريخ بغداد، ج٣، بيروت، دار الكتب اللبناني، ب ت.
- **أدوار بروي:** تاريخ الحضارات العام القرون الوسطى، ت أسعد وفريد داغر، ط بيروت، منشورات عزيدات، ١٩٦٥م.
- **أرشيالد لويس:** القوى البحرية التجارية في حوض البحر المتوسط، ت، أحمد محمد عيسى– القاهرة ١٩٦٠م.
- **إسماعيل: عز الدين:** في الأدب العباسي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٥م.
- **أمين أحمد:** ضحي الإسلام الجزء الأول، الطبعة العاشرة، بيروت، دار الكتب اللبناني، ١٩٣٥م.
- **أوليري دي لاسي:** علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، ترجمة وهيب كامل، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٦م.
- **بينز نورمان:** الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة، الدار القومية للطباعة، ١٩٥٧م.
- **تاتون رنية:** تاريخ العلوم العام ، ترجمة على مقلد، المجلد الأول، الطبعة الأولى، بيروت، المؤسسة الجامعية للنشر، ١٩٨٨م.
- **ج، ف، ب، هويكار:** النظم الإسلامية في المغرب، في القرون الوسطى، ت، أمين توفيق الطيب، طرابلس الدار العربية للكتاب، ١٩٠٨م.
- **جب هاملتون:** دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرون،

الطبعة الثالثة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م.

- **جميل المدور:** حضارة الإسلام في دار الإسلام – القاهرة – مطبعة الاتحاد، ١٩٣٢م.
- **جورج سارتون:** العالم الإسلامي في كتاب الشرق الأدنى، مجتمعه وثقافته، ت، كوبكر ينج، عبدالرحمن محمد أيوب، القاهرة– الدار المتحدة للنشر.
- **جورج سارتون:** العلم الإسلامي، فلي كتاب الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته، ت: كوبكرينج، عبد الرحمن محمد أيوب، القاهرة، الدار المتحدة للنشر، د– ت.
- **جوزيف نسيم يوسف:** الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى، القاهرة – دار الفكر الجامعي، ١٩٨٦م.
- **الحاوي أيليا:** شرح ديوان أبي تمام، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١م.
- **حتى فيلب:** موجز تاريخ الشرق الأدنى، ترجمة أنيس فريحه، بيروت، دار الثقافة للنشر، ١٩٦٥م.
- **حداد جورج:** المدخل إلى تاريخ الحضارة البيزنطية، دمشق، مطبعة الجامعة، ١٩٥٨م.
- **حسن الطوسي:** سياسات تامة سيرة الملوك تحقيق يوسف حسين بكار – بيروت – دار القدس، د.ت
- **حسن حلاق:** العلاقات بين الشرق والغرب – بيروت– الدار الجامعية ١٩٨٦م.
- **حسين علي المسري:** تجارة الطرق في العصر العباسي، الكويت منشورات ذات السلاسل، ١٩٨٢م.
- **حسين محمد فهيم:** آداب الرحلات الكويت عالم الرحلات، عالم المعرفة للنشر، ١٩٨٩م.

- **الدوري عبد العزيز:** الجذور التاريخية للشعوبية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الطبعة ١٩٨١م.
- **ر. بلاشر:** منتجات الجغرافيين في العصور الوسطى، بيروت، الطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٢م.
- **رستم أسد:** الروم في سياستهم وحضارتهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، الجزء الأول، بيروت، دار الكشوف، ١٩٥٥م.
- **رضا السيد حسن:** المعارك بين العرب والروم، بيروت، الدار العالمية للنشر، ١٩٨٥م.
- **رنسيمان ستيفن:** الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م.
- **سعيد عاشور:** أوروبا في العصر الوسطى، ج١،ط١٥، القاهرة، مكتبة الانجليز المصرية، ١٩٨٦م.
- **سليمان صفيدع الرحيلي:** العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة – الرياض دار الهدي للنشر.
- **سوسة أحمد:** الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية، الجزء الأول، بغداد، نقابة المهندسين العراقية، ١٩٧٤م.
- **السيد الباز العريني:** الدولة البيزنطية ، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٢م.
- **شارل بلات:** الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ت، إبراهيم الكيلاني، دمشق، دار النهضة العربية ١٩٦١م.
- **الشكعة مصطفى:** الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتب اللبناني، ١٩٧٤م.
- **شكيب أرسلان:** تاريخ الغزوات الغرب في فرنسا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط – بيروت دار مكتبة الحياة، ١٩٨٣م.

- **شوقي خليل:** الحضارة الإسلامية، ط١، طرابلس، منشورات الدعوة الإسلامية، ١٩٨٧م.
- **صبرة عفاف السيد:** الإمراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية في زمن شارلمان، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٢م.
- **صلاح بكري:** في جنوب الجزيرة العربية، ط١ القاهرة، مطبعة الحسين ١٩٤٩م.
- **ضيف شوقي:** تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، الجزء الثالث، القاهرة، دار المعارف، ب ت.
- **العبادي مصطفي:** العصر الهيلينستي "مصر"، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م.
- **عباس بن راشد محمد:** رسالة في وصف الرحلة على بلاد الترك- الخزر الروس والثقالبة، حققه سامي الدهانة – دار دمشق، منشورات دار وزارة الثقافة ١٩٥٩م.
- **عبد القادر اليوسفي:** العلاقات بين الشرق والغرب، بيروت، المكتبة الفكرية، ١٩٦٩م.
- **عبد الله وديع فتحي:** العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٠م.
- **عبدالجبار الجرمود:** هارون الرشيد،ج٢، بيروت- دار الكتب، ١٩٥٦م.
- **عثمان فتحي:** الحدود الإسلامية البيزنطية والدولة الإسلامية، القاهرة، دار البيان العربي، ١٩٥١م.
- **عز الدين أبو عبد الله محمد علي شداد:** الإعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، حققه سامي الدهان، بيروت، المكتبة الكاثلوكية، ١٩٥٨م.
- **عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي شداد:** الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، حققه سامي الدهان، بيروت، المكتبة الكاثوليكية، ١٩٥٧م.

- **عزالدين إسماعيل:** في الأدب العباسي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٥م.
- **عزيزة سوريال عطية:** العلاقات بين الشرق والغرب، تحقيق: فليب صابر سيف، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٢م، ص٤٢-٢٥.
- **عمر كحال توفيق وحياة ناصر الحجي:** الدبلوماسية والعلاقات السلمية بين الصليبيين، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ١٩٨٧م.
- **العودات حسين:** العرب والنصارى الطبعة الأولى، دمشق، دار الأهالي، ١٩٩٢م.
- فارمر هنري جورج: تاريخ الموسيقي العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي، ترجمة جرجيس فتح الله، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٢م.
- **فاروق عمر:** بحوث في تاريخ العباسي – ط١ – دار القلم ١٩٧٢م.
- **فازيليف:** أ. أ: العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٣٤م.
- **فلسطين بوفير جيتوس:** إدارة الإمبراطورية البريطانية، حققه، محمود سعيد عمران، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م.
- **فهيم حسين محمد:** أدب الرحلات، الكويت، عالم المعرفة للنشر، ١٩٨٩م.
- فيصل شكري: المجتمعات الإسلامية، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٥٢م.
- **قسطنطية بورفير جلنيوس:** إدارة الإمبراطورية البيزنطية، حققه محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م.
- **كارلو نللينو:** علم الفلك وتاريخ عند العرب، روما، مطابع روما، ١٩١١م.
- **كب ستانوود:** المسلمون في تاريخ الحضارة، ترجمة محمد فتحي عثمان، الطبعة الثانية، الرياض، دار السعودية للنشر، ١٩٨٥م.
- **كبرك جورج:** موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر الإسكندري، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، ١٩٥٤م.
- **كراتشكوفسكي أغناطيوس:** تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين

عثمان هاشم، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣م.

- **ليسترانج جاي:** بلدان الخلافة الشرقية، ت، بشير فرنسيس وكوركيس غود، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٤م. **انظر أيضاً:** عليه عبد السميع الجنزولي، الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البزينطية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م.
- **ليفي بروفال:** الإسلام في المغرب والأندلس، ت، السيد محمد عبد العزيز سالم، القاهرة، دار النهضة، ١٩٥٦م.
- مؤنس حسين: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، الطبعة الثانية، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة، ب ت.
- **مجدي خدوري:** الحرب والسلم في شريعة الإسلام، ط١ – بيروت – الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٣م.
- **محمد بن محمد القرشي المعروف بابن الأخوة:** معالم القربة في أحكام الحسبة نقله روبين لوي، كمبردج، دار الفنون، ١٩٧٣م.
- **محمود أحمد بن محمد المقدس:** أحسن الأقاليم في معرفة الأقاليم ج١، ليدن، مطابع أبريل.
- **مراد موسى يونان:** حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي، بيروت، مطبعة مارفرام، ١٩٧٣م.
- **مرحبا محمد عبد الرحمن:** الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٠م.
- **مصطفى شاكر:** دولة بني العباس، الجزء الثاني، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٤م.
- **معروف ناجي:** أصالة الحضارة العربية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٥م.

- **ميكيل أندرية:** جغرافية دار الإسلام البشرية، ترجمة إبراهيم خوري، الجزء الأول، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨٣م.
- **نبيه عاقل:** دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ج١- جامعة دمشق ١٩٦٧م.
- **نظير حسان سعودن:** نظام البريد في الدولة الإسلامية- القاهرة- دار مصر للطباعة ١٩٥٣م.
- **نقولا زيادة:** الجغرافيا والرحلات عند العرب، بيروت، الدار الأهلية للنشر ١٩٠٨م.
- **هنري جورج فارس:** تاريخ الموسيقي العربية، ت جرجس فتح الله، بيروت، منشورات مكتبة دار الحياة، ١٩٧٢م.
- **وسام عبد العزيز فرج:** العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية
- **وليد الصوري:** الحروب الصليبية ترجمة حسن حسني ج١- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١م.

ثالثاً: **الدوريات**:

- **الحياري: مصطفى علي:** حياة الناس في مدن الثغور " مدينة طرسوس" ، مجلة الدراسات التاريخية، العدد الرابع، دمشق، ١٩٨١م.
- ريجارد كوك، بغداد مدينة السلام، ت فؤاد جميل، ج١، ط١، بغداد، مطبعة شفيق.
- **سارتون: جورج:** العلم الإسلامي من كتاب الشرق الأدنى، مجتمعه وثقافته، ت. كويكرينج، ترجمة عبد الرحمن محمد أيوب، القاهرة، الدار المتحدة للنشر، ب-ت.
- **كارل بروكلمان:** تاريخ الشعوب الإسلامية، ت منير البعلكي آخرون، ط٥، بيروت، دار العلم للملايين.
- **لومبار: موريس**، الإسلام في مجده الأول، ت إسماعيل العربي، ط٥، الرباط، دار الأفق الجديد.
- **مايرهوف: ماكس:** من الإسكندرية إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية- دراسة لكبار المستشرقين، ترجمها عبد الرحمن بدوي الطبعة الرابعة، بيروت، دار القلم، ١٩٨٤م.
- **ناصر خسرو**، سفرتامة، يحي خشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م.

رابعاً: المعاجم والموسوعات والأطالس والقواميس

- **ابن منظور:** أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم "ت = ٧١١هـ– ١٣١١م". لسان العرب، الجزء: الأول، والتاسع عشر، والمجلد الثالث عشر، بيروت، دار صاعد، ١٩٦٦م.
- **ايس: إبراهيم:** المعجم الوسيط، الجزء الأول، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٢م.
- **الترمايني: عبد السلام:** أزمنة التاريخ الإسلامي، مراجعة وتحقيق شاكر مصطفى وأحمد مختار العبادي، الجزآن الأول والثاني، الطبعة الأولى، الكويت، قسم التراث العربي، ١٩٨٢م.
- **زعين: حسن فاضل:** العلاقات السياسية الخارجية في موسوعة حضارة العراق، لنخبة من الباحثين العراقيين، الجزء السادس، دار النشر، ١٩٨٣م.
- **عبد الباقي: محمد فؤاد:** المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الطبعة الأولى، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٦م.
- **مؤنس حسين:** أطلس تاريخ الإسلام، الطبعة الأولى، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧م.

خامساً: المراجع الأجنبية:

- Hussy: J. M, (The Byzantine Empier) The Cambridge Medieval history, Part 2, Civilization Edited. Press, 1967.
- Koutrakou: N, (Diplomacy and Espionage: Their role in the Byzantine foreign Relations: 8th -10th) In Graeco-Arabic, vol V1, Athens 1995.
- Krueger H. C, (The Italian cities and Arabs before 1095), in a history of the crusades, Vol 1, Ed. By N W. Baldwin. Uni of Wisconsin Press, 1969.
- Minorsk V, Hadud al Alam, (The Rigins of the World). London, Oxford University 1937.
- Ostrgorsky G, History of the Byzantine state, tr. By J.M. Hussy, New Brun Swick, N.J. 1969.
- Saunders J.J, a History of medieval Islam, London, 1965.
- Serjeant R. B, Islamic textiles, printed in London, 1972.
- Theophanes: the Chronicle, tr. By H. Turdove, Uni. Of Penn. Press 1982.
- Vasilive A.A, History of the Byzantine Empire, vol. 1-2, the Uni. Of Wisconsin Press, 1958.
- Verlinden C, (Les Radaniya: in terme'diaires commerciaux enter les mondes Germano-Slave et Gre'co-Arabe) in Graeco-Arabica, vol. VI, Athens, 1995.
- Wilson N. G, Scholars of Byzantium, London 1983.



الملاحق

الملاحق

الملحق (١)

جدول بأسماء الخلفاء العباسيين والأباطرة البيزنطيين وأهم الأحداث في عصر كل منهما

الخليفة	سنة تولي الحكم	الإمبراطور	أهم الأحداث
أبو العباس السفاح	١٣٢هـ/٧٥٠م	قسطنطين الخامس	- سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م وقيام الدولة العباسية، استمرار المشكلة ألا أيقونية في الدولة البيزنطية بسبب تحريم عبادة الصور المقدسة.
أبو جعفر المنصور	١٣٦هـ/٧٥٤م		- ثورة سنباذ المجوسي في خراسان سنة ١٣٧ هـ/٧٥٤م مطالباً بدوم أبي مسلم بعد قتله. - ثورة الراوندية سنة ١٤١هـ/٧٥٩م في هاشمية الكوفة. - بناء مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ/٧٦٣م. - ثورة أستاذ سيس سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م في هراة وسحستان.
المهدي	١٥٨هـ/٧٧٥م	ليو الرابع "الخزري"	- ثورة المقنع سنة ١٥٩هـ/٧٧٦م في خراسان وما وراء النهر. - ظهور حركة الزندقة في الدولة العباسية سنة ١٦٠هـ/٧٨٠م وفي السنة نفسها قتل المهدي جماعة من الزنادقة وحرق كتبهم. - وفاة الإمبراطور ليو الرابع سنة ١٦٤هـ/٧٨٠م وتنصيب ابنه قسطنطين السادس إمبراطوراً، وتولي أمه "إيرين" الوصاية عليه.
الهادي	١٦٩هـ/٧٨٥م		
هارون الرشي	١٧٠هـ/٧٨٦م ١٨١هـ/٧٩٧م ١٨٦هـ/٨٠٢م	إيرين نقفور الأول	- بناء دار الحكمة سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م ببغداد. - إيرين تخلع ابنها وتستولي على الحكم وتنصب نفسها إمبراطورة على عرش الدولة البيزنطية. - إنفراد إيرين بالحكم، وازدياد نشاط المسلمين الحربي على أراضي الدولة البيزنطية. - سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م توج شارلمان إمبراطوراً على الدولة الرومانية الغربية وانفصالها عن الدولة البيزنطية في الشرق. - سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م خلع الجيش الإمبراطورة إيرين ونصب القائد نقفور إمبراطور على الدولة البيزنطية باسم "نقفور الأول". - نقض الإمبراطور نقفور الهدنة، فتوجه الخليفة هارون لمحاربته ووصل إلى هرقلة فصالحه، ثم نقض العهد ثانية فعاد الرشيد لحربهم مرة أخرى في الشتاء.

			- ثورة الخرمية بنواحي أذربيجان سنة ١٩١هـ/٨٠٧م.
الأمين	١٩٣هـ/٨٠٨م ١٩٦هـ/٨١١م	ميخائيل الأول "رانجاب"	- سنة ١٩٦هـ/٨١١م قتل الإمبراطور نقفور في معركة دارت بينه وبين البلغار وتولى زوج ابنته ميخائيل الأول إمبراطوراً على الدولة البيزنطية. - اعتراف الدولة البيزنطية بشارلمان إمبراطوراً سنة ١٩٧هـ/٨١٢م. - سنة ١٩٨هـ/٨١٣م خلع الإمبراطور ميخائيل الأول، ونصب على العرش البيزنطي ليو الخامس "الأرمني".
المأمون	١٩٨هـ/٨١٣م	ميخائيل الثني "العموري"	- سنة ٢٠١هـ/٨١٦م أعلن بابك الخرمي ثورة العصيان على الدولة. - تحريم عبادة الأيقونات "الصور المقدسة". - سنة ٢٠١هـ/٨١٨-٨١٩م قتل الإمبراطور ليو الخامس وتولي العرش البيزنطي ميخائيل الثاني "العموري".
	٢٠٥هـ/٨٢٠م	ميخائيل الثاني "العموري"	- يعد الإمبراطور ميخائيل الثاني مؤسس الأسرة العمورية التي حكمت بيزنطة من سنة ٢٠٥-٢٥٣هـ/٨٢٠-٨٦٧م. - بدء ثورة الزط في جنوب العراق "الأهواز" سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م. - ثورة توماس الصقلي سنة ٢٠٦-٢٠٨هـ/٨٢١-٨٢٣م في الأناضول ٨٢١-٨٢٣م. - استيلاء المسلمين "أهل الربض الأندلسيين" على جزيرة كريت سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م. - ظهور مسألة خلق القرآن في الدولة العباسية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م.
	٢١٨هـ/٨٣٣م	ثيوفيل	- إقامة المأمون مرصد فلكي على جبل قاسيون بدمشق سنة ٢١٧هـ/٨٣٢م.
المعتصم	٢١٨هـ/٨٣٣م		- تحالف الإمبراطور ثيوفيل مع الثائر بابك الخرمي على حرب المسلمين رداً على إعانة المأمون للثائر توماس الصقلي. - القضاء على ثورة الزط سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م ونقلهم الخليفة منطقة الحدود البيزنطية بعد قتل الأعداد الكثيرة منهم. - القضاء على ثورة بابك الخرمي سنة ٢٢٢هـ/٨٣٦م. - تخريب الخليفة ثيوفيل زبطرا سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م. - تخريب الخليفة المعتصم لعمورية سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م. - سنة ٢٢٤هـ/٨٣٩م أعلن المازيار الثورة بطبرستان.
الواثق	٢٢٧هـ/٨٤٢م	ميخائيل	- وفاة الإمبراطور ثيوفيل وتنصيب ابنه ميخائيل الثالث وتولي أمه ثيودورا الوصاية عليه حتى سنة ٢٢٧-٢٤٣هـ/٨٤٢-٨٥٦م. - الخليفة الواثق يأمر بامتحان العلماء في مسألة القرآن. - إجراء فداء بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م وقد امتحن الخليفة الواثق في هذا الفداء الأسرى في مسألة القرآن قبل فدائهم.

الملحق (٢)

نشاط المسلمين الحربي في الفترة من ١٣٢-٢٣٢ هـ/٧٥٠-٨٤٦م

١٣٣هـ/٧٥١م	في هذه السنة أقبل الإمبراطور قسنطين الخامس، وفرض الحصار على ملطية فاستسلمت المدينة فدخلها وهدمها، كما استولى على حصن قلوذية، وخرب حصن سميساط، فأرسل الخليفة أبو العباس صائفتين الأولى إلى ملطية بقيادة عميه صالح بن علي وعيسى بن علي، والثانية بقيادة النضر بن بريم الحميري الذي دخل الطوافة.
١٣٤هـ/٧٥٢م	خرجت غارة بحرية إلى صقلية بقيادة أمير أفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري، وأخرى إلى جزيرة سردينيا بقيادة عبد الرحمن بن حبيب أيضاً الذي أجبر حاكم الجزيرة على دفع إتاوة.
١٣٥هـ/٧٥٣م	في هذه السنة خرجت صائفتان الأولى بقيادة النضر بن بريم والثانية بقيادة صالح بن علي.
١٣٦هـ/٧٥٤م	أرسل الخليفة والية على الشام عبد الله بن علي، على رأس حملة لكن على الرغم من تجهيزها، فإن خبر وفاة الخليفة جعله يعود عن قيادة هذه الحملة.
١٣٩هـ/٧٥٧م	تم بناء ملطية على يد صالح بن علي والعباس بن محمد، ثم خرجا من درب الحدث متوغلين في الأراضي البيزنطية، وكان مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة، وكانتا نذرتا إن زالت دولة بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله.وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهراني، وفي هذه السنة أجري فداء، فافتدى الخليفة المنصور أسرى المسلمين من البيزنطيين، وتشير بعض المصادر الإسلامية إلى توقف النشاط الحربي للمسلمين إلى سنة (١٤٦هـ-٧٦٣م) لإشغال الخليفة المنصور بأمر العلويين.
١٤١هـ/٧٥٨م	أرسل المنصور صائفة بقيادة عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، والحسن بن قحطة في جيش كبير قدر بسبعين ألفاً فنزلوا ملطية وعمروا ما خربه البيزنطيون فأتموا بنائها في ستة أشهر، وأسكن بها أربعة آلاف من الجند، هذا إلى جانب ترميم حصن قلوذية ولم يكتف الخليفة بهذا، بل أمر قائده جبرائيل بين يحي الخراساني بناء المصيصة فأتم بناءها وتحصينها، وبني بها مسجداً ًجامعاً، وسماها المعمورة.
١٤٢هـ/٧٥٩م	وجه أبو جعفر المنصور أخاه العباس بن محمد والياً على الجزيرة والثغور وضم إليه عدداً من القواد فمكث بها حيناً.
١٤٦هـ/٧٦٣م	خرجت صائفة بقيادة جعفر بن حنظلة البهراني، كما اتجهت صائفة أخرى بقيادة مالك بن عبد الله الخثعمي ـ الذي يقال له مالك الصوائف، وهو من أهل فلسطين ـ

	إلى الأراضي البيزنطية فاستولى على غنائم كثيرة ثم رجع فلما بلغ موضع يدعى الرهوة من درب الحدث، نزل وقسم سهام الغنيمة قسمين فسميت تلك الرهوة برهوة مالك.
١٤٨هـ/٧٦٥م	أقام صالح بن علي معسكراً لجيشه بدابق ولم يغزُ.
١٤٩هـ/٧٦٦م	خرج العباس بن محمد ومعه الحسن بن قحطبة، ومحمد بن الأشعث على رأس جيش كبير لغزو بيزنطة، فتوفى محمد بن الأشعث في الطريق فأجبرتهم وفاته على الرجوع.
١٥١هـ/٧٦٨م	خرجت صائفة بقيادة عبد الوهاب بن إبراهيم ولم تدرب "أي لم تدخل الحدود البيزنطية".
١٥٣هـ/٧٧٠م	غزا الصائفة معيوف بن يحي الحجوري، ونجح في دخول أحد الحصون البيزنطية ليلاً فغنم وأسر أعداداً كبيرة، ثم توجه إلى اللاذقية ففتحها وسبى منها.
١٥٤هـ/٧٧١م	خرج زفر بن عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي أحد قادة المنصور على رأس جيش قاصداً المصيصة فدخلها وتوغل فيها، ثم عاد من درب مرعش بعد أن حمل معه الكثير من الغنائم.
١٥٥هـ/٧٧٢م	عرض الإمبراطور قسطنطين الخامس على الخليفة المنصور عقد هدنة ودفع مبلغ من المال تأميناً لحدوده الشرقية، حتى يتفرغ لحرب البلغار.
١٥٦هـ/٧٧٣م	خرج زفر بن عاصم الهلالي على رأس صائفة.
١٥٧هـ/٧٧٤م	أمر الخليفة أبو جعفر المنصور قائده يزيد بن أسيد السلمي بغزو الصائفة، فوجه القائد يزيد عامله سنان مولى البطال على رأس جيش إلى بعض الحصون البيزنطية فاستولى على الكثير من الغنائم والسبايا، وقيل إن الذي قاد الصائفة زفر بن عاصم.
١٥٨هـ/٧٧٥م	غزا الصائفة في هذه السنة معيوف بن يحي من درب الحدث ورغم لقائه مع الجيش البيزنطي إلا أنه لم يحقق أي نتائج.
١٥٩هـ/٧٧٦م	أغزى الخليفة المهدي عمه العباس بن محمد على صائفة، اشترك فيه القائد الحسن الوصيف من الموالي، ضم إليه الخليفة جماعة من قواد أهل خراسان وغيرهم وأقاموا "بالبردان" وفتحوا في غزوتهم هذه حصن المطمورة، ورجعوا دون خسائر.
١٦٠هـ/٧٧٧م	خرج القائد العباسي ثمامه بن الوليد العبسي على رأس صائفة وقام الغمر بن العباس الخثعمي بغارة بحرية إسلامية في بحر الشام.
١٦١هـ/٧٧٨م	أرسل الخليفة قائده ثمامه بن الوليد أيضاً على رأس قوة كبيرة، فعسكر ثمامه بالقرب من حلب في منطقة دابق وكان مغتراً بقواته فخرج من دابق ووصل إلى الحدث فحاصرها ودارت معركة عنيفة بينه وبين الجيش البيزنطي قتل فيها عدد من المسلمين، ولما كان عيسى بن علي مرابطاً بجيشه في حصن مرعش، فلم يكن للمسلمين صائفة في ذلك العام.
١٦٢هـ/٧٧٩م	تمكن القائد العباسي يزيد بن أسيد السلمي من عبور أبواب قليقيا، وفتح ثلاثة حصون فغنم وسبى عدداً كبيراً. وعن طريق البحر غزا الغمر بن العباس، وفي

	السنة نفسها خرج البيزنطيون إلى حصن الحدث فهدموا سوره، وغزا الصائفة الحسن بن قحطبة فوصل حمة أدرولية وحرق دون أن يفتح حصناً، حتى أن البيزنطيين سموه التنين.
١٦٣هـ/٧٨٠م	أرسل المهدي ابنه هارون الرشيد على رأس جيش إلى الأراضي البيزنطية، وكان الرشيد في ذلك الوقت ولي العهد فاستولى على قلعة سمالو بعد أن فرض عليها الحصار ونصب المجانيق وتعرض الحصن للتخريب، كما تعرض أهله للعطش والجوع وكانت الخسائر لدى الطرفين كبيرة بسبب اشتداد المقاومة.
١٦٤هـ/٧٨١م	أرسل الخليفة المهدي قائده عبد الكبير بن عبد الحميد، فخرج من درب الحدث وتصدى له الجيش البيزنطي بقيادة ميخائيل البطريق في نحو من تسعين ألفاً فيهم طازاد الأرمني البطريق ففشل عبد الكبير وانسحب دون مواجهة، فأراد المهدي فلته لكنه تراجع.
١٦٥هـ/٧٨٢م	جهز المهدي جيشاً ولي قياداته ابنه هارون، فبلغ خليج القسطنطينية عند مضيق البسفور، وكان على عرش الدولة البيزنطية إيرين الوصية على ابنها قسطنطين السادس، فبادرت بطلب الصلح والمهادنة من هارون فاتفقا على هدنة مدة ثلاث سنوات.
١٦٦هـ/٧٨٣م	رجع هارون بعد أن عقد المعاهدة التي كان من شروطها أن تدفع إيرين مبلغاً من المال قدر بسبعين أو تسعين ألف دينار، وأن يتم تبادل الأسرى بين الطرفين، وأن تلتزم إيرين بفتح الأسواق وإمداد الجيش بأدلاء في طريق عودته.
١٦٨هـ/٧٨٤م	نقض البيزنطيون الهدنة فأمر الخليفة المهدي على بن سليمان والي العراق وقنسرين بإرسال حملة إلى الدولة البيزنطية فجهز والي العراق جيشاً بقيادة عامله يزيد بن بدر بن البطال الذي عبر الحدود البيزنطية فظفر وعاد بالكثير من الغنائم.
١٦٩هـ/٧٨٥م	سارت صائفة بقيادة معيوف بن يحي عن طريق درب الراهب وفي الوقت نفسه خرج البيزنطيون من درب الحدث فدخلها معيوف ثم وصل بجيشه إلى مدينة "أشنه" وغنم منها أيضاً.
١٧٠هـ/٧٨٦م	أغزى الخليفة هارون قائده سليمان بن عبد الله البكائي، وفي السنة نفسها أمر ببناء مدينة طرسوس، فأتم أبو سليم فرج الخادم التركي بناءها وتحصينها وبناء مسجدها سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م، وفيها عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين، وجعلها حيزاً واحداً، وسماها العواصم.
١٧٢هـ/٧٨٨م	غزال الصائفة محمد ابن إبراهيم، وقيل إن هارون أعزى الصائفة قائده إسحاق بن سليمان بن علي.
١٧٣هـ/٧٨٩م	أرسل إبراهيم بن عثمان على رأس صائفة.
١٧٤هـ/٧٩٠م	في هذه السنة قاد الصائفة سليمان بن أبي جعفر.
١٧٥هـ/٧٩١م	غزا عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح جزيرة كريت، لكنه أمر أسطوله بالانسحاب بسبب البرد الشديد.
١٧٦هـ/٧٩٢م	تولى قيادة الصائفة في هذه السنة هاشم بن الصلت.
١٧٧هـ/٧٩٣م	خرج داود بن النعمان على رأس صائفة من قبل عبد الملك بن صالح.

١٧٨هـ/٧٩٤م	أرسل الخليفة هارون جيشاً عباسياً كبيراً بقيادة سليمان بن راشد الثقفي، وقد تعرض الجيش العباسي في هذه الحملة لمطر الشتاء وقاسي الجنود الكثير بسبب البرد.
١٧٩هـ/٧٩٥م	خرج الفضل بن محمد على رأس صائفة، وفي السنة نفسها أرسل الخليفة هارون أسطوله البحري بقيادة مسلم بن زيادة الأصم، ولم تحدد المصادر الإسلامية وجهته.
١٨٠هـ/٧٩٦م	قاد الصائفة إسماعيل بن القاسم.
١٨١هـ/٧٩٧م	في هذه السنة غزا هارون الرشيد حصن الصفصاف، وفيها أيضا ًأرسل حملة بقيادة عبد الملك بن صالح، فبلغ أنقره واستولى على كثير من الغنائم، وفي السنة نفسها تم الاتفاق على عقد هدنة بين الطرفين وتبادل الأسرى وقام بأمر الفداء أبو سليم فرج خادم الرشيد وحدث الفداء بمكان يعرف بللامس، وبلغ عدد الأسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير.
١٨٢هـ/٧٩٨م	أغزى عيسى بن جعفر قائده إبراهيم بن القاسم على رأس الصائفة.
١٨٣هـ/٧٩٩م	خرجت صائفة بقيادة الفضل بن العباس.
١٨٤هـ/٨٠٠م	أرسل محمد بن إبراهيم على رأس صائفة.
١٨٥هـ/٨٠١م	في هذه السنة غزا إبراهيم بن عثمان الصائفة.
١٨٦هـ/٨٠٢م	خرج إبراهيم بن عثمان على رأس صائفة أيضاً.
١٨٧هـ/٨٠٣م	أرسل الخليفة ابنه القاسم على رأس صائفة فدخل من درب الصفصاف ووصل إلى خصن قرة وحاصره، ومن قرة أرسل قائدا ًيدعى العباس بن جعفر بن الأشعث، فحاصر حصن سنان إلى أن أرسل إليه نقفور طالباً الصلح.
١٨٨هـ/٨٠٤م	أرسل هارون صائفة بقيادة ابنه القاسم الذي كلف بها القائد إبراهيم بن جبريل فتحرك الإمبراطور نقفور لمواجهة هذا الجيش، وتشير المصادر الإسلامية إلى أن نقفور جرح ثلاثة جروح.
١٨٩هـ/٨٠٥م	تم في هذه السنة الفداء بين الطرفين وتولى أمر الفداء من جانب الدولة العباسية القاسم بن الرشيد وحضره أبو سليم فرج خادم الرشيد، وتم هذا الفداء في اللامس وبلغ عدد الأسرى من المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير تم فداؤهم في اثني عشر يوماً.
١٩٠هـ/٨٠٦م	نقض نقفور الهدنة، وأغار على عين زربة والكنيسة السوداء وحصل على غنائم كثيرة، إلا أن الجيش الإسلامي في حصن المصيصة تمكن من استرداد ما غنمه البيزنطيون، فلما بلغ ذلك هارون الرشيد، فوض ابنه المأمون الأمور وخرج بجيشه فاستولى على عدد من الحصون هي: "الصقالبة، دبسة، الصفصاف، ملقوبية" ووصل إلى مدينة هرقلة، التي فرض عليها حصاراً دام ثلاثين يوماً، ورحل عنها بعد أن سبى وغنم الكثير من الغنائم، وفي السنة نفسها غزا الأسطول الإسلامي جزيرة قبرص بقيادة حميد بن معيوف فاستولى على الكثير من الغنائم والسبايا.
١٩١هـ/٨٠٧م	سار الرشيد إلى درب الحدث وأقام ثلاثة أيام، ومن هناك وجه قائده هرثمة بن

	أعين على رأس صائفة، ضمت ثلاثين ألف جندي معظمهم من خراسان.
١٩٢-١٩٣هـ /٨٠٨-٨٠٩م	عقدت معاهدة صلح بين الدولتين تم بمقتضاها الاتفاق على تبادل الأسري، وتولى أمر الفداء من جانب الدولة العباسية ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي.
١٩٤هـ/٨١٠م	أرسل ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي الحسن بن مصعب على رأس صائفة.
١٩٥هـ/٨١١م	خرج ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي على رأس صائفة.
١٩٦هـ/٨١٢م	غزا الصائفة ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي أيضاً.
١٩٧هـ/٨١٣م	تولى في هذه السنة ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي أمر الصائفة.
٢١٥هـ/٨٣٠م	غزا الخليفة المأمون بنفسه الأراضي البيزنطية، ودخل عدة حصون منها قرة، وماجده، وسندس، وسنان.
٢١٦هـ/٨٣١م	عاد المأمون مرة أخرى إلى الأراضي البيزنطية بعد أن بلغه تخريب البيزنطيين المصيصة وطرسوس، ثم رجع إلى دمشق بعد أن استولى على حصن هرقلة وحصون أخرى معه.
٢١٧هـ/٨٣٢م	خرج الخليفة المأمون بنفسه على رأس جيش إلى غزو بيزنطة، فحاصر حصن اللؤلؤة مائة يوم، ثم رحل عنه بعد أن استخلف عليه قائده عجيف بن عنبسه، فأرسل الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل سفيراً يطلب من الخليفة الهدنة والصلح.
٢١٨هـ/٨٣٣م	وجه المأمون ابنه العباس إلى الأراضي البيزنطية، وأمره بتزول الطوانة وبنائها، وفي السنة نفسها خرج الخليفة المأمون القسطنطينية، فأتاه سفير من الإمبراطور يدعوه مرة أخرى إلى الصلح والمهادنة وفداء الأسرى، لكنه رفض فلما وصل موضع قريب من اللؤلؤة أقام فيه أياماً ثم توفى.
٢٢٢هـ/٨٣٧م	غزا الإمبراطور ثيوفيل مدينة زبطرا فقتل الرجل وسبى النساء وخرب المدينة.
٢٢٣هـ/٨٣٨م	خرج المعتصم بنفسه على رأس كبير، غزا عمورية وفتح أنقره وهدمها، وأمر ببناء زبطرا وتحصينها.
٢٢٤هـ/٨٣٩م	تم إجراء الفداء بين المسلمين والبيزنطيين في عصر الخليفة الواثق، وعرف هذا الفداء بفداء خاقان نسبة إلى الفتح بن خاقان التركي.



الملحق (٣)

رسالة الأمير عبد الرحمن الثاني "الأوسط" إلى الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فقد بلغني كتابك، تذكر فيه الذي كان عليه من مضى منكم لأولينا من المودة الصادقة، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا، وإرسال قرطيوس رسولك إلينا لتجديد تلك المودة، وترتيب تلك المصادقة، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به، ونتواصل له، ونبعث رسلا من عندنا إليك، ليعلموك بالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه، ودعوت إليه، لتثبت بقدومهم عليك مودتنا، وتتم به صداقتنا.

وفهمنا ما ذكره من أمر الخليفة مروان رضي الله عنه وصلى عليه، ومن وشائج قرابتنا منه، وآسيت لما استلب من سلطانه، واستبيح من حرمه، واستحل من دمه، وما كان من الفاجر أبي جعفر تربه الله، وجرأته على الله، واغتراره به، وانتهاكه لمحارمه، والله قد أحصى عليه ذلك، فآسفة منه، فهو لا محالة يجازيه جزاء سعيه.

ثم الذي ذكرته من فعل ابن مراجل وابن ماردة أخيه بعده، من إلحادهما في نحلتهما، وإساءتهما لسيرتهما، ورغبتهما في رعيتهما، وشدة وطأتهما عليهم، واستحلالهما دماءهم وأموالهم، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم وانقطاع مدة سلطانهم، وتأذن الله برد دولتنا، وسلطان آبائنا، الذي نبأت عنهم الكتب ونطقت

بهم الرسل، وأوجب لهم الإجماع، وحازه إليهم البرهان، والذي حضضت عليه من الخروج إليهم، وطلب الثأر منهم، ووعدته من نصرتك لنا، بما ينصر الصديق صديقه، ومن يعلم هواه فيه ومودته له، وما عطفت عليه من أمر أبي حفص، ومن معه من جالية بلدنا، وغلبتهم على ما غلبوا عليه من بلدك، وخضوعهم لابن ماردة ودخولهم في طاعته، وما سألت من أهل الأذكار لذلك والأنفة منه، وحكيت من أمراء أفريقية في نزعهم عن ابن ماردة، وخلافهم عليه، واستثقالهم لدولته، من ذلك وقصصته في كتابك، فقد قرأناه وفهمناه.

وأما ما رغبت من مودتنا، وأحببته من مصادقتنا، وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه، مما كان عليه أولوك لأولينا، فقد رغبتنا منك في مثل الذي ذكرته من حرصك على مواصلتنا، وأن نتمسك من ذلك، بما كان عليه سلفنا، وما لم يزل من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به، ويتحاضون عليه، ويحفظه بعض لبعض، ويشددون أيديهم به.

وأما ما ذكرت من أمر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله، فإن الله تعالى أحب أن يكرمه، بما أنتهك من حرمته، ونكث من بيعته، ويسوقه إلى رحمته، وأن يشقى بذلك من ركبه منه، ويجزيه ويعذبه عليه.

وأما ما كان عليه الفاجر أبو جعفر في تعذيبه العباد، وظلمه وجرأته على الله، وانتهاكه لمحارمه، فإن الله قد أخذه بذنبه، واستدركه ببغيه، وصيره من عذابه ونكاله، إلى ما لا انقطاع له، ولا تخلص منه، جزاء بما اجترح، وكذلك حكم الله في أهل معصيته، وأولى الاجتراء والافتراء عليه.

وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قلته، وذكرته مع تقارب انقطاع دولته ودولة أهله، وزوال سلطانهم، وما حضر من وقت رجوع دولتنا، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا، فإننا نرجو في ذلك عادة الله

عندنا، ونستجزموا عوده إيانا، ونمتري حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قبلنا، من أهل شأمنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا، وما لم نزل نسمع ونعترف، أن النقمة تزل بهم والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا، فيقطع الله دابرهم، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى.

وأما ما ذكرت من ذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي، ومن صار معه من أخل بلدنا، في خضوعهم لابن ماردة، ودخولهم في طاعته من النظر في أمورهم، والإنكار لفعلهم، فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم وأباقهم، وليسوا في بلدنا ولا برتبتنا فنغير عليهم، ونكفيك مؤنتهم، وإنما اضطروا إلى الدخول في طاعة ابن ماردة، لمأمنهم من بلاده، ودنو ناحيتهم من ناحيته، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم، ولا تصعب عن نكايتهم، ولا تتوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك، وإذ ترى مكانهم به من موضعك، وإن الله بحوله وقوته وفضله ومنيته ردّ إلينا سلطاننا بالمشرق وما كان تحت أيدي أباءنا منه نظرنا في ذلك بما فيه صلاح لنا وذلك استقامة لطاعتنا وطاعتك، وعرفنا الذي يكون من معونتك على ما دعوت إليه وحضضت عليه بما يعرفه الصديق لصديقه، وذو المودة لأهل مودته، ولم يضع لك عندنا ما رعيته من حقنا وقمت فيه من حفظنا.

وقد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا، وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالح من قبلنا، فاكتب إلينا معهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتب به إلينا، والذي يجب علينا من سائر خيرك، ومتعة عافيتك لننظر فيما يتصرفان به من عندك علي حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله.[1]

[1] - بروفنسال، المرجع السابق، ص١١٥، ص١١٨.

الـمـلحق (٤)

سفارة الخليفة الواثق بالله إلى مدينة أفسوس بآسيا الصغرى لمشاهدة أهل الكهف

وعمل ترقسيس وفيه من الحصون أفسيس، وهي مدينة أصحاب الكهف، وقد قرئ في مسجدهم كتاب بالعربية بدخول مسلمة بلاد الروم، وكان الواثق بالله وجه محمد بن موسى المنجم إلى بلاد الروم لينظر إلى أصحاب الرقيم، وكتب إلى عظيم الروم بتوجيه من يوقفه عليهم، فحدثني محمد بن موسى أن عظيم الروم وجه معه من صار به إلى قرة، ثم صار أربع مراحل، وإذا جبيل قطر أسفله أقل من ألف ذراع، وله سرب من وجه الأرض ينفذ إلى الموضع الذي فيه أصحاب الرقيم، قال: فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته فإذا بئر محفورة لها سعة تبينا الماء في قعرها، ثم نزلنا إلى باب السرب فمشينا فيه مقدار ثلاثمائة خطوة فصرنا إلى الموضع الذي أشرفنا عليه فإذا رواق في الجبل على أساطين، منقور في الموتى، ورجل موكل بحفظهم، وإذا هو يحيد عن أن نراهم أو نفتشهم، ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من ألتمس ذلك آفة، يريد التمويه ليدوم كسبه بهم، فقلت له دعني أنظر إليهم وأنت برئ، فصعدت بشمعة غليظة مع غلامي، فنظرت إليهم في مسوح تتفرك في اليد وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم، غير أني أمررت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته. [١]

---

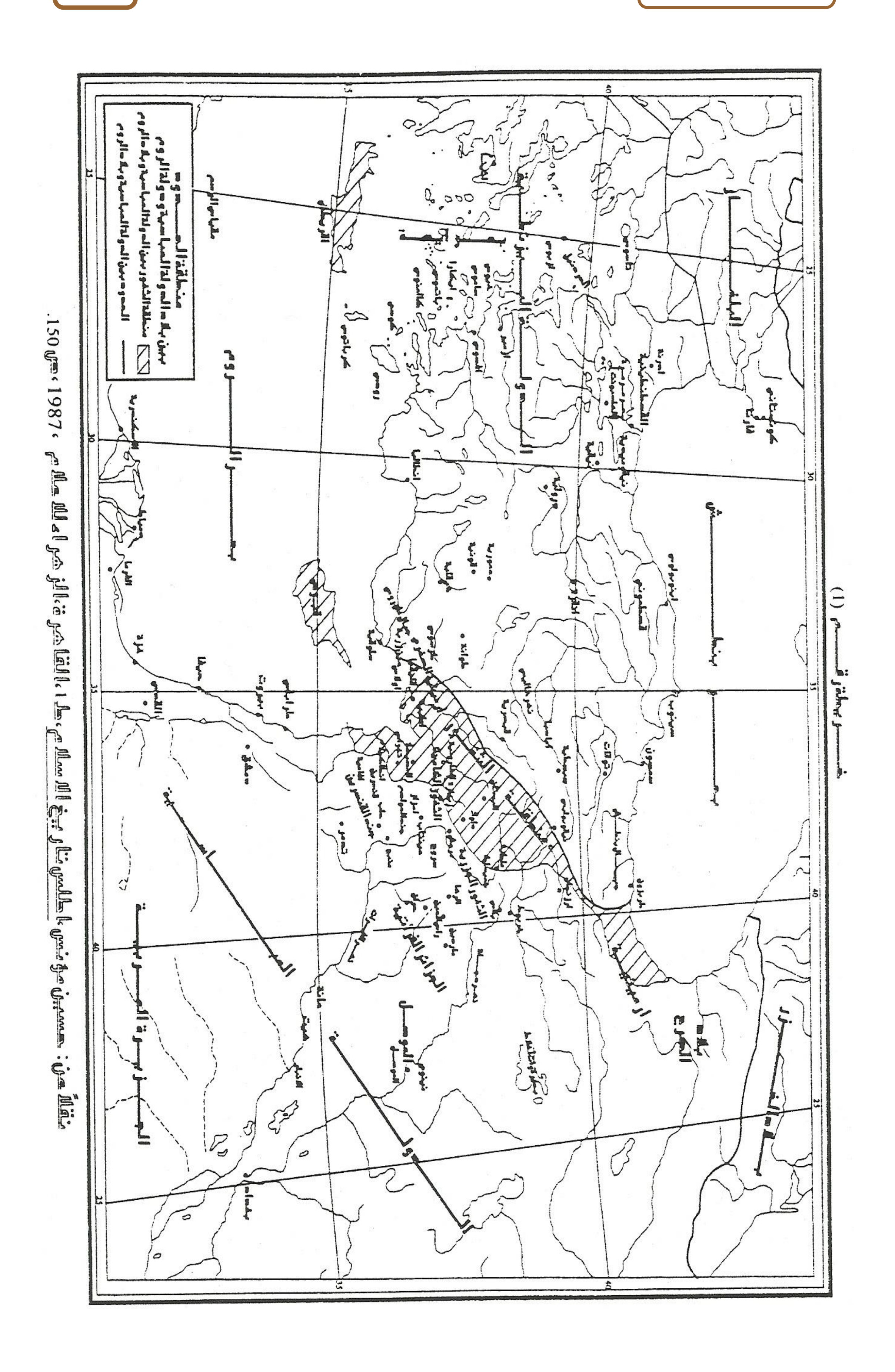
[١] - ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص١٠٠، ص١٠١.



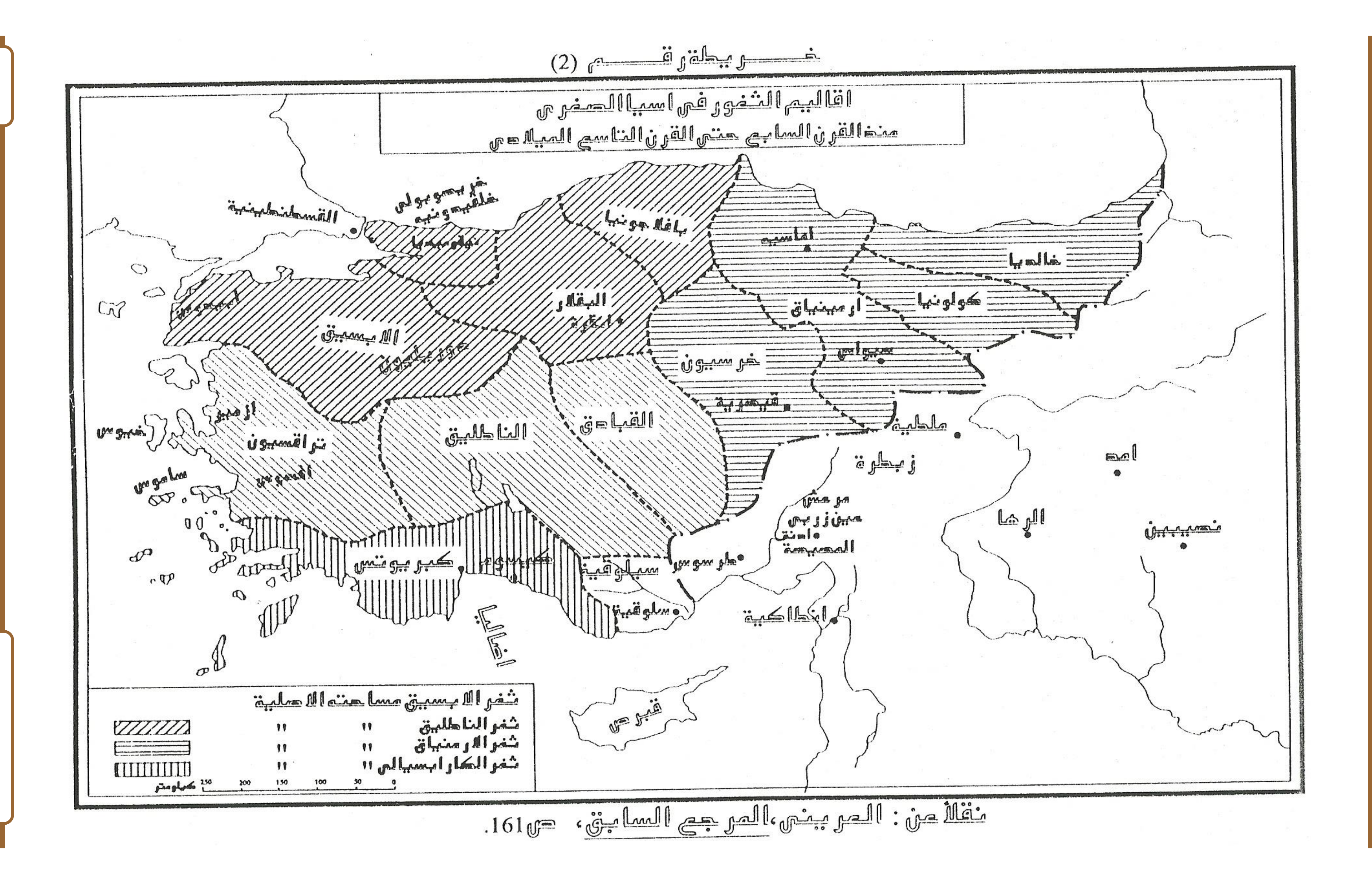
الخرائط

الخرائط

خريطة رقم (1)

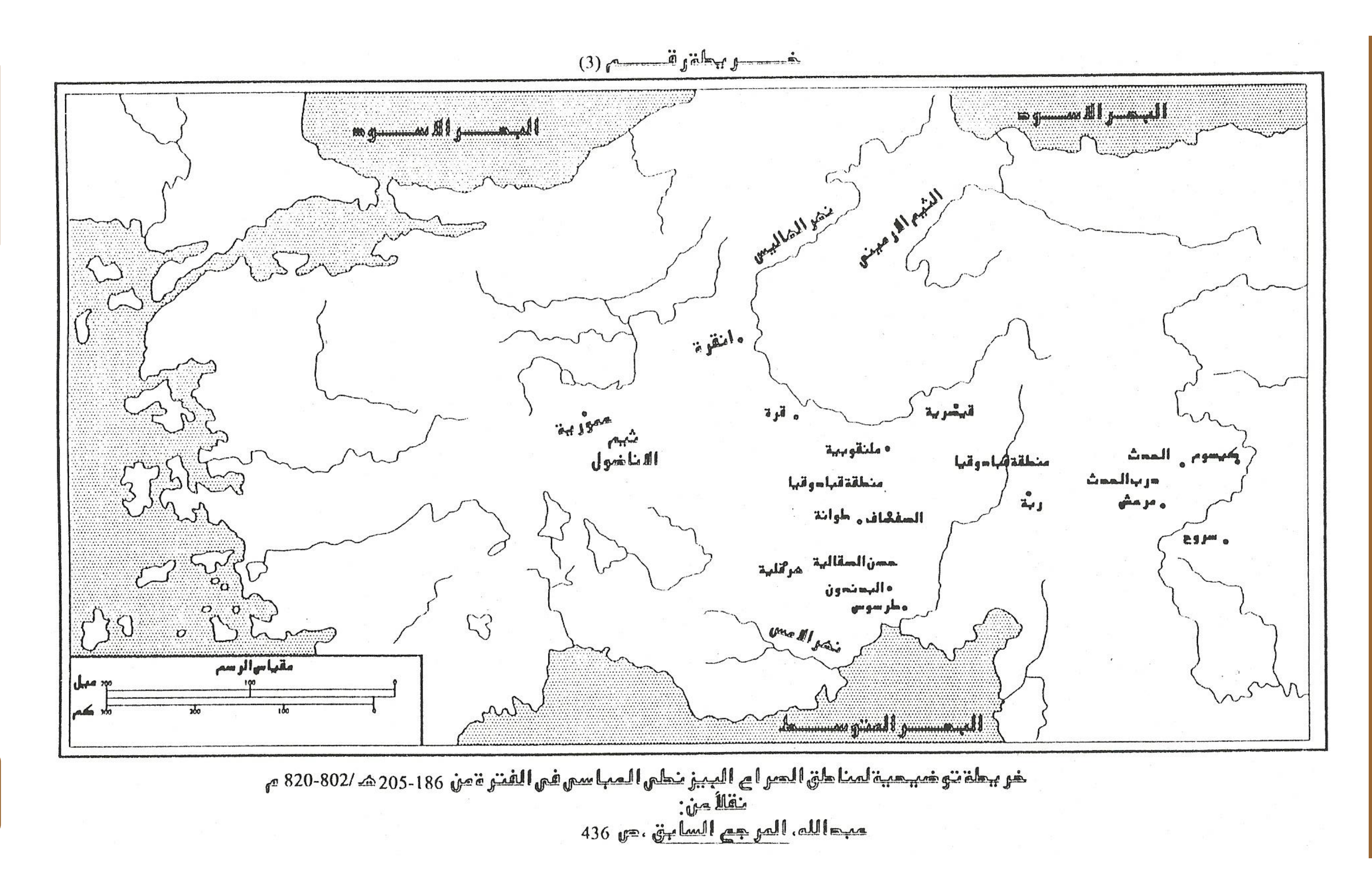


نقلاً عن: حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ط1، القاهرة، الزهراء للإعلام، 1987، ص 150.



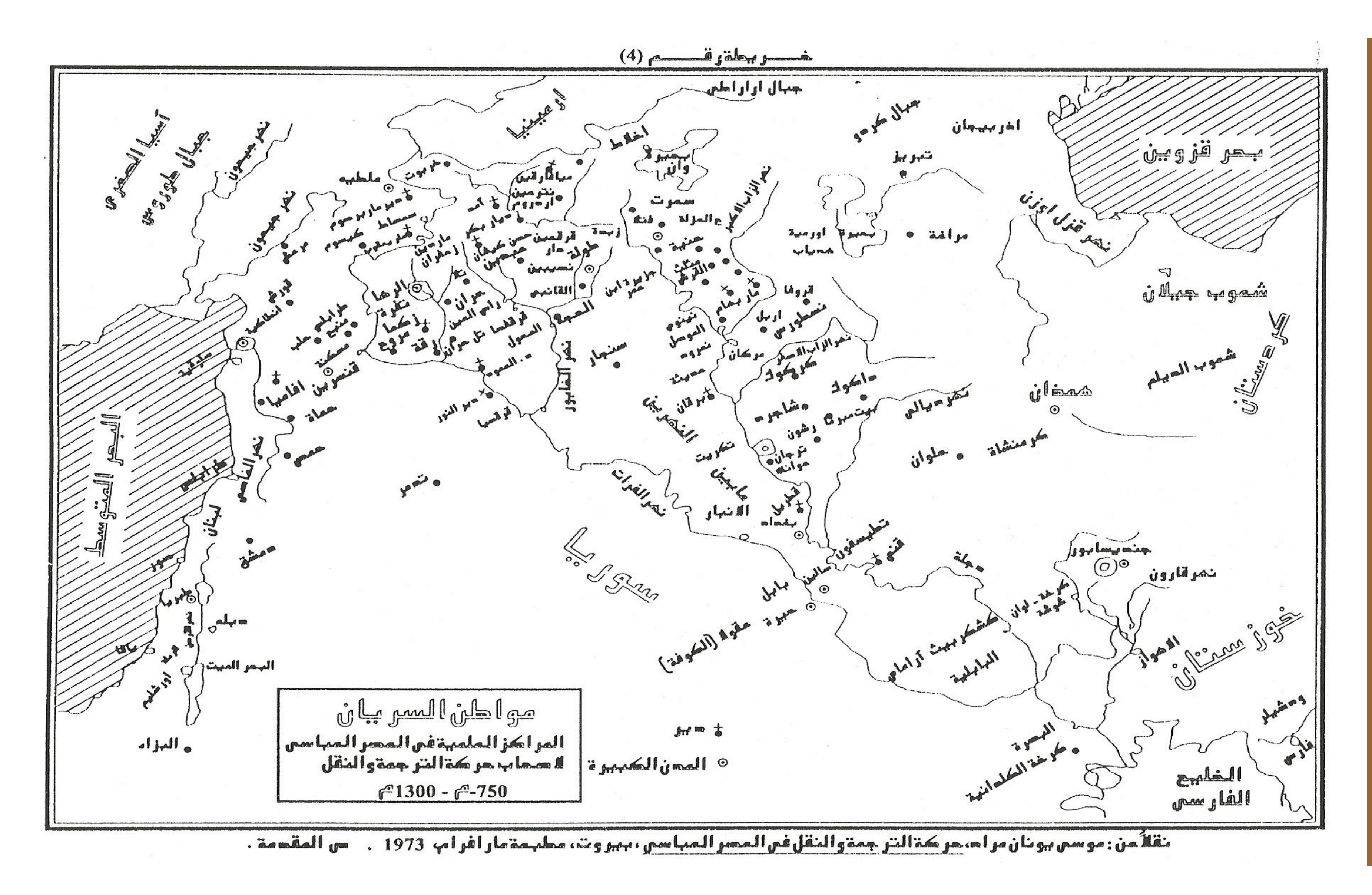
نقلاً عن: العريني، المرجع السابق، ص161.

خريطة رقم (3)



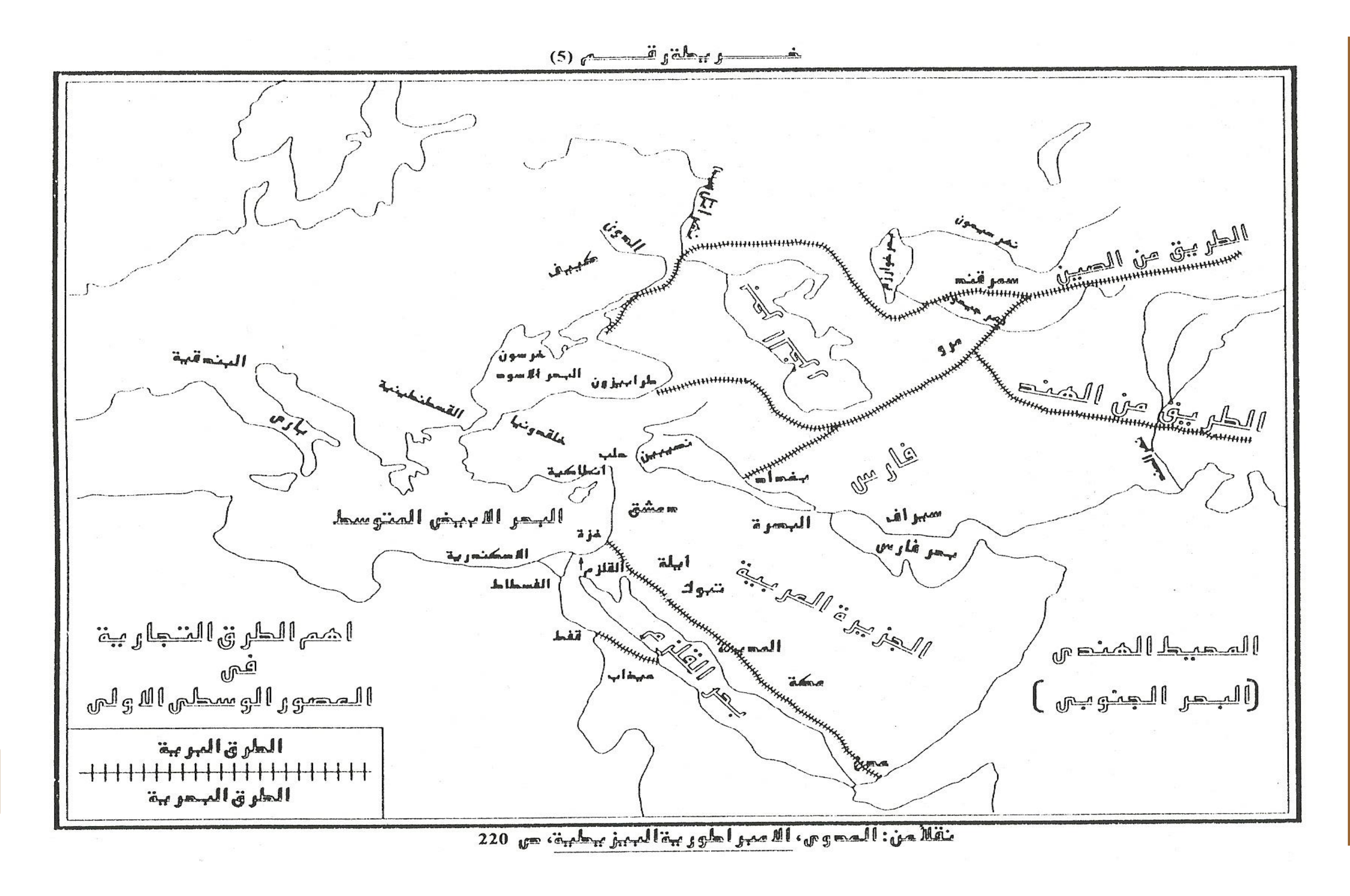
خريطة توضيحية لمناطق الصراع البيزنطي العباسي في الفترة من 186-205هـ/802-820 م
نقلاً عن:
عبد الله، المرجع السابق، ص 436

خريطة رقم (4)



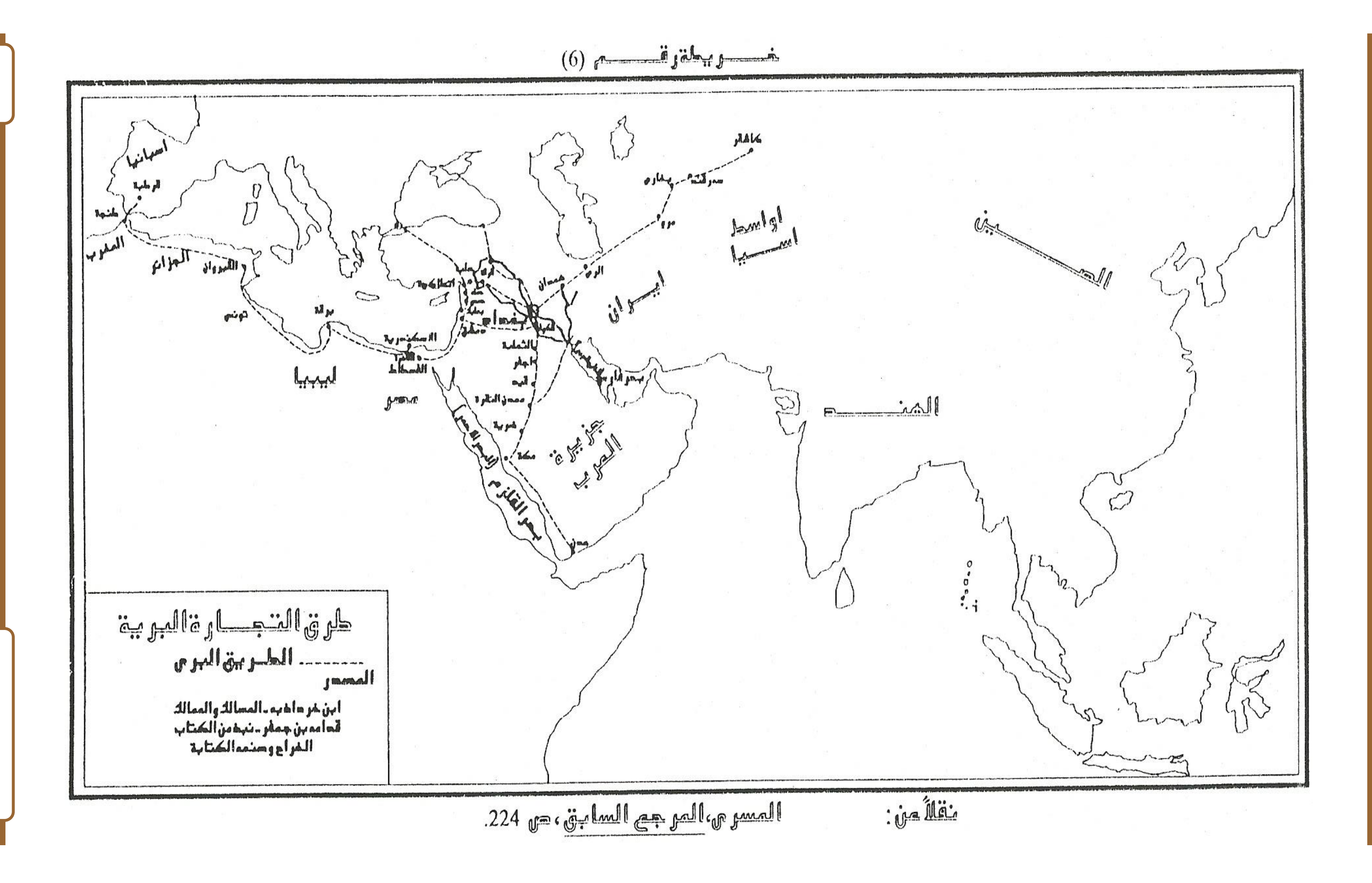
نقلاً عن: موسى بونان مراد، حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي، بيروت، مطبعة مار افرام 1973. ص المقدمة.

خريطة رقم (5)



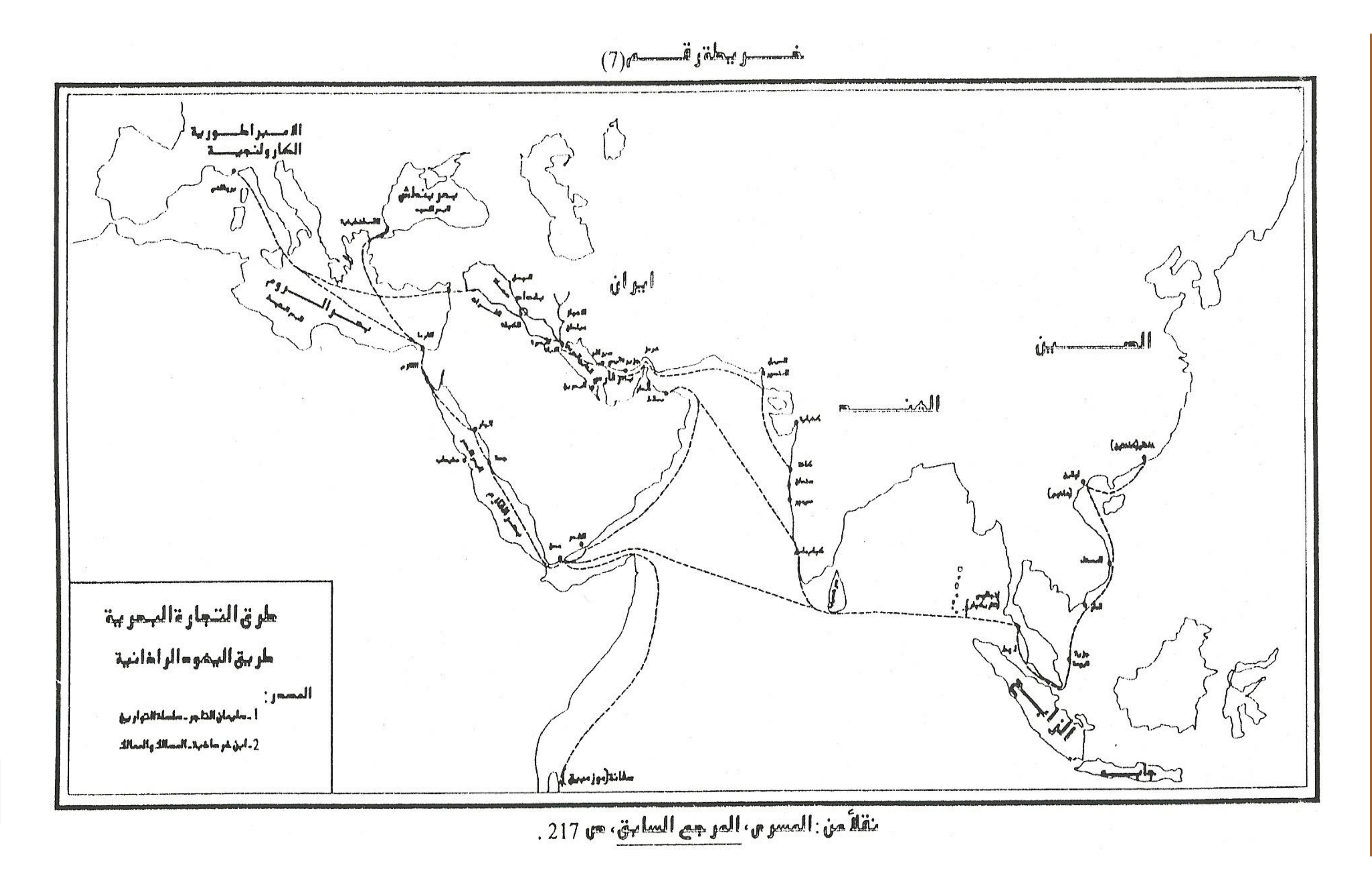
نقلا من: العدوى، الامبراطورية البيزنطية، ص 220

خريطة رقم (6)



نقلاً عن: المسري، المرجع السابق، ص 224.

خريطة رقم (7)



نقلاً عن: المسعودي، المرجع السابق، ص 217.